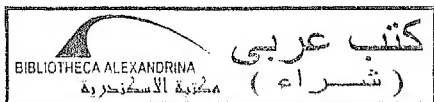




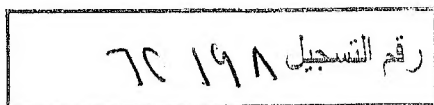
وكان مساء



عبد الحميد صوره السحر



مطبوعات مكتبة الاسكندرية



وكان مسأى

١٧٥
٨٨٢-٧٥٦

تأليف

عبد الحميد عبودة السحار

عبد الحميد عبودة السحار

٩٠

يطلب من :

مكتبة مصر
٣٧ شارع كاموستاف - القاهرة
٩٠٥٩٢ - ٩٠٥٩١

دار مصر للطباعة
سعيد عبودة والسحار وشركاه
٣٧ شارع كاموستاف - القاهرة
٩٠٥٩٢ - ٩٠٥٩١





وكان مسأو

لماذا قبلت ؟

سؤال رن في أعماقي وأنا جالس في مقصف مطار القاهرة ، وصغرى بناتي
قابعة في حجرى ، وقد أسندت رأسها إلى صدرى ، وأنا أدير عينيّ الذاهلتين
في أبنائى الكبار الذين سأتركهم في رعاية أخى ، وفي إخوتي الذين خفوا
لتوديعى ، وفي هؤلاء الصفوة من الأصدقاء الذين تجشموا الحضور في
البكرة .

واستقرت عيناى على وجه زوجتى المصفر ، تلك الزوجة التي غادرت
المستشفى بعد عملية خطيرة منذ عشرة أيام ، وأبت إلا أن ترافقنى في غربتى ،
وإذا بالسؤال یرن في أعماقي مرة ثانية في نبرات تنم عن الضيق والعتاب :

— لماذا قبلت ؟

ورن في أرجاء المقصف صوت المذيع يدعو ركاب الطائرة السعودية إلى
التوجه إلى الطائرة ، فنهضت وحملت ابنتى الصغيرة ، وأمسكت ابنى في
يدى ، وانطلقت مسرعا لألوى على شىء ، فإني أبغض لحظات الوداع .
وأحسست وأنا أوسع من خطاى أن زوجتى بعيدة عنى تخلفت تودع هذا
وذاك ، وتتزود من أبنائها آخر النظرات ، فتمهلتي في سيرى دون أن ألتفت
خلفى ، فقد خفت أن أضعف ، وتفضح ملاهى تلك الانفعالات التي بدأت
تمور في أغوارى .

وجف حلقي ، وسمعت أصوات إخوتي وأصدقائي وأبنائي خلفي يتمنون
لنا السلامة ، فإذا بالدموع تنبثق في عيني . وأحسست التابعة العجوز تدنو
منى وفي يدها ابنتي الثالثة التي كان عليها أن تغترب معنا ، فمسحت عبراتي
بظهر يدي .

ولحقت بنا زوجتي وهي ضعيفة واهنة ، وتقدمنا أنا وزوجتي والتابعة
العجوز وأبنائنا الثلاثة الصغار نحو الطائرة ، لتحملنا إلى المجهول السدى
ينتظرنا .

وفي مثل لمح البصر مرت في ذهني صور أبنائي الذين خلفتهم ورائي ،
فشعرت بغصة ، كتب علينا الفراق ، وإني أتجرع الليلة مرارة كأسه . ولكني
ماليت أن كبحت زمام عواطفى ، وأقنعت نفسي أن فراقا يحدوه أمل في اللقاء
يوما ، خير من فراق لا لقاء بعده . كتب علينا الفراق ، وقد اختار الله لنا أخف
مراتبه مرارة ، فشكرا لله .

وبلغنا سلم الطائرة ، وتقدمت زوجتي تصعد في الدرج متمهلة ، وأنا
أرقبها في إشفاق . هدها المرض ، وحام حولها الموت ، ومع ذلك أبت إلا
مشاركتي في غربتي ، وأن تحمل على عاتقها الواهن أثقل أعباء الزوجية ..
هجرت بيتها الوثير ، وتركت بعض أبنائها في رعاية الله ، وغادرت فراش
المرض إلى الطائرة مباشرة ، لتسهر على راحتى ، وهي أحق الناس بالرعاية
والسهر .

وصعدت التابعة العجوز وابنتي التي لا تتجاوز سنها الثامنة ، وصعدت
خلفهم ، وغبنا في بطن الطائرة ، وأغلق الباب خلفنا ، وبدأنا في التحرك . فلم
ألق نظرة من النافذة على الأهل والأصدقاء ، وإن كنت قد رأيتهم جميعاً بعين
خيالى يلوحون لنا بأيديهم ، فقد وطنت النفس على أن أستقبل ميلادى الجديد

صافي النفس ، سليم القلب .

وحلقت الطائفة بنا ، والتفت إلى زوجتي والتابعة العجوز وأبنائي الصغار ، فإذا بالصوت العاتب يرن في أغوارى مرة ثالثة :

— لماذا قبلت ؟

عرض على أن أعمل خبيراً في السعودية ، فلم أتردد ، وإن كنت أعلم أن معنى ذلك تركي بعض أبنائي في القاهرة ، وأخذى بعضهم معي ، الذين هم في حاجة إلى رعاية أهمهم . سأفصم عرى أسرتي بيدي ، وسأحرم من سنخلفهم ورائنا العطف والحنان .

قبلت العرض ولم أترث أو أطلب مهلة أفكر فيها . علمتني تجاربي السابقة أنني لا أرسم خط حياتي ، فأنا مسوق في طريق مرسوم لي ، كلما حاولت أن أعرج منه إلى طريق آخر ، أرغمتني المقادير على العودة إليه .

أردت أن أكون ضابط بوليس ، وكانت جميع الظروف مواتية ، كنت لاعب كرة ممتازاً ، ولعبت أكثر من مباراة مع فريق مدرسة البوليس في الصيف ، وأمرت بحلق شعري فقد قيل لي إن التحاق بالمدرسة أمر مفروغ منه ، ولكن تقوض فجأة كل شيء ، وفسد كل تدبير . مرض الرجل الذي كانت له الكلمة الأخيرة في اختيار طلبة البوليس ، والذي كان يجزم أنني من أوائل المقبولين . وحل محله آخر لا يعرف عنى شيئاً ووقع اختياره على طلبة لم أكن منهم .

مصادفة سيئة ، وجميع حياتي مصادفات .

والتحقت بمدرسة التجارة العليا رغم أنفي ، كانت المدرسة الوحيدة التي فتحت أبوابها لمن أغلقت في وجوههم أبواب الجامعة والمدارس العليا الأخرى ، وقبلت الواقع راضياً ، وعكفت على دروسي ، وأصبحت المدرسة

العليا كلية ولم يبق إلا شهو على تخرجى . وسرت أنا وأنى يوما نرسم مستقبل ، كان أبى تاجرًا فراح يحدثنى عما أعده لى عقب تخرجى ، راح يقول لى إن فى حى الجمالية مصنع صابون ، لا يعرف أصحابه كيف يديرونه ، وأنه يرقب تخرجى ليشترى لى ذلك المصنع ، وهو واثق أننى سأنجح فى إدارته . وقبل تخرجى بشهر واحد مات أبى ، ومات معه المشروع كله . فما كان معى ما أشتري به المصنع ، وحتى إذا اشتريته فما كان معى أبى لياخذ بيدي فى مسالك التجارة العملية الوعرة ، التى أجهل أسرارها . وكانت مصادفة أخرى غيرت مجرى حياتى .

وبدأت عقب تخرجى أطرق أبواب الوظائف ، كانت أمنيته أن أكون خبيرًا فى وزارة العدل ، وركزت كل هجومى لأقتنص إحدى الوظائف المشتهة ، ولكن أسلحتى لم تكن ماضية ، كانت تنقصها الوساطة ، السلاح البتار الذى يشق جميع الاستحکامات .

وقابلت مصادفة أحد أصدقائى فى ميدان الأزهار ، وشكوت إليه إعراض وزارة العدل عنى ، فإذا به يأخذنى من يدي وينطلق بى إلى وزارة الحربية ، ويدخل معى على صديقه وكيل الوزارة ، وما انتهت الزيارة حتى كنت موظفًا من موظفى الدولة .

وحتى زواجى كان لعبة من لعبات القدر : أحبيت فتاة منذ كنت طالبا ، وقبل تخرجى تعاهدنا على الزواج ، وفجأة اختفت من حياتى ، بحثت عنها دون جدوى ، كأنما انشقت الأرض وابتلعها ، وساق القدر فتاة أخرى فى طريقي ، كانت صديقة لأختى ، وراحت أختى تزين لى الزواج منها ، وفى لحظة من لحظات يأس قبلت ، وتزوجت لعل الفتاة الجديدة تضمد جراح قلبى .

وأبنائى لم أدبر أمر مجيئهم ، ولم أفكر فيهم قبل أن أراهم ، بل لقد حاولت جاهدا أن أمنع بعضهم من أن يروا نور الحياة ، وأن أجنب نفسى سخطهم على يوما ، إذا ركبوا رءوسهم وحاولوا أن ينطحوا صخرة القدر ، ولكن باءت جميع محاولاتي بالإخفاق .

أصبحوا مصادفة قلادة فى عنقى ، وصار على أن أهتبل الفرص التى تهيئها المصادفات لى لأبذل غاية جهدى لإسعادهم .
وأصدقائى جميعا عرفتهم مصادفة ، لم أدبر أمر مصادقتهم ؛ بل قادتنى الظروف إليهم ، وقد أثر بعضهم فى مجرى حياتى ، وتركت أثرا فى حياة بعضهم .

إننى أعمل ما وسعنى الجهد ، ولكننى لأحاول أبدا أن ألوى عنق القدر .
أو أكون « دون كيشوت » آخر يحارب طواحين الهواء ، إننى أندفع مع تيار الحياة ، وأستغل هذا التيار لتحقيق مآربى المشروعة ، نقى القلب ، دون أن أوذى غيرى من البشر .

وعاد الصوت يرن فى جوفى واهنا يتساءل :

— لماذا قبلت ؟

وإذا بصوت ضميرى يقول :

— قبلت السفر لأننى قبلت ما اختاره لى القدر . وأنا واثق كل الثقة أن سفرى إن هو إلا مصادفة جديدة تقودنى إلى سلسلة أخرى من المصادفات ، لن تنتهى حتى ينقطع مصادفة طريق الأمل . سأعرف أناسا جددا ، وستوطد بينى وبين بعضهم صداقات ، وسأضيق ببعضهم ، وقد أسخر منهم ، ولكن قلبى لن يبغضهم أبدا ، فقد روضته على الحب ، وأن يتلمس للناس جميع الأعذار .

قبلت السفر لأننى أومن أن هناك قوة عليا قادرة ، تسيطر على أقدارنا ، وهى التى فتحت لى هذا الباب ، ولو أنفقت العمر جميعاً فى تدبير أمر فتحه ما انفتح . وأن إيمانى بهذه القوة ، وثقتى فى حكمة تدبيرها وتسليمى كل أمرى إليها ، هو سبب ما أنعم به من راحة نفس ، وعلو أنف ، وخلو بال ، وهذا غاية ما أبغيه من الحياة .

وانساب الطائرة فى الفضاء تحملنا نحن الغرباء إلى دينا جديدة ، لأهل ولا أصدقاء ، لنندمج فيها ، ونحتل مكاننا بجهودنا ، ونفتح بشخوصنا القلوب المغلقة .

إننا على أعتاب حياة جديدة ، ميلاد جديد . إننا ننصهر فى بوتقة جديدة من بوائق الحياة العديدة ، وإن تفاعلنا مع البيئة وتأثرنا بها أو تأثرنا فيها ، هو ما سيكشف عن حقيقة معدننا .

ترى ماذا ينتظرنا هناك ؟

هذا هو الغيب الذى لم أحاول مرة أن يهتك خيالى أستاره . علمتنى تجارنى أن الغيب قلما يخطر على البال ، وأن غرور الإنسان يجعله يبنى قصور الأمانى فى الهواء . فإذا لم تحقق الأيام الأوهام ، ماجت فى الصدور الآلام ، واجتاحت النفس مرارة ، وخيم على ذهن السواد .

روضت نفسى على أن تقنع بما هى فيه ، وعلى ألا تشرئب بعنقها إلى ما فى أيدي الغيب ، فإذا ما ضن بما عنده ، فقد ضن بشيء لا تمتد إليه عيني ، وإذا أعطى بسخاء ، فما كان ذلك العطاء ليملائنى زهوا ، فهو يعطى اليوم لياخذ غدا .. إنها ودیعة ، وسياخذ ودائعہ كلها يوما .

كان سفرى فى يوم بارد من أيام يناير ، وكنت أستشعر قشعريرة خفيفة تسرى فى أوصالى . وما أن انسابت الطائرة وتقضت ساعة حتى مشى الدفء فى بدنى ، فرفعت رأسى ، وأخذت أطوف حول المكان بعينى .

كان مضيفنا رجلا نحىلا ، أسود الشعر ، غائر العينين ، نبتت شعرات متفرقة فى ذقنه ، يرتدى بدلة لم تمسها المكواة من زمن ، وفى عنقه كرافطة سوداء مبرومة ، وفى معصمه ساعة ذهبية نادرة .. كانت كل ملاحظته تنطق بأنه عربى .

سألته عن الوقت ، فجلس فى بساطة على مسند مقعدى ، ونظر فى ساعته الذهبية وأخبرنى . وصمت قليلا ثم حدثنى عن ساعته الذهبية التى أخذها هدية من الملك لخدمته الممتازة ، وسألنى هل كنت أرغب فى تناول الإفطار ، فشكرته وطلبت منه أن يترىث ، فقد عافت نفسى ذلك الطعام الذى يقدمه فى صندوق من الورق المقوى .

كان الرجل يبذل غاية جهده لإرضاء الركاب ، ولكن هيهات ، فنظرة من عينى مضيئة حسناء ، تنعش القلوب وتبث فى الطائرة روحا وحياة .

وتلفت خلفى فرأيت شيوخا فى ثياب عربية ، شغلوا عن كل شىء بحديث التجارة . ولحمت خلفهم ضابطا عراقيا ، وأسندت زوجته رأسها على كتفه ، وراحت فى نوم عميق . كانت ترتدى عباءة سوداء ، تستر الثوب النيلون

الهفاهف ، وانحسر عن وجهها النقاب ، فبدت زينتها كاملة : الشفتان الغليظتان طليتا بالأحمر فى إتقان ، العينان كحلتا وزاد فى سحرهما تلك الأهداب الطويلة الساهرة على الفتنة النائمة ، أما الشعر فتفننت فى تنسيقه يد فنان .. الزينة من الغرب والسحر من الشرق .

وغضضت من بصرى ونظرت أمامى ، وما تقضت لحظات حتى وجدت نفسى أتلفت وتخوننى عيناى وأديم النظر فى العباءة السوداء وشريط القصب الذى يزينها ، فاستشعرت ذلك الإحساس الذى يملؤنا إذا ما أدمنا النظر فيما يشرح صدورنا ، وما دار فى خلدى فى ذلك الوقت أن مصادفات حياى ستدفعنى يوما إلى ارتداء العباءة الخلافة ، وتحملنى إلى بلاد بعيدة ، لأخب فيها بين الحسان فى تيه ، وهن يتطلعن إلى فى شغف وتشوف ، تطلعى إلى حسناء العراق التى كانت كل حركة منها تكشف عن جزء من ذراعها البضة ، يثير فضولى ويوسع من عيى .

يا طالما رأيت أذرا بضة عارية ، وظهورا مكشوفة ، وأجسادا رائعة لا تسترها إلا قطعة من القماش فى مساحة المنديل ، ومع ذلك لم تهزنى كما هزتنى الأنامل المطلية بالمانيكور التى كانت تطل فى استحياء محب من تحت العباءة .. إن كل مستور مرغوب .

واختلست النظر إلى زوجتى فألفيتها مشغولة بإطعام الأولاد ، وتفرست فى وجهها الذابل مشفقا ، وإذا بخاطر يطوف برأسى ويقلقنى ، راح يسألنى عما أفعل إذا ما أتعبا ركوب الطائرة . وابتهلت من أعماقى إلى الله أن يسترها حتى نصل سالمين .

ونظرت إلى التابعة العجوز ، فألفيتها تصف صناديق الورق المقوى وما بقى بها من طعام تحت قدمها ، فذهبت إليها وقلت لها :

— لماذا لم تتناولى طعامك ؟

فقلت وهي ترفع بصرها إلى سقف الطائرة :

— الحمد لله : صائمه . أشكرك يارب على القناعة التي وهبتها لى . إننى لا أهتم بالأكل . آكل لقمة بدقة وأحمد الله .

* * *

وراحت الطائرة تتأهب للهبوط ، فدارت دورة فوق البحر الأحمر ، واتجهت صوب اليابسة ، وبدأت فى الانحدار كأنما تنزل فى درج . ونظرت من النافذة فإذا بجدة تبدو لعينى كقوالب الطوب المنتثرة فى الصحراء . ورفت على شفتى بسمة ساخرة ، طالما ارتسمت على وجهى كلما نظرت إلى مدينة من الجو ، فما كانت عيناى تميزان ذلك الإنسان الذى يتيه غرورا ويشمخ بأنفه ، إذا امتلك فى المدينة التى تبدو كقطرة فى محيط ملك الله بضعة أمتار .

وبدأت ملايح المدينة تتضح : قصر الملك وحدائقه الواسعة ، طرقات تتلوى كالثعابين ، سيارات فى غدو ورواح ، أفنية الدور الجرداء وبعض الخضرة ، برج المراقبة ، ممر الطائرات الطويل ، وجناح الطائرة الذى بدا لناظرى أضخم من جدة كلها .

ونفصد العرق البارد من جبينى ، فهبوط الطائرة يجعلنى أستشعر غثيانا . فاضطجعت فى مقعدى ، واختلست النظر إلى زوجتى أرقب أثر الهبوط فى وجهها ، فإذا بها هادئة ساكنة ، تتحدث إلى التابعة العجوز كأنما كانت منطلقة فى سيارة .

كنت أخشى أن يدور رأسها أو تنوء من الجهد ، ولكنها ظلت ثابتة ، بينا دار رأسى وكدت أغيب عن الوجود .

ولمست العجلتان الأماميتان الأرض ، وسرعان ما استقرت عجلة الذيل ،
وأخذت الطائرة تعدو إلى باب المطار الذى سيلفظنا إلى المدينة المجهولة ، التى
كتب علينا أن نمضى فيها حيناً من الدهر ، وندب فى أرجائها ، وتنفض بالآمال
قلوبنا . حتى نحس أن الدنيا تركزت فينا ، وأن العالم قد ضاق حتى صار
البقاع التى تتردد فيها أنفاسنا ، إن شردت أذهاننا إلى آفاق بعيدة .

إننا محدودون : الماضى ذكرى ، والمستقبل رؤى وأحلام ، أما الحاضر فلا
وجود له ، فهو يتقطر فى الماضى قطرة قطرة حتى إننا لا نملك أن نتحكم فيه .
إننى حيران أتلقت ، طويت الرحلة ودخلت فى العدم ، وإن كان فى جوف
الغيب ثمارها ، وراح الركاب يتدافعون بالمناكب يتعجلون الهبوط ، ليجد كل
منهم فى أثر وهمه ، ويهرع متعجلاً — وهو غافل — إلى نهايته .

ونفضنا وفسحت الطريق لزوجتى ، وحملت ابنتى الصغيرة ، وتعلق ابنى
بى والتصق جسمه بجسمى كأنما يلتمس حمايتى ، وما دار برأسه الصغير أن
الخوف الذى بدأ ينتشر فى أعماقى يفوق كل ما يحسه من رهبة .

وأخذت السيدة العجوز تحمل صناديق الورق المقوى التى كان بها طعامها
وما تبقى من الأولاد فى حرص شديد ، ثم تناولت يد ابنتنا الكبيرة وتحركت
خلفنا .

كنت متدثراً بالصوف ، وكانت زوجتى ترتدى فراء ، ووقفنا على رأس
الدرج لنخطو أول خطوة فى مرحلة حياتنا الجديدة ، فإذا بالشمس تسدد إلينا
أشعتها .. كان استقبالنا لنا الاستقبال الجار الوحيد الذى قولنا به .. ورحنا
نوسع من خطانا حتى نفر من لسع الشمس ، فقد خيل إلى أن أشعتها صوبت
إلى وجهى من خلال عدسة مركزة .

ودلفنا إلى الرحبة المسقوفة ، ودارت عيني فى المكان وأنا مأخوذ . كان كل

شيء جديدا أمامي ، غريبا في نظري . الناس بجلايبهم البيض ، وشيلائهم البيض أو الحمر ثبتتها على رءوسهم شطافات سود . وراح جندى يرتدى بدلة صفراء وعلى رأسه شال أصفر وفي ذقنه لحية يرشدنا بحيزرانة في يده إلى المكاتب الممتدة على يمين الداخل .

كانت المكاتب أشبه بنضد في مصرف ، وقف خلفها ثلاثة موظفين يرتدون الجلايب البيض ، وقد أرغمهم الشتاء على ارتداء جاككات من الصوف . وتقدمت وفي يدي جوازات السفر وأنا أتلفت احثا عمن سيرشدني إلى الطريق ، فقد بعثت إلى الوزارة برقية حددت فيها موعد وصولي . ولم أهدأ إلى أحد ، ولم يتقدم إلى إنسان ، واستشعرت وحشة ، فشتان بين الوداع والاستقبال ! كان مطار القاهرة غاصا بالمودعين ، ولم أجد في مطار جدة وجها واحدا أعرفه .

وتزاحمت الأفكار في رأسي .. لم أكن أملك نقودا سعودية ، فكيف أدفع أجر الحمالين الذين سيحملون حوائجي من المطار إلى الخارج ؟ والسيارة التي ستحملني إلى مكان ما لا أدريه كيف أسدد أجرها ؟ ! وذلك المكان الذي أذهب إليه أين هو ؟ . إنني لا أعرف عن المدينة شيئا . لو كنت وحدي لضربت في أرجائها مكتشفا ، ولكنني جازفت وأحضرت زوجتي المريضة وأبنائي الصغار والتابعة العجوز ، كأنما كنت منطلقا إلى نزهة .

وتملت زوجتي وظهر في وجهها الجهد ، ولم تستطع أن تكتم عواطفها فأرغت وأزبدت ، وفهمت من كلماتها الغاضبة أنها تريد مكانا تستريح فيه . وتلفت فلم أجد غير « البوفيه » فعرضت عليها أن تنطلق إليه وتنتظرنى هناك ، ولكن الأولاد أبوا وتشبثوا بي .

وختمت الجوازات وتقدمت صوب الجمارك ، وفتحت حقائبي جميعا

وفتشت تفتيشا دقيقا ، وقد فطنت من أسئلة « الآمرين بالمعروف » أنهم يبحثون عن أسطوانات أو شرائط مسجلة أو آلات عرض سينمائية ، أو كتب غير مرغوب فيها ، أو تماثيل ، أو زجاجات الخمر .

ومرت لحظات ثقيلة على نفسى ، حتى انتهى البحث وأشر على حقائبي بالطباشير تأشيرة المرور ، ولاحق لي مشكلة حمل الحقائب المقدسة أمامى . تقدمت خطوات أتلقت ، وإذا بشيخ يرتدى عباءة سوداء ههفاة وجلبابا ناصع البياض ، وعلى عينيه نظارات إطارها من فضة ، قد حف الشارب واللحية ، ولولا بعض الشعرات السود الثابتة فى الشعر الأبيض لخليل للنظر إليه أنه حليق ، وإذا به يهمس فى صوت خافت رفيع :

— حضرتك الأستاذ جمال عبد السلام ؟

— نعم .

فابتسم وهو يقول :

— تفضل .

وأحسست كأن يدا امتدت إلى وأنا مشرف على الغرق ، فتنفست الصعداء حمداً ، لم أعد وحدى ، أصبح معى من يرشدنى إلى الطريق . وانقضت الأفكار السود من سماء ذهنى ، وتقدمت أنا وزوجتى وأولادى والتابعة إلى السيارة التى كانت فى انتظارنا . كانت سيارة فاخرة ، وكان المكان غاصا بسيارات جديدة فريدة ، فكانت الساحة أشبه بمعرض للسيارات فى سوق شرق عجيب .

وانسابت السيارة بنا ، وأدير الراديو ، وانبعث صوت المغنية ناعما حنونا يغنى : « حيننا بعضنا .. » فالتفت خلفى أرقب المطار وأنا ابتسم فى حيرة ، وتمنيت أن أعود إلى « الأمر بالمعروف » الذى أنفق وقتا طويلا فى التنقيب عن

أسطوانات أو شرائط مسجلة في حقائب وأسأله عن الحكمة في ذلك ، إذا كانت جميع أغاني العالم الجادة والماجنة يحملها الراديو إلى الناس في سياراتهم ويوتهم ، بل إلى العذراء في خدرها !
ووصلنا إلى الفندق وحجزت غرفتين ، غرفة لى ولزوجتى وغرفة للأولاد والتابعة ، ودلفنا إلى غرفنا وارتمينا على السرر بثيابنا نستريح .

٣

راح الوقت يمر وثيدا وثيدا ، وأنا أقوم من سريرى وأذهب إلى السرير الآخر أرتمى فيه ، وأخذت زوجتى تضع بعض ثيابها وثياب الأولاد فى الصوان ، وتشاءت وتمطيت ، وجعلت أغدو وأروح فى الغرفة وقد تسرب الملل إلى .
وطال النهار ، ورأيت أن أخرج وأجلس أمام الفندق لعلى أجد من أحادثه وأقضى على الوحدة التى أطبقت على وضيق صدرى ، وارتديت قميصا وبنطلونا وخرجت .
كان الفندق هادئاً ساكناً ، ولولا أولادى الذين كانوا يلعبون فى الحديقة ، لحسبت النازلين فيه قد هجروه ، وسرت فى الطرقات التى تخترق الحديقة ، ودلفت إلى الردهة الخارجية فألقيت الموظف المعين لاستقبال الوافدين جالسا خلف مكتبه ولا أحد غيره ، فلما رآنى ابتسم لى ، فحييته ، وانطلقت إلى منضدة وضعت أمام الفندق تطل على الطريق العام .
ورحت أرقب السيارات الرائحة الغادية ، وقد انبعثت منها الأغاني المتباينة ، ورفعت عينى أتطلع إلى مبنى الإذاعة الغارق فى الصمت ، وجعلت

أتلفت فلا تقع عيناى إلا على مبان صامته ، وخلاء لا يجد ، فأحسست فراغا
في نفسى ، وخواء فى روحى ، وانقباضا فى قلبى .

وغابت الشمس ، وزحف الليل ، فنهضت لأجوس خلال الطرقات
القرية من الفندق ، ورحت أضرب على غير هدى . فلم ألمح ماشيا على قدميه
غبرى . وراحت أنوار السيارات التى كانت تتوافد كالموج تبهر بصرى ،
وتصاعد الغبار من الطرق المتربة ، وملأ أنفى وكنم أنفاسى .

وبعدت عن الطريق العام ، وسرت فى أرض فضاء واسعة ، ومس أذنى
صوت رجل يغنى ، كان صوته أقرب إلى الحداء ، فدنوت منه أصيخ
السمع ، وانطلقت خلفه وقد أرهفت حواسى ، ودبت فى أوصالى الحياة .
وأوغل الرجل فى جوف الظلام ، ودرت على أعقابى لأعود ، وأنا أردد
بعض ما حفظته من حدائه فى صوت منغم :

— يا فاطمة يا بنت النبى ..

وقصر خيال عن أن يتصور فاطمة بنت النبى ، ولكنه راح يمدنى
بذكرىات طوتها السنون عن فاطمة أخرى ، كانت جارتى أيام شبانى ، وقد
خفق بحبها الفؤاد يوما .

رأيت نفسى أمام بيتنا القديم فى شارع الزهرة ، وأنا أفتح باب سيارة
الأسرة . كنت طالبا فى الثانوية ، وكنت أنتهز فرصة ترك السيارة أمام
البيت ، وأخف إليها أدور بها فى الطرقات القرية منا .

وهبطت فاطمة من بيت العجم . إنها طفلة صغيرة ، بيضاء البشرة ذات
عينين سوداوين واسعتين ، وشعر أسود ناعم سبط ، تمتاز بروح خفيفة ،
وبسمة مشرقة .

وتقدمت ثابتة الخطو نحو السيارة ، وفتحت بابها الخلفى ، وصعدت فى

تؤدة وجلست في كبرياء ، وأغلقت الباب خلفها وقالت :
— هيا .

فالتفت إليها وقلت :

— إلى أين ؟

— إلى سراى السبكا كيني .

— والثلث ؟

— أدفعه في الطريق .

وانطلقت السيارة بنا ، وفاطمة تضحك في مرح . ولما ابتعدنا عن
البيت ، قلت لها :

— أريد الثلث الآن .

وراحت فاطمة تغنى . كان صوتها عذبا حنونا ، ينفذ إلى قلبي ، ويملؤني
نشوة ، ويفتح آفاقا رحبية من الأمل أمامي .
وسكتت فجأة ثم قالت :

— عم جمال .

— نعم .

— غنيت اليوم أمام المفتش في المدرسة .

— وماذا قال لك ؟

— طلب من التلميذات أن يصفقن لي .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— عم جمال .

— نعم .

— حدث وأنا أغنى للمفتش شيء عجيب ، كان يخيّل إلى أنني أغنى لك .

وابتسمت ، وأحسست حركة خلفي فتلفت ، فرأيت فاطمة قد نهضت
وروقت على المقعد ، وراحت تهتز ، فقلت لها :

— ماذا تفعلين ؟

— أريد أن آتى إلى جوارك لأضرب الكلاكسى .

ومددت لها يدي وقلت :

— تعالى .

وراحت تجتاز مسند المقعد الأمامي وقد استندت إلى ذراعى ، واختل
توازنها وسقطت إلى جوارى ، وما لبثت أن اعتدلت فى جلستها وهى
تضحك ، ودنت منى ومدت يدها تضرب الكلاكس فى مرح ..
وروقت أمام محل « ألف صنف » ، وهبطت من السيارة وأنا أقول
لفاطمة :

— ما رأيك فى أن أشتري لك اليوم شيكولاتة العفريت ؟

— لا ، إنها تلتصق بأسنانى وتغلق فمى . هل تضايقت من كلامى ؟

وذهبت وعدت بقطعتين من الشيكولاته ، رحنا نلتهمهما ونحن فى طريق
عودتنا إلى البيت .

وروت ذكريات الطفولة قلبى الجاف فإذا به يتفتح ، وإذا به يخفق فى
نشوة .. وراحت الذكريات تنثال على رأسى وأنا فى الطريق الهادئ الذى
استبد به الظلام .

رأيت فاطمة مقبلة على الحى ، وقد اعترض طريقها أحد الصبيان وراح
يجذبها من يدها ويخلف عليها أن تغنى له ، وهى ترفض وتتملص من يده دون
جدوى ، ورأيت نفسى أنقض عليه وألكمه لكمة قوية ينخلع لها فؤاده ،
ويترك اليد التى كان قابضا عليها .

وأذن المؤذن بالعشاء ، فانطلقت منشرح الصدر إلى الفندق ، ودخلت
غرفتي فإذا بأبنائي يرقبون عودتي ، وهرعت الصغيرة تتشبث بي وتأمرني أن
أحملها ، فرفعتها بين ذراعي وقبلتها .

وأسرع ابني إلى الجرس يدقه يطلب الطعام ، وسرعان ما جاء خادم نوبى
راحت التابعة تحذنه همسا .. كانت توصيه بما تريد .

وتناول الأولاد طعامهم في الغرفة الأخرى ، وتناولت أنا وزوجتي العشاء
في السرير ، فما كانت زوجتي بقادرة على مغادرة فراشها .
ونامت ابنتى الكبيرة ، ونام الصبى ، أما الصغيرة فقد جاءت إلى وهى ترفع
يديها إلى وتقول :

— احملنى .

وحملتها ونيمتها على ذراعى ، وبعد لحظات راحت فى سبات .. لقد
اعتادت ذلك منذ ذلك اليوم الذى دخلت فيه أمها المستشفى .

٤

كنت أترك رسائل على عند ذلك الشاب الجالس خلف مكتبه عند باب
الفندق ، وكان يتولى إرسالها . وفى ذات يوم رأيت أن أبعث رسالة بنفسى ،
فطلبت من الشاب طوابع بريد ، وأن يرشدنى إلى أقرب صندوق للبريد ، فإذا
به ينبغى أن على أن أذهب إلى مكتب البريد وأن أسلم الرسالة هناك ، فقلت
له :

— ألا توجد أماكن لبيع الطوابع ؟

— لا يبيع الطوابع الا مكتب البريد نفسه .

— وصناديق البريد ؟

— لا وجود لها .

— وأين مكتب البريد هذا ؟

— في السوق .

— وكيف أذهب إليه ؟

— في تاكسى .

وصمت قليلا ثم قال :

— لا تدفع للتاكسى أكثر من ريالين ، تسعيرة أية مسافة داخل المدينة

ريالان .

— أهى تسعيرة رسمية ؟

— لا ، إنها تسعيرة عرفية .

وهزرت رأسى وقلت :

— أأدفع أربعة ريالات لأسلم رسالة وأعود !

— هذا هو الحاصل .

— أمرى لله .

وخرجت من باب الفندق ، وقبل أن أتلفت بحثا عن تاكسى ، وقفت

أمامى سيارة فاخرة من أحدث طراز ، وقال السائق :

— تفضل .

وارتبت قليلا ، ولكن زال ارتباكى لما وقعت عيناي على كلمة « أجرة »

المكتوبة على جانب السيارة ، ففتحت الباب ودلفت إلى المقعد الوثير وأسندت

ظهري ، واستشعرت رغبة في الحديث فما أندر الفرص التى ألتقى فيها بإنسان

أحادثه ، وتفرست فى السائق مليا .. كان يرتدى قميصا وبنتلوننا ، وكانت

سحته شامية ، فقلت له :

— من لبنان ؟

— لا ، من فلسطين .. من نابلس ، أتعرف نابلس ؟

— أجل ، زرتها يوما بعد الكارثة .

— إننى من هناك ، جئت إلى هنا منذ ثلاث سنوات . إننى أملك نصف

هذه السيارة والفرص هنا طيبة ، ولكنى مشتاق إلى نابلس .

قلت له :

— الوطن غال .

فقال وهو يمد يده يفتح صندوقا ويخرج صورة :

— زوجتى هناك ، لم أرها منذ سنتين ، إننى فى شوق عظيم إليها .

ومد يده إلى بالصورة ، فتناولتها منه ، ونظرت فيها مليا ثم قلت :

— إنها جميلة ، حرام أن تتركها وحدها .. أحضرها لتعيش معك .

— الحياة هنا غالية .. جمعت بعض المال وسأذهب إليها يوما .

وساد الصمت بيننا ، شرد هو يفكر فى صاحبة الصورة وراح ينظر أمامه

نظرات حاملة .

وسرح خيالى يقلب ذكريات الماضى البعيد : رأيت نفسى شابا يافعا فى

الجامعة ، أخرج من بيتنا وأسرع إلى سيارتنا الجديدة ، وأقودها وأنطلق ، وعند

منعطف قريب أقف ألتفت خافق القلب نشوان .

وأقبلت فاطمة ، لقد تم نضجها وامتلا صدرها وصارت طالبة فى المدارس

الثانوية ، تقدمت ثابتة الخطو ولم تفتح الباب الخلفى كما اعتادت أن تفعل وهى

طفلة ، بل فتحت الباب الأمامى وجلست إلى جوارى شاحخة برأسها .

وانطلقنا إلى شارع الملك ، الشارع هادئ ساكن ، المزارع الأخضر ممتدة

على جانبيه ، الشمس تميل للغروب ، ولكن مشاعرنا كانت صاحبة .
 والتصقت كتفها بكتفى ، وملاً عبيرها أنفى ، وراحت تهمس فى أذنى بأغنية
 أم كلثوم : « إن كنت اسامح وأنسى الأسىة » فاستشعرت الكون كله يغنى .
 ودردنا دورة حول قصر القبة الذى يطوى صدره على أسرارهِ ، وعدنا إلى
 شارع الملك ، حتى إذا بلغنا الكوبرى ، تركنا السيارة وسرنا فى طريق جانبى
 ضيق ، يقود إلى محطة مترو الدمرداش .

وصعدنا فى الدرج ونحن نعدو فى خفة الشباب ، وهرولنا إلى مقعد خشبى
 عند مظلة الانتظار ، وجلسنا نملأ رئيتنا بالنسيم الذى راح يداعب وجهينا .
 كان المكان هادئاً ، والضوء الخافت المنبعث من المصابيح الكهربية الواهنة
 يزيد الجو شاعرية ، وكانت مشاعرنا الرقراقة الهفافة تمور فى صدورنا .. كنا
 نحس أننا نعيش فى أغنية عاطفية .

ورنت فاطمة إلى رنة طويلة ، ثم قالت بعض كلمات باللغة الإيرانية لم
 أفهم معناها ، ولكننى أحسست وقعها فى قلبى ، فاشتد وجيبه ، وفاضت
 مشاعر الغبطة على جوانبه .

ودنوت من فاطمة وقلت لها :

— ماذا قلت ؟

فرفت على شفتيها بسمه ساحرة ، وقالت فى دلال :

— لا .. لا أستطيع أن أقول .

فقلت لها منشرحاً :

— فهمت كل كلمة ، كانت عيناك أفصح من لسانك ، وأنا أحبك

يا فاطمة .

وملأت النشوة روحى ، فمددت يدى ولففت ذراعى حول خصرها ،

فانفلتت منى فى دلال ، وأردت أن أقبض على يدها فشردت كالغزال ، وجرت فى خفة فأخذت أعدو خلفها وهى تقفز فى الدرج وتنساب كالطيف فى الطريق الهادئ الذى يكاد أن يغرق فى الظلام ، لولا بصيص من النور المتسلل من مصابيح الشارع الرئيسى .

وقبل أن تصل إلى السيارة انهر نفسها ، ووقفت تضحك ضحكات متقطعة .. كانت متهاكة ، وما أيسر أن أضمرها إلى صدرى وأضع لثامى على وجهها حيثما أشاء ، ولكننى أسندت ظهرها بذراعى ، ورحت أصلح شعرها المتطاير بيدى ، وقلبى يرقص طربا بين ضلوعى .

ووقفت السيارة أمام مبنى البريد فأفقت من أحلامى ، وأخرجت ريالين من حافظتى دفعتهم إلى السائق الفلسطينى ، وأنا أرجو فى قرارة نفسى أن يجد مالا ممدودا ليعود إليها .. إلى الشابة التى تترقب .

كان المبنى من طبقتين : طبقة للبريد وطبقة للبرق . وكان أمام المبنى بعض مكاتب جلس إليها بعض العرب اليمنيين يكتبون الرسائل للأيين ، وما أكثرهم ! إنها تجارة رابحة فى بلد كثر فيه المال ، وأصبحت الاتصالات الداخلية والخارجية ضرورة .

وصعدت أربع درجات ، ثم دلفت من الباب الضخم إلى ممر واسع ينتهى بردهة فسيحة تطل عليها شبابيك سلحت بقضبان من حديد ، وجلس خلف كل شباك رجل تزين وجهه لحية تغطى الذقن هذبتها يد حلاق ماهر ، وقد ارتدى جلبابا أبيض ، ووضع على رأسه طاقية بيضاء أو شالا أبيض وعقلا . ووقفت أتلفت فلم أجد لافتة تدلنى على الشباك الذى أذهب إليه ، فسألت عنه رجلا يرتدى سروالا طويلا أبيض ، وعلى رأسه عمامة صفراء زر كشت بخيوط ذهبية ، وارتدى صديرية من نفس قماش العمامة ، ونبت فى ذقنه

وشاربه بعض شعرات متفرقة . وتدفتت الكلمات من فمه ، الضاد تنقلب ظاء . والقاف جيما ، وبعض الحروف تؤكل ، فلم أفقه قوله ، وكانت إصبعه التي أشار بها أفصح من بيانه .

ومشيت إلى الشباك فإذا بصبيان المحال التجارية يتدافعون بالمناكب ، كل يحاول أن يتخلص من الرسائل التي يحملها ، ووقفت بعيدا أنتظر أن ينحسر الموج عن الشباك ولكن هيهات .

وطال انتظارى ، وفطن الرجل إلى وقفى ، فمد يده وتناول منى الرسالة والنقود ، فشكرته وانصرفت أفكر فى ذلك الضنبى الذى كتب على أن أتحمله كلما فكرت فى بعث رسالة .



وخرجت إلى الطريق ، وخطرت لى أن أجوس خلال السوق فوليت وجهى شطرها ، وسرت فيها أجيل البصر ، فخیل إلى أنى أشاهد « ديكورا » فى فناء ستوديو سينما .

كانت البيوت القديمة ذات المشربيات المصنوعة من الخشب الكسر تشرف على السوق ، وقد اختفت سيقان البيوت خلف حوائت حديثة بنيت بالخرسانة والمسلح . وعلى مدى البصر قامت سقيفة على جانبيها حوائت مرتفعة عن الأرض فرشت بسجاجيد ، وجلس التجار على حشايا حفاة الأقدام صفت أمام حوائتهم أحذيتهم أو نعالهم المصنوعة من المطاط ، وانسبت فى السوق ، وتقاطر إلى متسولون من جميع بلاد المسلمين ، من الهند وجاوة واليمن وحضرموت وساحل الذهب والمغرب والسودان ، ومدوا أيديهم

يطلبون « الكرامة » بلهجات متباعدة ، إلخاف في السؤال كتم أنفاسى حتى لم أعد أنعم بتلك النشوة التى بدأت تنداح فى صدرى ، لرؤية السوق التى عبرت بى عشرات القرون ، وراحت توغل بى فى جوف التاريخ .

ووسعت من خطوى لأفر من الإلحاح الثقيل ، ويشسوا منى فانفضوا من حولى يرغون ويزبدون ... كانوا يسبوننى بلهجاتهم التى ما كنت أفقها ، وإن حزرت ذلك من حركات أيديهم وتقلصات ملامحهم . ابتعدوا عنى ليسقطوا كالذباب على صيد جديد .

وسرت أنفوس فى الحوانيت : غسالات كهربية وثلاجات ومكيفات هواء ، وأدوات زيتية ، وأقمشة مكدسة من النايلون وساعات معروضة فى الواجحات ، وزجاجات العطر الوارد من باريس قائمة على أرفقها فى دلال ، والتجار يجوسون خلال أحدث واردات الترف بجلابيهم البيض ، وطواقهم على رءوسهم .. إنه مشهد فريد .

كانت كل المعروضات كإليات ، لم يجلب دولار الزيت للقوم إلا أدوات الزينة والترف ، أما السلع الإنتاجية فليس لها وجود .

وبلغت السقيفة ، ودرت بعينى فى الحوانيت المرتفعة عن الأرض فرأيت أقمشة أمريكية وسويسرية وفرنسية ويابانية .. وامتألت الحوانيت بنسوة ترتدى كل منهن ثوبا فضفاضاً من قماش أسود أو أبيض أو أصفر أو رمادى ، بضيق عند الرأس حتى يتخذ شكله ، ثم يتسع كالروب ويغطى الجسم كله ، وفيه فتحة مستطيلة عند العينين مغطاة بشبكة ، ترى المرأة منها ، وتحجب الشبكة اللحاظ الفتاكة .

ووقفت أقلب الطرف فى أقمشة النايلون والأقمشة المرصعة بالترتر والخرز والورد المجسم وأنا مذهول . واحتلت رأسى صورة راقصة عارية لا تسترها

إلا غلالة رقيقة من النايلون تدور حول نافورة في قصر أعمدته وعقوده من الطراز العربي .

ووصلت إلى معرض للسجاد العجمي ، وأطلت النظر إلى سجادة معلقة على الحائط ، وإذا بخيال يطوى المسافات والسنين ، وإذا بى أرى نفسى فى خان الخليلي أرقب دكان تاجر سجاجيد عجمية من بعيد .. إنه دكان والد فاطمة ، وقد دلفت فاطمة إليه بعد أن طلبت منى أن أنتظرها حتى تعود .

وأقبلت فاطمة ترتدى ثوبا أزرق ، ولفت شعرها فى « إشارب » أزرق جميل ، ودنت منى مشرقة الوجه ، وراحت تشير لى برأسها أن أسبقها وألا أدنو منها ، حتى لا يرانا والدها الشيخ الذى وقف على باب دكانه يرقبها فى عطف حتى تختفى عن عينيه .

وخرجنا إلى الصاغة والتقينا ، وسرنا قليلا صامتين ، ثم قلت لها :

— لم يعد يربطكم بإيران إلا السجاجيد العجمية .

فابتسمت وقالت :

— كل أهلى هناك : أعمامى وأخوالى ، وأبناء أعمامى وأبناء أخوالى .

وصمتت قليلا ثم قالت فى زهو :

— بعضهم فى طهران وبعضهم فى الهند .

— وما الذى جاء بكم إلى مصر ؟

فقال فى دهش :

— إننى ولدت فى مصر .

— أعرف ذلك ، بل وأذكر يوم مولدك . أقصد ما الذى جاء بأبيك إلى

مصر ؟

— كان أبى تاجرا ، وكان موسرا ، حدث أن بارت تجارته ، وأفلس فلم

يطلق البقاء في طهران . فحمل ما بقي عنده وهاجر إلى مصر . ونزل عند جدى
وكان من طهران أيضا ، وكان قد سبقه في الهجرة إلى مصر .
وعمل أبى مع جدى ، ورأى أمى فأحبها وخطبها وتزوجها .
فقلت لها مداعبا :

— لولا إفلاس أبىك ما جئت إلى الوجود ، وما قدر لى أن أراك وأن
أحبك .

وغضت من بصرها حياء ، وإن كانت السعادة تفرقت في وجنتها .

* * *

وأفقت على صوت رنين منغم لصناجيتين له طابعه المميز ، ففحق قلبي في
شدة وانتبهت مذعورا ، وتلفت أرى هل تبع جسمى روحى إلى الغورية ؟
لم تقع عيناى على بائع العرقسوس وإن كان الرنين يداعب أذنى ، فانطلقت
كالمسحور إلى مبعث الصوت أدفع الناس بمنكبى ، وقد انبثق في أعماق حنين
عجيب .

ورأيته أمامى بقدره وأحزمته الجلد التى تشد القدر إلى بطنه ، والإزار
المخطط بخطوط حمراء ، وساقيه العاريتين ، ونعاله الذى دس فيه قدميه ،
وتفرست في وجهه .. كانت ملامحه تنطق بأنه مصرى ، وعجزت اللحية
الكثة التى أطلقها أن تخفى أصله .

واستشعرت في تلك اللحظة أن هذا الرجل ليس غريبا عنى ، إنه قريب إلى
نفسى ، حبيب إلى قلبى .. وسار الرجل وأنا أقتفى خطاه .. تجسم فيه الوطن
الحبيب .

وغاب الرجل في زحمة السوق ، ونظرت أتلقت فوق بصرى على رجل
جالس على مقعد قصير ، وأمامه لوز مقشور ولوز هندى أشبه بناب الإنسان ،

ولوب وفول ، وهفت نفسى إلى اللوز الهندى فاتجهت إلى الرجل ، وفى نفس الوقت اتجهت إليه امرأة وصاحبته .

كانت المرأتان متسريلتين بذلك الثوب الذى يستر الجسم من الرأس إلى أخمص القدم ، وكانتا تنظران من الطاقة المفتوحة عند العينين المغطاة بشبكة ، وأخرجت إحدهما يدا بضة بيضاء فى أصبعها خواتم ، وأشارت إلى اللوز الهندى وقالت :

— إيش هذا ؟

فقال الرجل فى هدوء ، وإن كانت عيناه الجائعتان تتجولان فى اليد البيضاء والثوب النايلون الهفهاف الذى بدا من تحت الثوب الساتر :

— سن العجوز .

فقال المرأة وهى تضحك ضحكة ناعمة مثيرة :

— ووين « حج » الشاب .

وسال لعاب الرجل ولمعت عيناه ، ودغدغت الضحكة الناعمة حواسى وزاد فى نعومتها الجفاف الذى أحيا فيه .

واشتريت قليلا من اللوز الهندى ، وانصرفت أفكر فى حرف القاف المسكين الذى سلبته بعض الشعوب العربية شخصيته وضمته إلى مملكة الهمزة ، واغتصبته شعوب أخرى لتضمه إلى مملكة الجيم ، إنه حرف مضطهد كالشعوب المغلوبة على أمرها ، تساق إلى هذا المعسكر أو ذاك قسرا للتذوب فيه كما يذوب الملح فى الماء ، وخطر لى خاطر ، لماذا لا يقوم أحد اللغويين الأحرار ويطالب بحق القاف فى الحياة ؟!

وانسبت فى دروب السوق أرنو إلى السيارات الفاخرة الرابضة أمام الدور القديمة فى الأزقة المنحدرة ، وإلى قطعان الماعز التى ترعى حولها أو تسند

ظهورها إليها . فكانت السيارات تبدو لعيني نشازا في المنظر الشرق العتيق ،
فكنت أغمض عيني أحيانا وأتصور مكانها جمالا أناخت ، لتكتمل في ذهني
الصورة الصادقة التي انطبعت في ضميري منذ عشرات السنين .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالمغرب ، فراح التجار ينشرون الشباك على
حوانيتهم وينصرفون إلى المسجد وفي حركاتهم قلق وخوف ، يتلفتون
مذعورين .. وتلفت أبحث عن مواطن الفزع ، فلمحت رجلا في ثياب صفراء
تشبه ثياب الجنود ، وضع في فمه سواكا يلوكه وراح ينادى :

— الصلاة .. الصلاة يا ولد .. صلوا الله يفتح عليكم .

كنت منطلقا إلى المسجد لأصلي ، ولكن ذلك « الأمر بالمعروف » جعلني
أتلکأ ، فأنا أبعض أن أساق إلى العبادة سوقا ، وأمقت أن يحاول إنسان أن يحول
بيني وبينها ، فهذا أمر يتعلق بي وبالخالق ، ولا محل لثالث بيننا .

وكادت السوق أن تقفر ، والأمر بالمعروف يصول ويجول فيها منتفخ
الأوداج مرفوع الرأس . كان يستشعر سلطانه ، وكان راضيا عن نفسه بعد
أن حشر الناس حشرا في المسجد ليعبدوا الله .

ودنا مني وقال :

— الصلاة .. صلوا الله يفتح عليكم .

وتحرك شيطاني فقلت له :

— وأنت : ألا تصلي ؟

— أصلي بعد أن أنتهى من المرور في السوق .

— لن أصلي إلا معك .

وسار وأنا إلى جواره . وما قطعنا بضعة أمتار حتى ضاق بي ، فالتفت إلى

وقال :

— ٣٢ —

— ستفوت على نفسك ثواب الجماعة .

— إذن نعود معا إلى المسجد حتى لا يفوتك الثواب .

فقال في صوت مشوب بغضب :

— لا يزال أمامي مرور .

فقلت في إصرار :

— وأنا معك .

وانطلقنا وعرجنا إلى زقاق جانبي ، وهو يصيح في التجار والمارين :

— الصلاة ، الصلاة يا ولد .

وفر الجميع من أمامه كأرانب مذعورة ، وتدفعوا على المسجد ، وطاف

بخاطري أن بعضهم يرغمون على الصلاة دون وضوء .

وفاض كأس صبره فعبث في لحيته ثم قال :

— بالله يا عمي اذهب .

فقلت في إلحاح :

— وأنت ؟

فقال في صوت خافت :

— أستمر في عملي الذي أعول منه أولادي .

— آه ! هذه وظيفة ! مهنة !

فقال وقد نفذ صبره :

— شغل .. شغل .. روح الله يحزن عليك .

ولاك السواك في قسوة ، وفطنت إلى أنه يريد أن يقول « الله يخرب بيتك »

لولا بقية من حياء .

ودوت في جوفى قهقهة ساخرة ، وإن ظلت شفتاي مزومتين .

راحت الأيام تمر على وتيرة واحدة ، ذهاب إلى العمل صباحا ، وعودة إلى الفندق بعد الظهر ، ووقت طويل يتقطر لحظة لحظة ، لا حركة ثائرة ولا هدف يثير العزائم ، ولا أصدقاء يقضون على ذلك الملل البغيض الذى صار طابع الحياة .

أصبحت أعيش فى أفكاري وأقلب صفحات الماضى . ولولا الذكريات التى كانت تنعش القلب لجف وتبخرت منه المشاعر والأحاسيس . مرت أمام عيني أيام طفولتى ، واجتررت أيام شبلى ، ورحت أطيل التأمل فيها ، فهى أحب الذكريات إلى النفس التى باتت فى خواء .

ملل .. ملل .. ملل ، ولا شئ غير الملل ، وعشت فى ذاتى ، فالحياة التى تنبض فى أغوارى تفوق كل ما حولى من حياة .

أقمت دنيا صاخبة فى نفسى : مباريات فى كرة القدم كنت بطلها المجلى ، وما أكثر الأهداف الرائعة التى أصبتها ، روايات سينمائية كنت أذكر طرفا منها وأقوم بنسج أغلبها من وحى خيالى ، ندوات أدبية ومساجلات بينى وبين زملائى . مشاهد غرامية تروى القلب الصادى .

وكنْتُ أطلب من السائق اليمنى القمىء أن يمر علينا عصرا ، ليخرج بنا إلى المدينة نظوف أرجاءها لنقطع حبل الملل البغيض . إنه أول صديق لنا فى جدة ، وما كان لنا يد فى اختياره ، بل فرضته علينا المصادفات .

(وكان مساء)

عرفنا تاريخ المدينة منه ، وهو تاريخ عجيب ، ملئ بالأخطاء ولا ريب ، وقد انطبعت تلك الأخطاء في عقولنا ، وما ذنبنا ما دمنا لم نجد لنا دليلا غير ذلك اليمنى .

وقف بنا عند سور أبيض ، يحيط بحرية واسعة وقال :

— هنا قبر أمنا حواء .

— وهل حواء مدفونة هنا ؟

فقال في تأكيد :

— نعم .. نعم .. إنها الجدة .

وزادني حديث اليمنى حيرة ، كنت لا أدرى حقيقة اسم المدينة أهو جدة بضم الجيم ، أو جدة بكسرها ؟ فإذا به يسوق الدليل على فتحها ، فيفتح بذلك بابا جديدا للبلبة أفكارى .

وطفق اليمنى يصف في مبالغة طول حواء ، ويحدد مكان رأسها ومكان قدمها ، والتابعة تصغى إليه في اهتمام ، وقد لاح في وجهها إعجابها بعلمه الغزير ، وسرها أنها اكتشفت سرا جديدا ، فقد حجبت من قبل ست مرات ولم تكن تدري أن أمها حواء على مسيرة دقائق من ميناء جدة ، الذى كانت تهبط فيه .

وسارت السيارة بنا في شوارع قفراء ، وأدار السائق اليمنى الراديو ، وراحت الأغاني المصرية تبدد الوحشة التى رانت علينا ، وما لبث خيالى أن شرد وراح يعدو وراء الذكريات الحبيبة :

رأيت نفسى فى شرفة منزلنا فى شارع النزهة أقرب منقبض النفس الأثاث الهابط من بيت العجم ، فقد استقر رأيهم على مغادرة الحى والانتقال إلى حى بعيد من الأحياء الجديدة التى كانت تتبلور فى القاهرة .

كنت أحس جفافا فى حلقى ، وقلقا يثور فى صدرى ، ورهبة من المستقبل ، وراحت أوهامى توسوس لى أن جبل الوداد الذى كان بينى وبين فاطمة قد انقطع ، فانخلع قلبى وراحت مشاعر الحب تعصف بى ، حتى كدت أهروى إلى دارها أتشبت بها .

ورحت أغدو وأروح فى الغرفة كليث جريح ، كنت أئن أنينا مكتوما ، وأصوات ترن فى أعماقى : أحبها .. أحبها ، وبدونها لن أعيش .

وعدت إلى الشرفة أنظر ، فألفيتها تلقى على بيتنا نظرة وداع ، فخفق قلبى فى شدة ، وأشارت إليها فى لهفة أن تنزل لمقابلتى . وتحركت لتلبى رغبتى ، فغادرت الغرفة كالعاصفة ، وهبطت فى الدرج قفزا ، وانسبت فى الطريق لا ألوى على شىء .

وانتظرت والقلق يستبد بى ، وجاءت فاطمة ، فلما دنت منى مدت يديها إلى فقبضت عليهما بيدي ، وقلت :

— فاطمة ، إننى لا أطيق هذا الفراق ، لا أستطيع أن أتصور أن ينقضى نهار دون أن أراك . فاطمة ، قولى إننا سنلتقى كل يوم كما كنا نلتقى ، قولى ... فقالت فاطمة فى ثقة :

— وما الذى يحول بيننا وبين اللقاء ؟ . إننى أحبك .. وأحبك .. وسأظل أحبك .

وحاولت أن أتكلم ، ولكن خنقتنى عبراتى ، فقالت فاطمة :
— جمال .

وهمت أن أضمها إلى صدرى ، ولكننا كنا فى الطريق .

* * *

وارتفعت أصوات أبنائى فى السيارة ، وقالت زوجتى :

— ٣٦ —

— جمال إلى أين سنذهب وقد جاء الليل ؟

— سنعود إلى الفندق .

وصاح الأولاد :

— لا .. لا .. كيلو عشرة .. كيلو عشرة .

وابتسم السائق اليمنى القمىء ، وقال :

— كيلو عشرة .

وسار إلى طريق مكة .. إنه طريق مرصوف على جانبيه مبان حديثة بديعة ، والمصابيح الكهربائية تبدد ظلامه ، وبلغنا أول الطريق ، فأشارت ابنتى الكبيرة إلى قصر غارق فى الأضواء وقالت :

— قصر الملك .

وراحت التابعة تسأل اليمنى القمىء عما إذا كان قد دخله ؟ فنفى الرجل ذلك ، ولم يكتف بالنفى ، بل راح يصف دقائق القصور السبعة وما يدور فيها .

واستمرت السيارة تطوى الأرض حتى بلغنا غابة من الأشجار ، فصاح ابنى فى فرح :

— كيلو عشرة .. كيلو عشرة .

وكان هذا كل ما يفيقه ، وراحت الصغيرة تردد ما يقول ، ثم نادى على لأحملها وأضعها فى حجرى ، فمددت إليها يدي ورفعتها ووضعتها إلى جوارى وأنا أضمها إلى بذرعى ، وانثقت فى جوفى مشاعر الحب والحنان .

وعدنا إلى الفندق ، وهبطنا من السيارة ، وأخرج السائق اليمنى من تحت مقعده حجباً ، وهو بطيخة صغيرة سرعان ما تتحول إلى ماء بعد قطعها وقدمها إلى ابنى ، فأخرجت من جيبي عشرة ريالات ونفحته إياها .

لقد كثرت هداياه وترادفت ، وكثر خروج عشرات الريالات من جيبي .

٧

خلعت ثيابي كلها وتدنّثرت في ثوب الإحرام الأبيض ، وقد أخرجت منه ذراعي العارية ، ودسست رجلي في النعال ، ووقفت أرقب زوجتي وهي ترتدى ثيابها البيض ، وتضع الطرحة على رأسها . غاض لونها وانتشرت الصفرة في صفحة وجهها ، فتدسست الشفقة في فؤادي وانتشرت الرهبة في جوفي ، كنت أخشى أن يجهدا السفر إلى مكة .

وأتمت إصلاح هندامها ، فذهبنا إلى غرفة الأولاد فإذا بها خالية . نفذ صبر التابعة والأولاد فخرجوا ينتظروننا في السيارة .

وشققنا طريقنا في ممر الفندق ودلفنا إلى السيارة ، ركبت زوجتي بجوار التابعة ، وركبت بجوار السائق اليمنى ، وانسابت السيارة إلى مكة لنعتمر . وتكلمت التابعة عن الحج ، وراحت تزكي مطوفا تعرفه ، فراح اليمني يحدثها عن الخطبة التي رسمها للحج ، قال :

— نترك جدة في التاسع من ذي الحجة صباحا ، فنبلغ مكة قبل الحر . نطوف حول الكعبة ، ثم نفر إلى عرفات ، ونجلس في السيارة لا نغادرها ، ونبتل إلى الله وندعوه ونحن في السيارة . ومن عرفات نطلق إلى منى نمضي الليل هناك ، فإذا ما أشرق الصباح نعود إلى جدة حيث نستريح ونمضي النهار في بيوتنا ، وقبل المغرب نعود إلى منى نمضي الليل فيها . وهكذا نفعل في أيام منى الثلاثة .

فقال له التابعة :

— أهذا حج؟ أيقبل الحج إذا لم نستقر تحت خيمة؟ والمطوف والدعاء؟
حججت ست حججات ولم أر شيئا كهذا .
ونشبت معركة بينهما لم أصغ إليهما . أحسست في تلك اللحظة إحساسا
غريبا ، وهمس في أغوارى هامس أن ذلك اليمنى لن يحج معنا . وفكرت في ذلك
الهمس فلم أعرف له مصدرا ، إنه مجرد خاطر أضاء في ذهني كالبرق الخاطف
وسرعان ما خبا .

ورميت ببصري أمامي فإذا بالطريق الأسود ينساب في الصحراء ، يبدو
كمثلث يلتقي ضلعا في الأفق البعيد ، وكلما أوغلنا فيه بعد رأسه بمقدار ما
أوغلنا ، وقامت على جانبيه دور فاخرة أنيقة تنطق بنعمة البترول .
وخلفنا العمران وراءنا ، ومرقنا كالسهم في الفضاء . وجعلت أتلقت أملا
عيني من المشهد الفريد : جبال على مدى البصر تباينت ألوانها ، وما كان جبل
يشبه الآخر في تكوينه ، وتمتيت في تلك اللحظة أن أكون محلا كيميائيا أعكف
على تلك الجبال ، وأكشف أسرارها ، فما أحسب أن الله خلقها عبثا .
ومررنا على المحاط التي أعدت لاستقبال الحجيج مر الكرام ، إنها مقاهي
متواضعة : سقيفة من سعف النخيل انتثرت تحتها أرائك عالية من خشب لم
يهذب وجبال مجدولة ، كان الحجاج يجلسون عليها ، وفي الليل تستخدم
أسرة .

ومد اليمنى يده إلى الراديو وأداره ، فإذا بصوت ناعم ينبعث في الصحراء
يردد : « انت وبس الى حبيبي » ، وإذا بي أدندن مع الأغنية وأنا محرم .
وهمست : « انت وبس الى حبيبي » « انت وبس الى حبيبي » وراح
صوت يخفت ، وشرد ببصري وراحت الذكريات تطفو على ذهني .
رأيت فاطمة تقدم إلى تذكرة ، فتناولتها منها وأنا أقول :
— ما هذه ؟

— حفلة المرشدات فى النادى الأهلى .

ثم قالت لتغرىنى :

— سأكون نجم الحفلة .

فقلت لها مداعبا :

— قال صديق لصديقه : « ذكرت اليوم فى جميع الصحف » فقال له

صديقه : « بأية مناسبة » ، قال : « ذكرت الصحف أن تعداد مصر بلغ سبعة

عشر مليوناً ، فأنا من هؤلاء الملايين » .. كذلك أنت ستكونين مرشدة من

مئات المرشدات .

فقلت وهى تشمخ بأنفها فيبرز صدرها الممتلئ المكور :

— لا ، سأكون نجم الحفلة ، سألقى وحدى نشيد المرشدات .

فقلت وأنا أقطب :

— بدأت أغار .

— من ماذا ؟

— من جميع المدعوين الذين سيلتذون بصوتك ، كنت أشتهى أن تظل هذه

المتعة وقفا على .

فقلت وهى تبتسم :

— ستظل طوال حياتك أنانيا .

فقلت وأنا أدنو منها :

— أن يستحوذ الرجل وحده على جميع مفاتيح من يهوى أنانية محببة ، لأننى

لا أفر شيوع الاستمتاع بمفاتيح من أحب .

فقلت :

— روحك ليست روح فنان ، الفنان الأصيل يهب كل ما يملك من مواهب

للناس .. يضيف جمال روحه على الكون .. إنه شعلة تحترق لينير للبشر

سبيلهم .

— مرحبا بالفن لو كانت رسالته أن أحترق أنا في سبيل المجموع ، أما إذا كانت رسالته أن أعرض زوجتي عارية على الناس لأنها صاحبة أجمل جسم في الوجود ، فأنا أول الكافرين .

— الفرق بين أن تعرض جسمها وأن تسعد الناس بجمال صوتها كالفرق

بين الجسد والروح .

— أريد الجسد والروح معا ، أريدهما لي وحدي .

— من يريد لا يطلب ما يريد ، بل يأخذ ما يريد .

— سأغتصبك اغتصابا من النادى الأهلى .

— ليس لك حق الأخذ بعد .

— لم أقل آخذ ، بل قلت أغتصب .

فقلت وهى تضحك فى مرح :

— فى البلد حكومة ، تضرب على يد المغتصبين .

فقلت فى استخفاف :

— بعد أن يغتصبوا .

— الحكومة ترغمهم على أن يعيدوا ما اغتصبوه .

— هناك أشياء تغتصب ليس فى الوجود قوة تستطيع إعادتها .

فقلت وهى تشيح بوجهها :

— ما تزال رجل الغابة ، تفكر بعقلية جدك .

— بالعقلية التى تحبها المرأة ، وإن تظاهرت بإنكارها .

— ليست كل النساء سواء .

— كلهن حواء .

فقلت ساخرة :

— وكل الرجال آدم الساذج الذى أغرته حواء حتى أخرجته من الجنة .

— الرجال جميعا يعيشون على أمل العودة إلى الجنة .

فقال فاطمة فى صوت خافت :

— جنة الحب .

ووقفت السيارة عند نقطة حراسة ، وقال الجندى السعودى :

— جوازات .

فانتبهت وأبرزت جوازات السفر ، وقرأ أسماءنا وفحص عن ديانتنا ، ولما شهدت الجوازات أننا مسلمون مررنا بسلام ، فقد بلغنا الحد الذى لا يجوز لغير المسلم اجتيازه .

ولاح لنا حائطان على جانبي الطريق طليا بجير مزهر، إنهما الحد الفاصل بين الحل والحرم . وتجاوزناهما فأصبحنا فى أم القرى التى يأمن فيها الطير ويحرم فيها الصيد وسفك الدم ، ولكن ما إن أوغلنا فيها قليلا حتى وجدنا غزالين مقتولين . كانا يمرحان فى الليل آمينين كما اعتاد أجدادهما أن يفعلن من مئات السنين ، ولكن بهر نور السيارات أبصارهما فوقفا مذهولين لتقضى عليهما السيارة المنقضة . اقترفت المدنية الحديثة شرورها حتى فى مكة المكرمة التى يأمن فيها الطير والوحوش .

ولاحت أرباض مكة : الدور شيدت على سفوح الجبال ، وقامت دور متواضعة وشمخت بجوارها دور حديثة . وبلغنا قبوا من الحجر فمد اليمنى يده وأغلق الراديو ، ورفعت صوتى بالتلبية فغشيتنى رهبة ، وسبحت شفتاى بحمد الله .

وانسابت السيارة فى طرقات عتيقة ، واجتازت أزقة ودروبا ، وبلغنا عين زبيدة ، ورأينا رجالا يدلون فيها الدلاء ويرفعونها ويصبون الماء فى صفائح ، وتناثرت على جوانب الطريق حوانيت متواضعة ، فاستشعرت خيبة أمل . وبلغت السيارة الحرم فهبطنا منها ، وخف إلينا صبيان يعرضون علينا أن يطوفوا بنا وأن يلقنونا الأدعية ، ووقع اختيار زوجتى على طفل صغير لا تزيد سنه على سبع سنوات . وسار أمامنا يقودنا . ووقفنا أمام الحجر الأسود ننوى طواف العمرة ، وكانت ابنتى الصغيرة وابنى يضعان على رأسيهما « كاسكتة » من القماش عليها شجرة الأرز . وأقبل شاب قد أطلق لحيته ولف على رأسه عمامة ولبس فوق جلبابه جاكته ، وقال لى فى غضب :

— إنك فى بيت الله الحرام .

ونظرت إليه مفتوح العينين والدهش فى وجهى ، لم أكن أدرى سبب ثورته ، قال وهو يشير إلى « الكاسكتة » :

— هذا حرام . هذا تشبه بالكفار .

فقلت له وأنا أشير إلى جاكته الصوف التى كان يلبسها فوق جلبابه الأبيض :

— أكان الرسول يلبس جاكته مثل هذه ؟!

وتركنى وانصرف وهو يقول فى صوت خافت :

— كويفر .

وبدا الصبى الصغير يدعو ونحن نردد الدعاء خلفه ونطوف بالكعبة سبعا ، وانتهى الطواف فذهبنا إلى بئر زمزم ، إنها على بعد خطوات من الكعبة ، وشربنا من مائها ، وأبت التابعة إلا أن تصب جردلا منها على ثيابها . وقادنا الطفل إلى المسعى لنسعى بين الصفا والمروة ، وعند باب الخروج التفت المتسولون حولنا ، وأردنا أن نفك بعض النقود ، وتطوع أحدهم أن يؤدى هذه الخدمة ففك لنا الريال بثمانية عشر قرشا سعوديا بينما سعره الرسمى اثنان وعشرون قرشا . استحل لنفسه عشرين فى المائة ربا على باب أقدس بقعة .

وخرجنا إلى المسعى فإذا « بالبلدوزر » الجبار يكتسح البيوت القائمة عند أقدام جبل أبى قبيس اكتساحا ، فقد تقرر توسعة الحرم وإزالة الحوائت التى كانت على جانبى المسعى ، والتى كثيرا ما كانت تعوق الحجاج عن سعيهم . ووقفنا على كومة من التراب عند الصفا ، ووقف الصبى الصغير يلقننا الدعاء . ووجدت زوجتى لن تقوى على السعى على قدميها فاكتريت لها عربة يدفعها رجل ، واكتريت للأولاد عربة أخرى .

وبدأنا السعى ، فألقينا أعمدة من الأسمنت المسلح صبت ، وسقفا للمسعى يصب بالأسمنت المسلح ، والماء يتساقط علينا ونحن فى غدوننا ورواحنا بين الصفا والمروة .

وأراد الطفل الصغير أن يتم الشعائر ، وأن يحتم علينا أن نرق الصفا وأن نرق المروة ، لم تكن ذمته قد فسدت بعد . وضايق ذلك الرجل الذى يدفع عربة زوجتى فلكز الصبى وأشار له من طرف خفى أن « يكلفت » حتى تتاح لهم

فرصة اقتناص زبائن آخر ! كنا لا نزيد في نظرهم على سلعة .
ولحت أثناء سعيي باكستانيا طالت لحيته و ابيضت شعراتها يهرول وفي
وجهه إيمان عميق ، كان أول وجه قرأت فيه الإيمان بما يفعل . وهزنى منظره
فرحت أهروول معه .

وعدنا إلى الحرم وجلسنا على بساط وثير ننتظر الظهر والعصر ، وراح
الأولاد يعدون ويلعبون في مرح ، وجعلت أقرأ ما تيسر من القرآن ، وما أسرع
أن شرد ذهني ، وراح يقلب صفحات الماضى .

رأيت نفسى بعد أن نجحت في البكالوريوس أرقب يوم الخميس في لهفة
وشوق ، فهو اليوم الذى اتفقنا على أن نجعله يوم لقائنا . وجاء اليوم الحبيب ،
وأسرعت قبل الموعد أنتظر فاطمة ، أمد بصرى إلى الطريق ، وأنظر بين الفينة
والفينة إلى معصمى .

وأقبلت فاطمة فهرولت إليها . وقلت لها وقلبي يرقص طربا :

— قولى لى : مبارك .

فقالت وقد رفعت حاجبيها دهشة .

— مبارك .

وقبل أن تفتح فمها تسألنى عما جرى قلت فى نشوة :

— نجحت .. انتهت العقبات التى كانت تقف فى سبيل سعادتنا ، سأجد

عملا .. سنتزوج ونبنى بيتنا .. سيكون أسعد بيت .

ولم تنبس بكلمة وطفرت الدموع من مآقيها ، وفاضت سعادتى وترقرق

الدمع فى عيني ورحت أردد كالمحموم :

— سنتزوج ، ولن نفترق بعدها أبدا ، وسأحبك .. وأظل أحبك ...

أحبك إلى الأبد ... حتى الموت لن يقهر حبنا .

والتفت إليها وقلت :

— لماذا هذا الصمت ؟ تكلمي .. غنى .. قول أى شىء .. هذا أسعد يوم

في حياتنا .

وقالت فاطمة كالحالمة :

— حتى الموت لن يقهر حبنا .

وفزعت من الأفكار التى احتلت رأسى فى الحرم ، فأحسست كأن إبراهيم تغر روحى ، وأخذت أرقب حمام الحمى وهو يلتقط الحب الذى نثره الناس له ، فألفيته رمادى اللون فى ذيله خطوط سوداء ، لا فرق بين حمامة وحمامة كأنه إنتاج وفير من إنتاج المصانع الحديثة .

ومددت بصرى إلى الكعبة التى لا ينقطع الطواف حولها فى الليل أو فى النهار ، فإذا بها بناية عالية مكعبة الشكل لها باب مرتفع يقابل مقام إبراهيم وبئر زمزم ، تكسوها أستار سود كتب فى نسيجها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وزينت بآيات من القرآن .

وأغمضت عيني وأوغل خيالى فى جوف الزمن ، فإذا به يتخيل الكعبة فى عهد الرسول : الحرم أصغر حجما ، لا بسط فاخرة ولا أضواء كهربية متألفة ، فالنور فى القلوب ... وغابت مشاهد الحرم من خيالى وعادت فاطمة لتحمل تفكيرى ، ولكننى لم أستسلم لطيفها الزائر بل رحت أجاهد أن أحول أفكارى وجهة أخرى .

مددت بصرى إلى حجر إسماعيل وجعلت أفكر فى أبى العرب ، وأطرقت ساهما فهمس فى أغوارى صوت ، وهتف فى أرجائى هاتف يقول إن هاجر هى صاحبة ذلك الصوت فخشعت ، قالت :

— أيها القادم من بلادى ، سلاما وإن لم تقرئنى السلام ، طفت بالبيت

سبعاً ومررت بقبرى سبعاً ولم أخطر لك على بال ، ما بالك قد نسيت هاجر
أختك المصرية ؟ ما بالك قد نسيت أول من جاءت إلى البيت المحرم من
بلادك ؟ وما بالك قد ذكرت إسماعيل أبا العرب ولم تذكر أنه ابن أختكم
وأنكم أخواله ؟

لماذا لم تفكر فى حكمة أن اصطفانى الله لخليله ؟ ولماذا اختارنى من مصر ؟
ألا ترى أن الله أراد منذ وطئت قدماى الأرض الطاهرة أن يربط إلى الأبد بينكم
وبين بيته المحرم ؟

أنتم أخوال هذه الأمة ، فما بالكم تطوفون حول البيت العتيق ولا تذكرون
أختكم ، من كانت أول مسلمة فى مكة وأم المسلمين جميعاً ؟ فيأياها القادمون
من بلادى أقرئوني السلام ، واذكرونى كلما طاف منكم حول البيت
طائف .

وتلاشى الصوت وأنا مطرق ، ثم رفعت رأسى ومددت بصرى إلى حجر
إسماعيل حيث ترقد هاجر ، وإذا بى أقول فى خشوع :
— السلام عليك أيتها الأخت العزيزة .

٩

ومرت الأسابيع ، وعلمت من الشاب الجالس خلف مكتبه عند مدخل
الفندق أن أيام الضيافة ثلاثة أيام ، وأن على أن أسدد فى نهاية الشهر ما استحق
على ، وأن أجر الغرفتين فى الليلة الواحدة مائة وأربعون ريالاً ، أى أربعة عشر
جنهما مصرى !

وهرعت إلى الوزارة ألحف في تجهيز البيت، وسمعت وعدا جديدا أضفته إلى الوجود السابقة، وأخذت أفكر فيما افعله لو انقضى الشهر وطالبني الفندق بسداد ما استحق على وليس معى نقود، فالحكومة المصرية لا تسمح للمسافر أن يأخذ معه أكثر من عشرين جنيا، وقد ينقضى شهر آخر قبل أن تنتهى إدارة المحاسبة من تحديد الضرائب والزكاة الشرعية التى تقتطع من راتبى، وبعدها نستطيع أن نصرف ما أستحقه، وبت فى حيرة دفعتنى إلى ما كنت أعتقد أننى لن ألجأ إليه يوما، أن أدخل فى مساومات مادية.

وكتبت للوزارة أن تسدد إيجار الغرفتين فهى مسئولة عن تدبير إقامتى، وأن تقوم بسداد ثمن الأكل والمصاريف الأخرى على أن تخصم من استحقاقى. وجاء يوم مغادرتنا الفندق فوَقعت على كشف الحساب. كان ما على أن أحمله نظير الطعام فى شهر واحد مائتين وخمسين جنيا مصرية.

وظفقتنا نجمع حوائجنا وندسها فى الحقائق، وأقبلت التابعة تميل مينة ويسرة فى سيرها، وما كان ميلها دلالة بل من أثر الكبر فقد تجاوزت السبعين من عمرها، ترتدى جلبابا أسود، وتعصب رأسها بمنديل كان أسود يوما يحجب شعرها الذى كان أشبه بالكتان، ومالت على إحدى الحقائق وتظاهرت بأنها تحاول حملها، ثم قالت:

— راحت العافية.

وخرجت تنادى خدام الفندق جميعهم. كانت صاحبة نشاط خاص، وإن الفندق لأضيق من أن يتسع لنشاطها. ولقد قصرت همتها فيه على الذهاب إلى المطبخ ومحادثة الطاهى، والعودة من عنده وهى تحفى بعض اللفائف فى طيات ثيابها، وكانت تتناول الطيبات فى غفلة منا فإذا ما قدمنا إليها الطعام أقسمت

بأغلظ الأيمان أنها شعبانة ، وحمدت الله على القناعة .

وجاءت تمايل وخلفها خدم الفندق جميعهم ، ومال الرجال يحمل كل منهم حقيبة ، ومددت يدي في جيبي وأخرجت حافظة نقودي ، ونفحت كلا منهم مبلغا طيبا ، لا على الخدمات التي أسدوها إلينا بل ابتهاجا بمغادرة الفندق .

وذهبت إلى الردهة الخارجية أنتظر حضور زوجتي والتابعة ، فقد خف الأولاد مسرورين إلى السيارة ، وجعلوا يتسامرون مع السائق اليمنى القمىء . ووقعت عيناي على شابة مصرية في الخامسة والعشرين تنم نظراتها عن خفة ، جلست إلى جوار شاب أسمر واسع العينين غزير الشعر كث اللحية ، وما إن رأتنى حتى قالت في لهجة مصرية :

— كم الساعة من فضلك ؟

فنظرت إلى الساعة المثبتة في معصمى وقلت :

— التاسعة صباحا .

فقال لها زوجها السعودى :

— ألم أقل لك !

فقالت هى فى إصرار :

— الساعة عندى الثامنة ، ضبطتها على راديو مصر .

فقلت لها فى هدوء :

— هناك فرق بين الزمن هنا والزمن فى مصر .

فقالت فى خفة :

— لا يهمنى هذا الفرق ، كل ما يهمنى أن أعرف الزمن فى مصر .

— وماذا يهلك من الزمن في مصر وأنت هنا ؟
— أعرف إذا كان الأولاد قد استيقظوا أو ناموا أو أكلوا .
وصمتت قليلا وقالت :
— جئنا نزرر أهلنا وسنعود توا .. أولادى .. أو حشونى أولادى .
وشرد ذهنى وانطلق إلى مصر ، وإذا بصور أبنائى تمر أمام مخيلتى كشريط سينمائى فيخفق القلب شوقا وحنانا ، ويجف الحلق وتدمع العين .
وأقبلت زوجتى وخلفها التابعة وخلفهما رجل نوبى يرتدى قفطانا أبيض وحزاما أحمر وعمامة بيضاء ، ودنت التابعة منى وقالت وهى تشير إلى النوبى :
— أعطيتهم جميعا ولم تعط هذا . أعطه شيئا .
وامثلت لأوامرها ، فمددت يدى فى جيبى وأخرجت ورقة من فئة الخمسة الريالات ووضعتها فى يده .
ولم تكتف بذلك بل قالت :
— والطباخ .
فأعطيتها خمسة ريالات أخرى فأخذتها وذهبت تتمايل على الجانبين .
وهممنا بالانصراف فنظرت إلى ساعة معصمى وإلى الساعة المعلقة فى ردهة الفندق ، فوجدت فرقا كبيرا فى الزمن ، وإنه لمن العسير أن تجد ساعتين يحددان زمنا واحدا فى جدة ، فساعة تحدد الزمن العربى ، وأخرى تشير إلى الزمن العربى حسب التوقيت الأفرنجى ، وثالثة تحدد الزمن العالمى ، وساعة الحساء المصرية ضبطت على راديو مصر . إن الساعات فى المملكة العربية تتحدث بأكثر من لغة . تبلبلت ألسنتها كما تبلبلت ألسنة البشر فى بابل .
ودلفنا إلى السيارة وانتظرنا التابعة ، فجاءت تتمايل وهمت بدخول السيارة

وهى حرصة على ما فى جيوبها ، فقد ملأها الطاهى بالحلوى .
وانطلقنا إلى مسكننا الجديد ، وراح السائق اليمنى يدور على الحوانيت
لنشترى كبريتا وغازا وبعض الأوانى ، وقلة كبيرة عجيبة طويلة الرقبة منتفخة
البطن ضيقة القاعدة لا أتصور كيف يمكن أن تستقر عليها ، ولو كان للقلل
مهنة لكانت هذه القلة بهلوانا أو راقصة بالية .

وبلغنا العمارة الضخمة الفخمة ، وسرنا إلى جوارها بالسيارة حتى لاحت
صفحة البحر الرقاقة ، وهبت النسائم الندية تنعش أفئدتنا . ووقفت السيارة
عند آخر مدخل لأفخم عمارة فى جدة ، ورحنا نرقى الدرج ، واتجهنا إلى شقتنا
الواقعة فى الطبقة الأولى ودخلنا ، ودخل السائق اليمنى يحمل ما اشتريناه ،
وتلفت أبحث عن التابعة فلم أجدها ، وفطنت إلى أنها ذهبت تمارس نشاطها
بعد أن أطلقت من سجن الفندق .

توجهت إلى المطبخ فلم أجده سوى نضد من الخشب الأبيض ، فأخذت
أدق مسامير فى الحائط وأمد بينها شريطا رفيعا وعلقت الملاعق والشوك
والسكاكين بين الحائط والشريط ، واستخدمت المسامير مشاجب للأوانى
والمغارف وإبريق الشاى ..

وتلفت أنقب عن مكان أضع فيه الصحف فلم أجده ، فأحضرت أقفاصا
من الجريد وضعتها بعضها فوق بعض وكونت منها صوانا !
وانتهيت من تنسيق المطبخ وذهبت أنسق غرفة مكتبى ، إنها غرفة لها شباك
يطل على البحر الأحمر وباب من الحديد يقود إلى شرفة طويلة تطل على البحر
وتواجه الشام ، وإن مواجهة الشقة للشام يجعلها مرغوبة لهبوب نسائم الصبا .
ووجدت الغرفة خالية يملأ الهواء فضاءها فذهبت إلى غرفة أخرى .

وأحضرت نضدا من الصاج يستعمل في الخدائق غالبا ووضعت في وسط الغرفة ، ووضعت كرسيًا من الخيزران خلفه ، ثم تنفست الصعداء حمدا .
ومس أذنى صوت أم كلثوم تغنى : « .. وبناء الأهرام في سالف الدهر ... » فخرجت إلى الشرفة ونظرت ، فألفيت خيمة مخططة بخطوط سوداء وبيضاء وحمراء مثبتة في الشرفة بسطت على قوائم وعوارض من حديد ، وكانت في الخيمة فرجة تظهر قطعة من بساط أحمر فوقه منضدة حولها كراسي أنيقة من القش ، وأمام المنضدة سور قصير رصفت الأرض خلفه حتى نهاية الشاطئ ، وتناثرت في الساحة التي قام في وسطها عمود كهربي فاخر ، مناضد مستديرة في وسطها ثقب لتثبيت شماسي البلاج الكبيرة المخططة ، وجلس حول المناضد رجال يرتدون الجلابيب البيض وعلى رؤوسهم طواق أو شيلان من قماش أبيض رقيق .

إنه كازينو في جدة !

ومددت بصرى إلى البحر فوجدت مراكب صغيرة راسية عند الشاطئ ارتفعت صواربها ، وهي قابعة في ذلة فقد دالت دولتها بعد أن عمقت الميناء وأصبحت السفينة الكبيرة ترسو على أرصفتها .

وعلى بعد أمتار من الشاطئ صفت بعض السفن الصغيرة ، ونامت بعضها على جوانبها .. لقد هانت حتى صار يحدد بها نهاية الماء الضحل وبداية البحر العميق ، ورمت ببصرى بعيدا إلى الميناء فرأيت بواخر قليلة تنفث دخانها ، فقد أغلقت قناة السويس عقب الاعتداء الغادر على مصر ، وثلت الملاحة في البحر الأحمر .

وجلس على كرسي في الشرفة ومددت بصرى إلى البحر ، وشرذ ذهني

فإذا بى أسير أنا وفاطمة على جسر قصر النيل ، قلت لها :

— ما رأيك فى أن نأخذ زورقا فى النيل أنا وأنت وعودك ، ولا شىء غير الماء والسماء وصوتك الحنون ؟

فقلت وهى تضحك :

— لو غرقنا لكنت فضيحة مججلة :

— أسبوعان ثم يظهر معا فى أى مكان دون أن نخشى كلام الناس ، أسبوعان ونصبح خطيبا وخطيبة .

وصمتت قليلا ثم قلت :

— هاتى أصبعك .

فقلت فى ارتباك :

— لماذا ؟

— لأقيس أصبعك لتكون الدبلة مضبوطة .

وترددت فمددت يدى وتناولت أصبعها بين أصابعى ، ورحت أقيسه بقطعة من الورق .

والتفت عيوننا وخرست ألسنتنا ، كان حديث العيون أفصح من كل بيان . آه لو كنا وحيدين ، لارتمى كل منا فى أحضان الآخر وغبنا عن الوجود .

وسرنا صامتين برهة ، نسعد بالإحساسات اللذيذة التى فاضت من قلوبنا وأخذت تدغدغ حواسنا .

وأحسست رغبة فى أن أغذى المشاعر الرقراقة التى كانت تنبثق من أطيب كنوز أعماقنا ، فقلت لها :

— سأطلب أن تكون ليلة زفافنا بعد شهر من إعلان خطبتنا ، نفد صبرى ، ولم أعد أطيع الانتظار .
فقلت فى دلال :

— مهلا ..

— ولماذا أتمهل ؟ أصبحت موظفا أستطيع أن أكون أسرة ، وما أيسر أن أجد شقة خالية تليق بنا ، وإن تجهيز الشقة أمر ميسور ، وما أكثر السجاجيد العجمية عندكم .

وضحكت فاطمة وقالت :

— هل تعلم أننى أقوم بصنع سجادة عجمية منذ كنت طفلة ؟

وانفجرت ضاحكا ، فنظرت إلى فى استغراب وقالت :

— ما الذى جعلك تضحك هكذا ؟

— خيل إلى وأنت تقولين هل تعلم ؟ أنك ستسردين بعض الحقائق العلمية عن المسافة بين الأرض والقمر وعدد نجوم السماء ، كما تفعل بعض المجالات الأسبوعية .

وانطلقنا والنشوة تمور بين جوانحنا ، وأنا أقول مؤكدا :

— سنتزوج بعد شهر من إعلان خطبتنا ، ولن يحول بيننا وبين إتمام زواجنا حائل ، إلا أن يدك هتلر القاهرة .

وصك أذنى صوت انهيار زجاج وبكاء ابنتى الصغيرة ، فهرولت نحو الصوت فألقيت لوحا كبيرا من الزجاج قد سقط فجأة تحت أقدام الصغيرة ، ولو تقدمت خطوة واحدة قبل تحطمه لفضى عليها .

وفحصت الباب الكبير الذى أبى لوح الزجاج أن يستمر فى معاشرته ،

فرايت أن الرباط لم يكن بينهما وثيقا ، ثبت الزجاج في الباب من أعلى فقط ،
بينما تركت جوانبه وقاعدته بلا تثبيت .

واتجهت إلى المطبخ لأحضر ما أجمع فيه الزجاج المتناثر ، ووضعت يدي
على مقبض الباب لأفتحه ، فإذا بالمقبض ينفصل في يدي ، وجعلت أعالج
الباب حتى انفتح ، وأحضرت صفيحة فارغة ، وتعاونت أنا وزوجتي على
جمع الزجاج المتناثر .

ودهب زوجتي وفتحت النافذة ، وثبتت ضلفتها بالمشابك الحديدية ،
وسرعان ما أغلق الهواء النافذة ، فخفت زوجتي إليها فوجدت أن المشابك
انتزعت حلقاتها التي ثبتت من حوائطها ، فقالت زوجتي في ضيق :
— هذا بيت صنع من حلوى .

فقلت لها منكرا :

— هذه أفخم عمارة في جدة ، كلفها صاحبها مليوناً من الجنيهات
المصرية .

ودق جرس الباب الخارجى فأسرعت ابنتى الكبيرة وفتحته ، فدخل
البواب الحضرى يحمل سلماً طويلاً ليركب مصابيح الكهرباء التى عجزنا عن
تركيبها .

وتركت ابنتى الباب مفتوحاً ، وإذا بالهواء يدفق في شدة فيغلق وهو يصفق
تصفيقا شديداً ، والتفت على الصوت فرايت قفل الباب انتزع من مكانه ..
فارق الباب ولولا مسمار واحد أبقي على الود القديم لسقط القفل على
الأرض .

وفحصت الباب فألفيته مفرغاً قد حشى بورق مقوى !

وأسندت زوجتي ظهرها إلى الحائط ، فالتصمت منها ألا تفعل خشية أن يتقوض الحائط ، فما عدت أثق في أبواب الشقة وشبابيكها وحوائطها ، بعد أن عجزت عن أن تحافظ على كرامتها يوما واحدا .

١٠

وانتهينا من تنسيق الشقة ، ومشى التعب إلينا ، وبان الجهد في وجه زوجتي التي أمضت النهار في غدو ورواح وكنس ومسح وتنظيف على الرغم من مرضها .

ودفعت التابعة الباب الخارجى ودخلت وهى تقول :

— البيت كله مصريون ، أمامنا نادى بنك مصر ، والشقة التى فوقنا خالية ، أما الشقة التى فوق الشقة المجاورة لنا ففيها محمد أفندى ، وهو يعمل فى البنك ويتقاضى مائة وخمسين جنيها ، وزوجته شابة لطيفة ، وأولاده ظراف ، أما أمه فهى كالبومة لم أرتح إليها . والشقة الأخرى يسكنها إسماعيل بك ، وزوجته ست صريح ..

وتحدثت فى إسهاب عن الجيران جميعهم ، وذكرت دقائق حياتهم ، وسخرت من أغلبهم ، وحددت مرتبات الرجال وهوايات النساء ، ولما يمش عليها فى البيت ساعات ، بدأت تمارس نشاطها ، وهى قديرة غاية القدرة أن تستل من الأطفال الأسرار ، وأن تدفع الرجال والنساء إلى نبش أسرار الآخرين ، ولو أنصفها زمانها لكانت دعامة من دعائم المخبرات .

وانتهت من اغتياب الناس ، ثم دخلت غرفتها وأغلقتها عليها حتى لا يشغلها

الأولاد عن تعبدها !

وغادرت الشقة ، وهبطت لأقف قليلا على الشاطئ ألثقت أنفاسى ، وإذا بأولادى يجرون خلفى ويتشبثون بى ، فأخذتهم معى ورحنا نتمشى على الشريط المترب الضيق المنحصر بين البحر والكازينو .

وكانت فى يد الصغيرة قطعة من الخبز فراحت تفتتها وتلقى بها فى البحر ، وضاعت بالتفتيت فألقت باقى الكسرة فى الماء ، وراح السمك يتقاتل على الفتات بينما كان يرتطم بالكسرة ، كان أشبه بالبشر الذين يتشاحنون على القطرات بينا النبع المتدفق على مرمى حجر منهم .

وراح قرص الشمس الأحمر يغيب فى الأفق البعيد ، وقد اصطبغ الماء بألوان حمراء وصفراء وذهبية ، وطفقت المراكب تغدو وتروح فى الشفق ناشرة أشرعتها البيضاء ، وأنا أملأ عيني بالمشهد الطريف .

وبدا مولد ليلة جديدة فطلبت من أولادى الصعود ، وسرت أضرب فى الطريق وأنا مطرق . لم تكن حولى حياة تشغلنى عن نفسى فكنت أمضى أغلب وقتى مع أفكارى ، وأعيش فى ذكرياتى ، ولكن ما بال فاطمة تملأ آفاقى منذ وطأت قدماى جدة ، وما كانت تخطر لى على بال من سنين طويلة ؟

أما زلت أحبها على الرغم من السنين التى تقضت والتى تكاد تبلغ العشرين ؟ هل نكأ الفراغ الذى أحياه جرح قلبى الذى اندمل ؟ وما بال فؤادى يخفق كما كان يخفق أيام شبابه ، وديب التمل يسرى فى إحساساتى كلما فكرت فيها ؟ إننى حائر لا أدرى حقيقة مشاعرى ، كل ما أدريه أنها اللحن الناقص فى حياتى ، القصيدة البتراء التى نظم القدر مطلعها ثم أهملها . أنصفنى قدرى أم أساء إلى ؟ لا أستطيع أن أقول . كل ما أعرفه أننى روضت نفسى على

الرضا بما تأتى به المقادير .

رأيت نفسى أهرع إلى مكان اللقاء مغتبطا ، ووافى ميعاد حضورها ولكنها لم تظهر ، وجعلت أمد بصرى فى قلق ، فهذه أول مرة تخلف فاطمة ميعادا بيننا . وراح الوقت يمر وأنا أتململ فى ضجر ، وأغدو وأروح فى جزع . وتقضت ساعة وبعض ساعة فانصرفت وأنا أتلفت . أحس طعم الصاب فى فمى .

وراحت الأفكار تتثال على رأسى : لعلها مرضت ، لعل حادثا وقع لها ، لعل أمها طلبت منها أن تذهب معها فى زيارتها ، وسرت أتمس لها المعاذير ، ولم يخطر لى على بال أنها هجرتنى .

ومر الأسبوع بغيضا ، وجاء يوم الخميس فأسرعت إلى مكان لقائنا أنتظر وقد تجدد الأمل ، ولكن مر ميعاد حضورها دون أن تأتى ، فاهتصر قلبى ، وأظلمت الدنيا فى عينى ، وملأنى غيظ شديد ، وانتشرت فى جوفى رهبة من المجهول ، واستبدت بى مشاعرى وضاق بها صدرى ، ولولا الدموع التى أطفأت نار لوعتى لاشتعلت النار فى جوفى .

إننى أحبها ، وإن جذور ذلك الحب تغلغلت فى روحي وتشعبت فى ضميرى وسرت فى دمى .

ورحت أنقب عنها هناك ، وقفت الساعات الطويلة أمام دارها فى الليل وفى النهار ، ذهبت إلى مدرستها أتفرس فى وجوه الداخلات والخارجات ، وأخذت أطوف بكل مكان ذهبا إليه يوما ، حتى محطة الدمرداش انطلقت إليها ، وسرت وحدى فى الطريق الجانبى الضيق ، وصعدت فى الدرج الواصل إلى محطة المترو ، وأنا أكاد أنادى على فاطمة .

إن نار وجدى تكاد تعصف بى ، إننى أحترق .. وقررت أن أقترح دارها
أسأل عنها ، وانطلقت كالعاصفة وصعدت فى الدرج حتى وقفت أمام شقة
العجم ، ومددت يدى لأضغط على زر الجرس ، وإذا بشجاعتى تخذلنى وتفر
منى .

ووقفت وأنا حانق على نفسى ، وانبعثت أصوات من أعماق تصرخ بى :
« رعديد .. رعديد » ، ورحت أحاول أن أغرى شجاعتى على العودة ،
ولكن هيهات فقد ذهب نفسى شعاعا ، ولم يعد فى وسعى إلا أن أسخط وأن
أنفلق غيظا .

وأخرجتنى من تأملاتى أصوات السيارات المنطلقة فى شارع الملك عبد
العزیز ، فرحت أجتاز الطريق فى حرص ، وتوجهت إلى محل بيع الكتب
والصحف والمجلات ، إنه يبيع فى نفس الوقت قمصانا وبدلا وأقلام حبر ، وقد
ذاع صيته فى جدة لا بفضل تجارته بل لأن الصدفة لعبت دورها فى ذیوع
اسمه . فقد قام أمامه العمود الذى تقام عنده الحدود ، وتعلق فيه أيدى السراق
المقطوعة .

اشتریت الصحف والمجلات المصرية التى وصلت ذلك اليوم ، ووجدت
أكدا من الكتب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، وقلبت بعضها بين يدى
وتصفححتها ، فألفيتها كتباً جنسية رخيصة لا هم لها إلا إثارة الغرائز المنحطة .
وقلبت المجلات الأجنبية فبرزت على صفحاتها الصدور الناهدة ، والأفخاذ
العارية ، والأرداف الممتلئة البضة .. مجلات تجدد سوقاً رائجة بين المراهقين من
الشباب والشيوخ على السواء ، وما أكثر الشيوخ الذين قابلتهم واكتشفت على
الرغم من الزوجات والحريم أنهم يكابدون الحرمان .

لقد دعاني شيخ إلى مشاهدة شريط مصري في داره ، وبعد أن انتهينا من مشاهدته شاء أن يبالغ في إكرامي ، فراح يعرض شريطا فرنسيا تقع حوادثه كلها في المخدع بين رجل وامرأة .

وتفرزت نفسي وامتألت اشمئزازا وشعرت بغثيان ، بينا طفق الشيخ يتأوه ويتلوى . وراحت عدسة ذهني تقترب من وجه « الأمر بالمعروف » الذي أخذ ينقب في حقائبي يوم وصولي عن الكتب الفاجرة وأشرطة التسجيل وأشرطة السينما . وملأت صورته شاشة رأسي ، فرفعت يدي ولطمته في غيظ على وجهه .

١١

كنت في مكتبي بالوزارة ، وفتح الباب ودخل فراش المكتب يقول :
— عمى ، معالى الوزير ييغاك .

تركت ما في يدي وارتديت جاكيتي وذهبت أقابل معالى الوزير . وهبطت في الدرج حتى بلغت الشقة المخصصة لمكاتب معاليه فوجدت غرفة الاستقبال غاصة بالزوار ، وبعض الموظفين يتكئون على الأرائك ينتظرون . وتلفت لحظة فتقدم منى شاب ضئيل الجسم أسمر الوجه في ظهره انحناء خفيفة ، وعلى رأسه شال أحمر فيه نقط بيضاء ثبت على رأسه بشطاف أسود .. إنه صبي الوزير الخاص . قال :
— عملك ييغاك .

واتجه إلى باب مكتب الوزير وفتحه فدخلت إلى الغرفة ، كان الزوار وباقي

موظفى الوزارة فى كل ركن منها ، جاءوا جميعا ليعيوا الوزير ويأتسوا به ،
وراح رجل يدور عليهم جميعا بالقهوة العربى ، وقال شيخ كبير :
— كنا مارين فقلنا نصعد ونسلم عليك ونشرب القهوة .

فقال الوزير وهو ينظر إلى الحشد من تحت منظاره :
— حياكم الله .

كان الوزير أبيض الوجه ، مشربا بحمرة ، له عينان فيروزيتان نفاذتان ،
غزير شعر الشارب ، لحيته كثة فى لون الخضاب ، وفى فمه غليون قلما
يفارقه ، ولولا الجلباب والغطرة الحمراء والشطاف الأسود ، لخیل للناظر إليه
أنه فنان إيطالى . ولحنى عند دخولى فقام منتصبا لتحيى ، فوسعت من خطوى
وانجهت نحوه وأنا أمد له يدى مصافحا ، وأشار إلى كرسى قريب من كرسيه
وقال لى :

— تفضل .

وجلست وجلس ، ومال على وقال هامسا :

— تقرر سفرنا إلى الباكستان ، وأحب أن تكون معى .

وقلت على الفور دون تفكير :

— هذا شرف عظيم لى ، ومتى سنرحل ؟

— بعد أسبوع أو أسبوعين .

— وماذا سنرتدى ؟

قال وهو ينظر إلى من تحت نظارته :

— الملابس العربىة طبعا .

— إذن أستعد من الآن ؟

فقال وهو يدير عينيه في المكان :

— ملابسك العربية ستكون هدية منى .

وشكرت له كرمه ، وحاولت أن أعتذر عن قبول هذه الهدية ، ولكنه أصر ونادى أحد كبار الموظفين الذين كانوا في الغرفة ، وكلفه أن يقوم بتفصيل ثوبين من الصوف لى ، وأن يشتري لى مشلحا من وبر الجمل . وقد فهمت بعد ذلك أن المشلح هو العباءة .

واستأذنت وانصرفت تاركا الوزير لضيوفه الذين لا ينقطع سيلهم ، وما عدت إلى مكتبي حتى راحت الأفكار تنثال على رأسى ، وتحركت هواجس نفسى . كيف أقبل السفر وزوجتى ما تزال في دور النقاهة ، وابنتى الصغيرة لا تنام إلا على كتفى ، والتابعة العجوز لا هم لها إلا الجلوس على باب العمارة واستدرار عطف الصاعدين والهابطين بكلامها المعسول لينفحوها بعض الريالات ، واستلال أسرار الناس من الخدم والبوابين الحضارمة والأطفال ، وما كانت تدخل الشقة إلا لتغلق باب غرفتها عليها وتنهمك في العبادة ، وتستغرق في الصلاة !

إننا هنا غرباء ، ولو أن الصداقة قد توطدت بيننا وبين جيراننا المصريين إلا أن ترك زوجتى وأولادى الصغار في حراسة التابعة العجوز مغامرة . لقد تورطت في قبولى السفر ، كان على أن أترث وأن أتمس مهلة للتفكير . وخطر في ذهنى أن أهبط ثانية وأقابل الوزير وأشرح له ظروفى وأعتذر عن السفر ، ولكننى طردت ذلك الخاطر ، فما اعتذرت أبدا عن فعل شئ بعد أن قررت قبوله ، إنه غرور ويا طالما قاسيت من غرورى .

وانقبض صدرى وثقل خطوى وran على الكدر ، وانطلقت إلى السيارة

وارتمت فيها ، والانفعالات تمور في جوفى ، وأردت أن أخفف عن كاهلى
وطأة آلامى فقلت للسائق اليمنى القمىء :

— سأسافر إلى الباكستان ، وأحب أن تمر على الأولاد كل يوم لترى إذا
كانوا فى حاجة إلى شىء ، وإذا شاءوا أن يتنزهوا فاخرج بهم فى العصر .
وقال الرجل فى صدق :

— اطمئن يا عمى .. أبشر .

ولم يعرف الاطمئنان طريقه إلى قلبى ، وزاد كرى لما راح هامس من نفسى
يسخر منى أننى لم أجد إلا السائق اليمنى أوصيه على أولادى وبيتى ...

وبلغت الدار ووضعت المفتاح فى القفل ، وما إن أدركته حتى ارتفعت
صيححات الأولاد المتلهفة للفرحة ، ومس أذننى وقع أقدامهم وهم يهرولون .
وفتحت الباب فإذا بهم يتسابقون إلى ويتعلقون بساقى ، ورفعتم الصغيرة
ذراعها فى الهواء لأحملها ، فملت عليها ورفعتها بين يدى ، وضممتها إلى
صدرى الذى صار مرتعا للهواجس والانفعالات .

وسرنا إلى غرفة النوم فألفيت زوجتى ممدودة فى سريرها ، ولما تحتنى
رفعت يدها إلى رأسها بالتحية ، ثم نهضت تعد لنا الغداء .

والتفنا حول التضد الصباح الذى كنت أستعمله مكتبا ومائدة ، وراحت
زوجتى تتحدث وأنا شارد الذهن لا أميز مما تقول شيئا ، وفطنت إلى سهومى
فقالت :

— فيم تفكر ؟

— لا شىء .

— بل فى رأسك شىء .

— سأسافر إلى الباكستان .

— ونحن !؟

— إننى مضطر ، وقع على الاختيار لأكون فى الوفد المسافر .

— أتركنا وحدنا هنا ؟ لا تتصور أن يكون هذا . اعتذر ، ليس فى العقد المبرم بينك وبينهم ما يلزمك بالسفر ، إن لهم أن يرسلوك إلى أى مكان داخل المملكة ونحن معك .

— تقرر سفرى وانتهى الأمر .

— قل إنك ترحب بهذا السفر ، ضقت ذرعاً بنا ، أهذا جزائى ؟ أترك بيتى وأولادى وأنا مريضة وأجىء معك ، وإذا بك تفر منا وتهجرنا فى بلاد غريبة !.

— لقد فكرت فى الأمر ، سأعيدكم إلى القاهرة ، مكانكم هناك .

فقالت وهى تنهض وقد ملكت عيناها بالدموع :

— بل مكاني هنا .

وأحسست أنها جرحت فرأت أن تجرحنى ، فما كانت تقبل أن أخذشها يوماً دون أن تنشب أظافرها لتسيل دم كبريائى ، قالت :

— إنك لا تفكر إلا فى نفسك وأنا لا أفكر إلا فى نفسى ، أتخسب أننى

جئت من أجلك ، إننى ما تركت بيتى وأولادى إلا لأحج ، ولن أعود قبل أن أودى الفريضة .

— سأمر عند عودتى على القاهرة ، ونعود معاً إلى هنا .

— بالله لا تسخر منى ، سافر ما دمت قد مللتنا ، أما أنا فلن أغادر هذا

البيت .

— ٦٤ —

— إنها أيام قليلة ، عشرة أيام أو أسبوعان على الأكثر .

— وجواز السفر ستأخذه معك ؟

— طبعاً .

— ونمكث نحن هنا بلا جواز سفر ؟ قد نضطر إلى العودة إلى مصر فماذا

نفعل ؟

— سأخرج لكم جواز سفر مستقل .

— ومصاريف العودة ؟

— سأدع لكم كل ما معى من مال .

فقالت وهى تغادر الغرفة :

— فكر جيداً فيما تفعل ، وسل من شئت عن هذا السفر ، فإذا أقرك فرد

واحد على ما تفعله فافعل ما بدا لك .

وذهبت ، ونهضت متثاقلاً وأنا أدور بعينى فى وجوه أولادى .. فطنت

البنت الكبيرة إلى ما دار حولها فعافت نفسها الطعام ، أما الصبى فقد راح

يعبث بكل ما أمامه لا يهتم من أمر الدنيا إلا نفسه ، ورفعت الصغيرة ذراعها

فى الهواء لأحملها ، فملت عليها وحملتها ورحت أمرر خدى على خدها وفى

جوفى وقدة نار .

وقالت الصغيرة :

— أنام .

فانطلقت بها إلى الحمام وغسلت لها يديها وفمها ، وأملتها على ذراعى

وضممتها إلى صدرى لتنام فى أحضانى ، ورحت أجوب بها الشقة وأنا مبلىل

الفكر ، تتنازعنى الهواجس والأوهام .

وهاجمتني أفكار سود ؛ ماذا تفعل زوجتي المريضة بهؤلاء الأولاد في بلاد غريبة لو قدر لي ألا أعود ، جئنا بجواز سفر واحد ، فما دار بخلدي يوما قبل سفرى من القاهرة أن المصادفة قد تضطرنا يوما إلى أن نفترق ، ولو خطر ذلك على بالي ما جشمتهم متاعب السفر معي ، ولتركتهم بين أهلهم آمين .

لو كتب على ألا أعود ، لخف الكثيرون إلى زوجتي الأرملة لتعزيته وعرض خدماتهم عليها في إشفاق مصطنع ، وعيونهم العطشى تتجول في وجهها الحزين . ستحاط بحجب زائف ، سيقوم بعضهم متطوعا بإخراج تأشيرة الخروج على الجواز ليدلل للآخرين على نخوته ، وسيضع بعضهم سيارته تحت أمرها لينقلها هي والأولاد التابعة إلى المطار ؛ ولكن لن يحف حلق أحدهم ، ولن ينقبض قلبه حزنا .

ونامت الصغيرة في أحضاني ، فذهبت بها إلى فراشها وملت أضعها فيه ، وزوجتي ممدودة في سريرها ترقبنا ، فلما سحبت على الصغيرة الغطاء قالت زوجتي :

— والله لا ندرى ماذا سنفعل عندما نتلفت في البيت ولا نجدك .

وعصفت عواطفى بي ، ولولا الدمعة التي بللت عيني لخرط الجفاف حلقي .

ورن جرس الباب الخارجى ، فقامت زوجتي وذهبت تفتحه ، وتمددت في سريرى شارد الذهن ، وقرع أذنى صرير قفل الباب ، ثم صوت التابعة وهى تهدر :

— الله يجازيه ، الله لا يكسبه ، الله لا يتمتع بهشابه .

وقالت زوجتى :

(وكان مساء)

— من ؟

— محمد أفندى .

وصممت لتثير فضول زوجتى ، وقالت زوجتى :

— ماذا فعل ؟

— أمه .. قالت لى كل شىء .. قالت إنه سبها . الله لا يكسبه .. لا يريد أن ينفق عليها .. الله يجازيه .

وتدفتت فى الحديث تقص أسرار البيت ، وحلت عقدة لسان زوجتى فقصت قصة سفرى ، وقالت التابعة بصوت عال ليلبلغ مسامعى :

— ولماذا لا يسافر ! سننتظره هنا حتى يعود بالسلامة ، الله يتمتع بشبابه . وحاولت أن أنام دون جدوى ، وظللت أتقلب فى فراشى كأنما أتقلب على جمر . كنت فى قرارة نفسى مقتنعا بأننى قسوت على زوجتى وأولادى . وآذنت الشمس بالمغيب فارتديت ملابسى وأخذت جواز السفر ، وهبطت أذهب إلى مصور أكلفه باستخراج ست صور لزوجتى وأولادى حتى أتمكن من طلب جواز سفر منفصل .

وبلغت باب العمارة فوق بصرى على التابعة على بعد خطوات ، تحدث محمد أفندى فى ود ، وقرع أذنى صوتها وهى تقول له :

— الله يجعل دعائى من نصيبك ، والله إنى أدعو لك ليلا ونهارا .

ومد المخدوع يده فى جيبه وأعطاهها خمسة ريالات ، وانسللت دون أن ترائى . تعلمت من معاشرتها أنها تتصنع الغضب إذا استشعرت أن أمرها كاد ينكشف ، وتطلق لسانها بالباطل حتى تثير زوبعة فى البيت ، وأنها بتلك الشرارة المفتعلة تستر نفسها وتحول الأنظار عنها . لم أكن فى حاجة إلى ثورة ،

تكفينى الثررة المتأججة بين جوانحى .

وبلغت دكان المصور فوجدت زحاما ، ولحت أحد « الأمرين بالمعروف » يقود المصور أمامه ومعه امرأتان من أفريقية . كان المصور فى السبعين من عمره ، والمرأتان سافرتان ، وجهاهما أسود من فحمة الليل ، وقال « الأمر بالمعروف » إنه وجد المصور والمرأتين فى خلوة . وقال الشيخ وهو يرتجف فرقا :

— جاءتا تتصوران لاستخراج جواز السفر .

فقال « الأمر بالمعروف » فى زجر :

— كنتم فى الدكان وحدكم ، ليس معكم إلا الشيطان .

وساقهم أمامه وهو شاخ برأسه ، والشيخ والمرأتان يتلفتون بعيون زائغة ، فى وجوههم هلع ، فالأمر بالمعروف إذا قال فلا مرد لقوله . وانصرفت منقبضا ، فقد زاد ذلك الهوان فى أساى .

١٢

تأجل السفر فهدأت زوابع نفسى ، وهجع الصخب الذى انطلق فى أغوارى ، وعشت حياتى الراكدة التى لا إرهاصات فيها ولا انفعالات نابضة ، إلا تلك التى أستعيرها من ماضى من اللحظات الزاخرة بالمشاعر ، للساعات الطويلة الجدباء العجاف .

وعدت إلى التهويم والسهوم والشروود والحياة فى نفسى ، واستعدت سعيدا ذكريات طفولتى ، ولكن ذكريات شبابى هى التى تضىء جوانحى وتحرك فئ

ألد الإحساسات ، وعاد طيف فاطمة يزورنى ويقضى معى اللحظات
الفارغة ، يملؤها خفقا ونبضا وإشعاعات .

اختفت فاطمة فجأة من حياتى ، وتركتنى للهواجس والأفكار ، واستبد
بى قلبى بعد أن نفذ صبرى ، فعقدت العزم على أن أفتح أسمى فى أمر حبيبى وأتمس
منها أن تذهب تسأل عن حبيبة الفؤاد ، ولكن قبل أن أنفذ ما حزمت عليه
أمرى قرأت نعى أبيها ، فبدلت خططى وقررت الانطلاق للعزاء وتنسم
الأخبار .

وذهبت فى الليل إلى المأتم وأنا أرتجف . القشعريرة تسرى فى بدنى ، والقلق
فى أعماقى ، والنظرات الزائغة الحائرة فى عيني .

وصافحت الواقفين أمام السرادق لتلقى العزاء ، وضغطت على يد أخيها
وأنا أضافحه ، ثم جلست أتلفت لا يستقر لى قرار .

وجاء أخوها وجلس إلى جوارى برهة ليشكرنى ، فقلت له :

— أرجو أن تبلغ عزائى للست الوالدة ، وللهائم الصغيرة .

وقفز قلبى وكاد يفر من فمى ، وأرهفت مشاعرى ، ومشى الخوف فى
صدرى . كنت أخشى أن يشكر لى شعورى ، ثم يطبق فمه ولا يتكلم ، ولكنه
قال :

— والله لم يبلغ فاطمة بعد خبر وفاة أبيها ، سافرت بعد أن تزوجت . أين

نحن منها الآن ، لقد عارضت هذا الزواج .

ولمح صديقا قادمًا فاستأذن منى وذهب للقاءه .

وانقبض صدرى ، ودوت أصوات هائلة فى أذنى ودارت الأرض بى ،

وغامت جميع الصور التى كانت واضحة لعيني ، واستشعرت كأن خنجرًا

يمزق أحشائي .

وانصرفت وحرزنى يفوق حزن أهل الميت جميعا ، لو أنهم كانوا قد حزنوا عليه .

— تزوجت ؟ أين عهدنا ؟ أين قسمنا ؟ أين الآمال العريضة وقصور الأمانى التى أقمناها تتطاوّل إلى عنان السماء ؟ إن الأسى يعصر مهجتى ، وإننى سأتهار .

ومشيت وحدى أمضغ الأحزان .

وجاءت ابنتى الصغيرة تهزنى وتقول :

— السيارة ! .. السيارة !

وفهمت أن السيارة أقبلت لتذهب بى إلى الوزارة ، فرفعت ابنتى بين ذراعى وقبلتها ، فإذا بها تلف ذراعها حول عنقى وتلتصق خدها بخدى ، لقد زادت بى تعلقا ، أحست — منذ استطالت لحيتى وشاربى وأخذت أرتدى الجلباب الصوف وأضع الغطرة الحمراء المنقطة بالأبيض وأثبتها على رأسى بالشطاف الأسود وأتسرّبل بالمشلح الصوف — أننى أأهب للغدر بها وأتركها فى البلد الغريب بلا ناصر ولا حبيب .

ووجدت فى تأجيل موعد الرحلة فرصة مواتية للاعتذار عن السفر والبقاء مع زوجتى وأبنائى الذين ما غادروا بيتهم وضحوا براحتهم إلا ليمسحوا آلام الغربة عن صدرى ، وقلت للسائق اليمنى القمىء ونحن فى طريقنا إلى الوزارة :

— لن أسافر . سأعتذر اليوم .

فقال وهو ييصق من الشباك القريب منه :

— هذا واجب ، كيف تسافر وتترك « البزورة » وحدهم ؟ إنهم فى حاجة

إلى من يرعاهم ويقضى مصالحهم .. لا تظن أن هناك من يملأ فراغ الأب أبدا .

وربا تصميمي على الاعتذار ، حتى السائق اليني استنكر فعلتي . كان هدفي منذ أن رزقني الله أول طفل أن أبذل جهدي ، ألا يتعلق بي أولادي ، أن أعودهم على أن يألّفوا بعدي حتى إذا حان حينى لم يحسوا تلك اللوعة التى أحسستها يوم موت أبى ، والتى كادت توردينى موارد الهلاك ، ولكنى أخفقت فيما رسمته لنفسى . أحبنى أولادى على الرغم من أننى لم أكشف لهم كنوز قلبى ولم أقبل أحدهم يوما .

وصعدت إلى مكتب الوزير ، وقابلت بعض الزملاء وكاشفتهم بما عزمت عليه ، فقالوا لى إن الاعتذار محال بعد أن أقرت الحكومة أسماء الوفد .
وصل الوزير ، وجاء فراش المكتب يقول :
— عمى . معالى الوزير يبغاك .

وانطلقت وقد قررت أن أنتهز أية فرصة للاعتذار ، ولكن ما إن دخلت عليه حتى قال لى :

— استعد للسفر ، سنغادر جدة بعد أيام .

وعاد القلق إلى مرتعه الخصب فى صدرى ، وزحفت خفافيش الأفكار إلى كهف رأسى ، واستبدت مشاعرى لى حتى إننى كنت أفر من نفسى وأندمج فى الناس أشاركهم أحاديثهم وأشعل نار المجادلات حتى أندمج فى جو من الصراع ينسينى ما أقاسيه .

ورأيت أن أذهب إلى الكعبة لأطوف طواف الوداع . وراحت السيارة تقطع عشرات الأميال وأنا مطرق صامت ، وتشاغلتنى عن نفسى بمراقبة

الطريق ، فألفيت رجالا من أندونيسيا والباكستان وساحل الذهب يرتدون ثياب الإحرام ويجدون في السير على الأقدام قاصدين البيت الحرام . ومر بجوارى محرم ينهب الأرض بالفسبا فتتبعته ببصرى ، ولكن ما كان كل ما حولى بقادر على أن ينتزعنى من نفسى .

احتلت زوجتى وأولادى كل تفكيرى ، ورحت أفكر في هذه المصادفة التى أبت إلا أن تفرق بيننا ، لتقضى أمرا وتم فعلا ما يزال في جوف القدر مغيبا .

وراحت الأوهام تفح في أرجائى كالأفاعى ، وتحركت مخاوفى كالعقارب ، وهب عقلى يشد أزرى ويشهر أسلحة منطقته يطعن بها الأوهام والمخاوف ، ولكن فلت أسلحته جميعا ، وفغرت الأوهام فاها حتى خيل إلى أنها ستبتلعنى .

وهزئت رأسى لأطرد الأشباح المترافضة في مخيلتى كالأبالسة ، وأخذت أحادث السائق اليمنى حتى أفر من وحدتى . تحدثت معه أحاديث عابرة ، ولكن موضوع أسرتى عاد ليشغل بالى ، فقلت لليمنى القمىء :

— سأسافر ، لا بد من السفر .. إني أعتمد عليك .

— اطمئن فسأمر عليهم كل يوم ، وسأقضى لهم كل حوائجهم .

ولم أطمئن ، بل أخذت ينابيع القلق تنشق في أعماقي ، ووصلنا إلى المسجد الحرام فأسرعت لألوذ بالكعبة .

وأخذت أطوف حولها وأنا أردد أدعية حفظتها ، لسانى يتحرك وفكرى شارد ، وفجأة ألفيت نفسى أقرأ : « ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى

زرع عند بيتك المحرم « فأرهفت حواسي كلها ، وأخذ فكري يعمل .
ترك إبراهيم ابنه إسماعيل عند البيت المحرم لما أمره الله بذلك لحكمة أرادها ،
وقال جبريل لهاجر إن الله سيجعل الغلام أمة عظيمة . أما أنا فإني أترك أبنائي
وحدهم دون أن يأمرني أحد ، وما قال لي قائل حكمة تركهم .
وكانت هاجر قادرة أن تذهب حيث تشاء بابنها إذا ضاقت بذلك المكان ،
فما كانت هناك جوازات سفر ولا تأشيرات دخول وخروج . كانت الأرض
كلها لله أما زوجتي فلا تستطيع أن تغادر البلاد إذا وقع ما يحتم عليها مغادرتها ،
إلا بجواز سفر وبتأشيرة خروج ، وإلا إذا ضمنها ضامن معروف لإدارة
الجوازات .

وراحت هواجس تتشعب كالأخطبوط لتضمنني إليها ، فذهبت إلى ستار
الكعبة وتعلقت بها ، وجعلت أدعو الله ودموعي تغسل وجهي أن يمد
الهواجس التي ترهقني ، فأحسست كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدري ،
ورحت أصلي العصر بقلب سليم .

١٣

قبض على السائق اليمنى القمىء ، وألقاه أحد الأمرين بالمعروف في السجن
لأنه كان سكران ، وبلغ ذلك الأولاد فوجموا ، وحزنت زوجتي ، وراحت
التابعة تقسم أنه مظلوم .

ووجدت التابعة مادة لحديثها مع الناس ، وسمعت ما تقول فتيقنت أنها
تشهر بالرجل عامدة وإن أظهرت عليه العطف ، فالتشهير بالناس هوايتها ،

ويا طالما شهرت بنا في وجوهنا وإن غلفت تشهيرها بغلالة رقيقة من المديح الكاذب .

كنا جالسين يوما في الشرفة نرقب البواخر في الميناء وقد ثبت الدخان المنبعث منها في الجو دون حركة ، فما كانت نسمة تحركه ، فبدأ المشهد جميعه كأنما رسم على لوحة كبيرة ، كل ما فيها جامد حتى المراكب الشراعية ، وراحت تقول :

— كنت أحدث اليوم مع الست الكبيرة عن الأكل ، فقلت لها إن الست طبخت بصارة كانت أشهى من الديك الرومي .
وجعلت تردد لفظة البصارة وتنعتها بألذ النغوت ، ولكن رنة صوتها كانت توحى بالسخرية والتجريح .

وانقبضت لغياب السائق اليمنى ، فهو الوحيد الذى كنت أسايره في الصباح وهو ينقلنى إلى الوزارة ، وهو الذى كان يخرج بنا في الأمسيات إلى شاطئ البحر لنقضى على الضجر الذى كنا نستشعره في البيت .
وما كانت تمر فرصة إلا ويتحدث عما سنفعله في الحج ، وكنت أحس إحساسا عميقا أن هذا الرجل لن يحج معنا إذا قدر لنا أن نحج ، وما كنت أدري مصدر ذلك الإحساس ، ولكن لم يدر بخلدى لحظة أنه سيقبض عليه ويلقى به في السجن لأنه سكير .

وأهمنى أمر أمه وزوجته وابنه الصغير ، فمن ذا الذى يرعاهم ويلبى حاجاتهم ، ورن في أذنى صوته وهو يقول لى : « لا تظن أن هناك من يملأ فراغ الأب أبدا » فاستشعرت أسى ، كان يشفق على أولادى من فراق لهم شهرا أو بعض شهر ، وما دار بخلده أنه سيلقى به في السجن ، وسيستيقظ أهله يوما

ويجدون أنفسهم بلا عائل ولا نصير .

وجاءت التابعة تمصص بشفتيها وتقول في شفقة مفتعلة :

— مسكين . حكم عليه بالسجن ستة أشهر ، وبالجلد كل شهر ثمانين
جلدة .

فقلت في إنكار :

— كل شهر ١؟ في أى شرع هذا ؟ هذا محال .. من قال لك ؟

— هذا ما قاله الدكتور .

ولم أعرف من هو الدكتور الذى تتحدث عنه ، ولكنى لزمتم الصمت
وراح فكري يعمل . لم يبق إلا ثلاثة أيام على سفرى وهاهى ذى الصدفة تحرم
الأولاد من الرجل الوحيد الذى كنت أعتمد عليه فى الخروج بهم للترفيه
عنهم ، وتخفيف وطأة الفراق عليهم حتى أعود ، إذا قدر لى أن أعود .
— لم تبق لهم إلا التابعة ، وابتلعت لى الله أن يحملها بالعقل ، وأن يرزقها
الثبات ، ولكن لم تمض ساعات على ابتهالى حتى تيقنت أن باب السماء قد
أوصد دونه .

دلفت التابعة من الباب الخارجى وصوتها يسبقها ، كانت تقول كأنما تتابع
حديثا بدأته قبل الدخول :

— وماذا فعل لى أولادى ، لم يكتبوا لى كلمة ، ولم يسألوا عنى ،
سأ تزوج .. والله لأتزوجن .

وكان فى حديثها نبرة من الغبطة ، وأكد لى قلبى أن حديثها جاد لا هزر
فيه ، وخفت إليها زوجتى تسألها :

— ماذا جرى ؟

فقال متفتحة النفس وقد انبسطت تجاعيد وجهها وانفرج فمها عن أسنانها السليمة ، وإن تخطت السبعين .

— الحاج داود السائق بينك مصر عرض على أن نتزوج ، قال لي إنه لا يملك مهرا ، وأنا لا أملك شيئا ، ولكن ما كان ذلك ليمنع زواجنا ، سيشتري ست زجاجات « شربات » يوزعها على سكان العمارة كلهم ، وبذلك نعلن زواجنا .

فقالت زوجتى وهى تضحك :

— مبارك ، وأين يدخل عليك ؟

— فى غرفته ، إنه يعيش وحده . أعزب ماتت زوجته .

وصمتت قليلا ، وكأنها عز عليها أن ينقطع هذا الحديث اللذيذ فعادت تقسم لتقنع نفسها :

— سأتزوج ، والله لأتزوجن .. ماذا فعل لي أولادى ؟

واستمر الحديث بينها وبين زوجتى ، كانت زوجتى تهدف إلى الترويح عن قلبها ساعة ، ولكن قلبى لم يطمئن لهذا العبث . لمست فى حديث التابعة طيش الشيوخ ، وتيقنت من أنها مستعدة أن تتركب كل الحماقات لو كان الحاج داود الرجل الأسمر الطويل الذى أشرف على الستين جادا فى حديثه ، وكان رجل مغامرات .

وأخذت أرصد حركات المرأة الفانية ، فوجدتها قد انقلبت فتاة مراهقة ، تحرض الأولاد على النزول حتى تنسل منهم وتجلس إلى الحاج داود ، تمضى الساعات الطويلة فى مناجاته .

وطفقت تدخر الفاكهة التى نقدمها لها والشيكولاتة والطعام الجاف ،

وتقول إنها تتصدق بما لا تأكل، ولكنني لمحتها أكثر من مرة تخفى هذه الأشياء في طيات ثيابها وتعطيها الحاج داود .

آه لو تزوجت لما بقي لأولادى أحد بعد الله .

وجاءت في الليل وقالت :

— قال لى الحاج داود إنه يشتهي « الكرشة » التى كانت تصنعها له أمه ، وهو يحب أن يأكلها من يدى . لم يكن يعرف أننى لم أسلق بيضة في حياتى وأننى لم أقف أمام النار ، وأردت أن أوهمه أننى طبخة ماهرة فقلت له : ما أيسر صنعها . نضع الكرشة في الماء حتى تغلى ثم نضع الملح والحبهان . وضحك الحاج داود وقال : ما هكذا تصنع . كانت أُمى تصنعها بالطماطم والحمص . إنك لا تعرفين شيئا في الطبخ !! وكشف أمرى .

واسترحت لحديث التابعة ومات قلقي ، فقد كشفت تصرفات الرجل معها حقيقة أمره ، لم يكن طالب زواج ، ولكنه طامع في الخيرات التى تتسرب من يدها إلى فمه ، وكان يطمع في أن تطهو له ما يشتهي . ولقد تقوض ركن من الأركان التى كان يشرب إليه بعنقه ، وستهديه حصافته إلى أن الركن الآخر لا شك منقوض إذا ما تم الزواج ، فما كانت زوجتى لتعطى من تركتها وأولادها فواكه وشيكولاتة وطعاما يسيل له لعاب الحبيب المشرف على الستين .

أشرقت شمس اليوم التالى ، ولم يبق على السفر إلا يومان ، فقررت أن أرتدى الثياب العربية حتى أتدرب على لبسها ، وحتى يصلح لى رفاقى ما اعوج منها . ووضعت الغطرة الحمراء على رأسى بعد أن ارتديت جلبابا رماديا فضفاضا ، وثبتتها بالشطاف الأسود ، ثم وضعت المشلح الصوف على كتفى ،

ودنوت من المرأة وجعلت أتفرس في وجهي وأمرر يدي على لحتي وأعبت
بشاربي .

وجاءت ابنتي الصغيرة تهرول لترتمي في أحضاني كما تفعل كل صباح ،
ولكنها توقفت فجأة وصعدت عينيها في ثم أجهشت بالبكاء ، فملت عليها
وحملتني بين يدي وضممتها إلى صدري ، فراحت تحاول أن تنتزع الغطرة
والشطاف من على رأسي .

وملأت إفرازات الحزن صدري ، واحتلت إسفنجة جافة خلقي ، وبللت
العبرات مقلتي فما أيسر أن تنهمر دموعي ، وتمنيت أن تبدأ الرحلة سريعا ، فإذا
ما بدأت كان معنى ذلك بداية نهايتها ونهاية القلق الذي أعيش فيه بكل حواسي
المرهفة ، فلن أجزع من شبح الفراق بعد السفر ، بل سأحيا على أمل اللقاء وهو
أمل حبيب مرتجي .

ووضعت الصغيرة وغادرت الغرفة وأنا أوسع خطوي ، وأحسست
المشلع ينزلق على كتفي ، فوضعت ذراعي في فتحتي الكمين وأسرت
صوب الباب ، فارا من بكاء الصغيرة الذي كنت أحس وقعه كوخز الإبر في
مهجتي .

وبلغت السيارة ، وشعرت بالنظرات المصوبة إلى فارتبكت ، ودخلت
السيارة قفزا ، ولكن ظل نصف المشلع في خارجها فسحبته وأخذت أصلح
هندامي .

وانطلقت السيارة بي وقد خيل إلى أنني غريب ، أنني شخص آخر لا أكاد
أعرفه ، فعلى رأسي قيد يعوق تفكيري ، وبين بطني والجلباب هواء يتحرك
ولم أعد أشعر بضغط البنطلون على وسطى ، وصرت أحس احتكاك لحمي

بلحمى كلما وضعت ساقا على ساق ، فما ارتديت سروالا طويلا أبيض تحت الثوب كما يفعلون . وراحت يدي تعبت بلحيتي وأنا . ساهم دون تفكير . وبلغت السيارة الوزارة فهبطت منها منفوشا كالطاووس ، وأنا أصلح وضع المشلح على كتفي ، ورمقني بواب الوزارة بعيون مفتوحة وفم منفرج ، فأومأت له برأسى محييا ، وأسرت أصعد في الدرج قبل أن تنتقل البسمة التي استشعرتها في عيني إلى فمي !

ولحنى الرفاق وأنا صاعد إلى غرفتي فخفوا إلى يتصايحون ، وراح أحدهم يصلح وضع الشطاف على رأسى وهو يقسم أننى أروع في الثوب منى في البدلة ، وأخذ الآخرون يزينون لى هجر الملابس الإفرنجية .

وجلست إلى مكتبي وحاولت أن أكتب ، ولكن القيد الذى يعقل رأسى منعنى عن التفكير ، وشغلنى كم الثوب الفضفاض ، أرفعه ثم أعود وأسدله ، وما ألبث أن أرفعه لأسدله ، وتقضى الوقت والقلم بين أصابعى قد جمد على القرباس ، وعهدى به أن ينطلق دون أن يقف أو يتعثر .

ولم أسطر كلمة ، وقمت أذرع الغرفة فى خيلاء الطاووس ، وأذهب إلى الشرفة أنظر إلى السيارات التى اكتظت بها ساحة الوزارة ، فلكل رئيس قسم سيارة حكومية ، أما صغار الموظفين فلهم سياراتهم الخاصة . ولحت سيارة الشاب الذى يكتب لى على الآلة الكاتبة فكادت علامات الدهش ترسم على وجهى ، لولا أن تذكرت أن راتبه يبلغ آخر مرتب حصلت عليه من الحكومة المصرية بعد أن خدمتها عشرين عاما !

وعدت إلى مكتبي وقد عجبت لأمرى ، استشعرت أننى أتبخر فى سبرى . وهب ذهنى يفكر فى هذه الظاهرة الجديدة ، أهى من وحى ذلك

الرداء الفضفاض والقصب الذى يزين المشلح أم من وحى الفراغ الذى راح
يملا رأسى ونفسى ؟ ولم أستقر على شىء ، ولم أهتم إلى الحقيقة ، كل ما اهتمت
إليه أن جميع الذين يرتدون هذه الثياب يتبخترون فى سيرهم ، وهذه هى
الحقيقة الثابتة .

وجاء الوزير إلى مكتبه فذهبت لمقابلته ، وكان يرتدى جلبابا من الصوف
عليه « الكوت » ؛ والكوت جاكته عادية مفصلة على أحدث طراز ، وكان
عاكفا على ورق أمامه .. وأحس دخولى فنظر بعينه الفيروزييتين من تحت
المنظار ، ولما لمحنى أخرج غليونه من فمه ، وقال وهو ينهض لاستقبالى :
— إيه الحلاوة دى كلها !

إنه رجل مجاملات ، وما أسرع أن ييسط ذراعيه للقادم ويبادل العناق ،
فقلت وأنا أنظر إلى ثيابه :
— إنها بعض فضلكم .
— أستغفر الله .

وجلسنا نتدارس الأوراق قبل سفرنا ، ومر الوقت وانتهى ميعاد العمل
ونحن فى مكتبه ، وراحت الساعات التى تفصل بيننا وبين ميعاد السفر
تطوى . كانت كلها ساعات زاحرة بالحركة والانفعالات ، لم أشرد فيها
لأجتر الماضى ولم يزرنى طيف فاطمة . قبع فى كهف الذكريات لتسدل عليه
مرة أخرى أسجاف النسيان التى ظلت مسدلة عشرين سنة .

وقبل العصر بقليل غادرنا الوزارة ، وتناولت غدائى على عجل ، وهبطت
أشترى الصحف من المحل الذى تقام عنده الحدود وتقطع أيدي السراق ،
ووجدت أمامه زحاما ، وبعض الجنود يقودون الخطاة ليقام عليهم الحد على

الملا .

وتفرست في الخطاة الذين تخلت عنهم الصدفة وأوقعتهم في أيدي الآمرين
بالمعروف ، فإذا بهم مطأطئو الرؤوس ، في وجوههم ذلة وخزي وانكسار .
وفجأة خفق قلبي في شدة ، ولفني اضطراب ، وراحت الدماء تجري حارة في
عروقي ، فقد وقع بصري على السائق اليمنى القمىء يكاد ينوء إعياء .
وبدأت عملية « فرش » الخطاة ، وارتفع السوط يهوى على الظهور
ففررت منقبضا ، ورأيت بعين خيالي مريم المجادلة خافضة الرأس ، ومثات
الأيدى مرفوعة وهي قابضة على الحجارة لترجمها بعد أن ضبطت متلبسة
بجريمة الزنا ، ويرن في أغوارى صوت يردد قول المسيح :
— من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .

١٤

ارتديت ثيابى العربية قبل الشروق ، وتحركت على أطراف أصابع قدمي
حتى لا تستيقظ زوجتي ولا ابنتي الصغيرة الراقدة إلى جوارها ، عذمت على
أن أنسل من الغرفة دون أن يشعر بي أحد ، وأنطلق إلى المطار دون وداع .
وانخبت أحمل حقيتي ، وإذا بصوت زوجتي يمس أذني واهنا مرتجفا :
— مسافر الآن يا جمال ؟

فقلت بصوت تموجه إشعاعات القلب :

— نعم .

فقلت وهي ممدودة في سريرها ، وقد أشاحت بوجهها عني ، لتخفي

دموعها :

— مع السلامة .

وغادرت الغرفة مسرعا قبل أن تستيقظ الصغيرة ، واجتازت الردهة الطويلة بخطوات واسعة ، وفتحت الباب الخارجى فى رفق وأغلقت خلفى وأنا أحاول ألا يحدث صوتا ، ثم هبطت فى الدرج خفيفا .

وبلغت ساحة المطار الخارجية فوجدت بعض موظفى الوزارة قد خفوا لتوديع الوزير ، فلما رأونى رحبوا بى ، وجاء مجدى طويلا شامخا ، وعيناه السوداوان تأتلفان ، وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن أسنان بيض منتظمة فبعد شاربہ الأسود عن لحيته السوداء الكثنة ، وفتح ذراعيه فانفرج مشلحه الأسود عن الثوب الصوفى الذى يرتديه « والكوت » الرمادى ، وضمنى إليه وهو يقول :

— أهلا بالرفيق .

كان مجدى من رفاق الرحلة ، وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، أبيض البشرة ، فخما فى الثياب العربية ، أشبه بأبطال الأساطير ، وكانت العلاقة التى تربطنى به قبل اليوم تحية عابرة ، أو حديثا رسميا ، لا يتجاوز حدود العمل .

وأقبل رجل كان يأتى إلى مكتب الوزير كثيرا وكان كلما رآنى حيائى فى شوق عظيم ، فصافح الموجودين فى حرارة ، ولما وصل إلى أومأ إلى برأسه من بعيد ، وعجبت لأمره ، وما فطنت إلى سبب الجفوة التى وقعت بيننا . - ووقفت أتحدث إلى بعض المودعين ، وصك صوتى أذن الرجل فالتفت فى دهش وهو يقول :

— أهو أنت ! والله لقد أنكرتك في هذه الثياب .

وفتح ذراعيه وضمنى إلى صدره في شوق وهو يعتذر ويضحك .
وجاء سامى ، إنه شاب في الثلاثين ، شعره أسود ناعم كشعر الهنود ،
وعينه وفمه أكثر ما يلفت النظر في وجهه الأسمر . إنه موظف في الوزارة ،
وأحد أعضاء البعثة ، وأول من رحب بى في حرارة عندما تسلمت على
الجديد ، لقد أحببته وتفتح له قلبى ، وليت دعوته لما دعانى إلى مكة .
ووقف سامى يتحدث إلى ويزج ببعض الكلمات الإنجليزية في حديثه ، إنه
يستعيد ما حفظه منها قبل أن يصل إلى بلاد ستكون الإنجليزية هى لغة
التخاطب بينه وبين أهلها .

وتقاطر باقى أعضاء البعثة ، وقام مجدى بتعريف بعضنا إلى بعض ، ولم
أحاول أن أحفظ أسماءهم فهم الآن بالنسبة إلى أشياء ترتدى العباءات البيض
والسود والصفير والبرتقالية وإن الرحلة لكفيلة بأن تقربنى من هذه الأشياء
حتى أرى دخائل النفوس ، وأقرأ ما يدور فى الرعوس .

وأقبل الوزير يرتدى جلبابا من الصوف الرمادى ، عليه عباءة فاخرة ،
مرفوع الرأس فى فمه غليون الذى لا يفارقه ، وخف إليه الناس فابتسم ابتسامة
ساحرة ، وتألفت عيناه الفيروزيتان ببريق أخاذ .. إنه الشيخ الذى تحلم به
السينما الأمريكية .

ووقف فى ساحة المطار الخارجية يتحدث إلى الملأ ، ودارت عيناى فى
المكان فألفت السحن البيضاء والسمراء والسوداء ، والأجسام الطويلة
والقصيرة والمكورة ، والشوارب واللحى السود والبيض التى اختلط فيها
السواد بالبياض ، فكنت كأنما أشاهد مشهدا من مسرحية خلت من النساء .

وأذن بالرحيل فشغل كل بعناق أهله ورفاقه ، والتف الجميع بالوزير
التفاف السوار بالمعصم ، وبقيت وحدى برهة أحسست فيها أنى غريب ،
وانسللت قاصدا الطائرة وإذا بصديق مصرى يعترض طريقى ويصافحنى فى
حرارة ، ففرت أشباح الوحشة التى تحركت لتعشش فى جوفى .

وأخذت مكانى فى الطائرة ، وجعلت أتفرس فى وجوه رفاقى الذين
سأمضى معهم شهرا أو بعض شهر فى الليل والنهار فى الطائرة والسيارة ،
وحاولت أن أرسم لكل منهم صورة مميزة فى ذهنى .

رأيت بجوار الوزير رجلا أسود مفلفل الشعر مضضع العينين فى وجهه
شعرات سوداء متناثرة لا تكون شاربا ولا لحية ، ولكنها تومئ إلى شئ من
ذلك ، كان يهمس فى أذن الوزير بحديث والوزير يبتسم ، ثم تنفرج شفتاه ثم
يضحك ، ثم يرفع الغطرة عن أذنه ويدنيه من فمه ليسمع الهمس فى وضوح .
كان سامى إلى جوارى فقلت له :

— من هذا الجالس إلى جوار الوزير ؟

— إنه مصطفى البديوى من كبار تجار مكة وصديق حميم للوزير .

ونظرت إلى مجدى فوجدت بجواره شابا أبيض يزين وجهه شارب وشعر
أسود بلا لحية ، ملاحه صارمة ، قلما يفتح فمه ، يدل مظهره على أنه لم يتلق
نصيبا من العلم وإن كانت ثيابه التى يرتديها توحى بالغنى ، فملت على سامى
مرة ثانية وقلت له :

— الجالس إلى جوار مجدى من نجد ؟

— نعم .

وتفرست فى الجالسين أمامى : كانا حليقين بلا شارب ولا لحية ، أحدهما

أبيض تدل جميع ملامحه على أنه من أصل فلسطيني وأنه من هواة جمع المال ،
والثاني أسمر طويل الأنف قصير القامة في وجهه اعتداد أصحاب الأموال ،
حكمت عليه قبل أن أعرفه أنه من ثروة منطقته ، وقد حققت الأيام حدسي ،
ولكن لم يخطر لي على بال في تلك اللحظة أنني سأجعل هذا الشاب الثرى
الوقور يغنى معي أغنية بذية سأنظمها في الطريق ، وهو يتمايل برأسه تمايل
الفوانى وأنفه الطويل يرسم دوائر في الهواء .

وسألت سامي عن صاحب الملاحم الفلسطينية ، وصاحب الأنف
الطويل ، فقال :

— هذا ممدوح نصار من كبار تجار الحجاز .

وأشار إلى صاحب الأنف الطويل وقال :

— وهذا فهد بن عبد الرحمن من المنطقة الشرقية .

ونظرت إلى جواري ، إلى المقعد الآخر ، فرأيت عقيل راضى . إنه شاب
لم يتجاوز الثلاثين ، أصفر الشعر والشارب ، حليق اللحية ، أزرق العينين ،
طويل نحيل ، في وجهه اعتداد فهو من الأشراف . كان موظفا في الوزارة ولم
يكن بينى وبينه أكثر من التحية .

واستلقيت في مقعدى مسترخيا وراح عقلي يعمل ، إننا الآن متباعدون لا
يكاد أحدهنا يعرف صاحبه ، جمعتنا المصادفة ، ولكن عما قريب سنندمج
ونتفاعل ونتجادل ونتنافر ، وما كنت واثقا من شيء ، ولكن الشيء الذى
كنت متأكدا منه أنني سأفتح للجميع قلبى ، ولن تنتهى الرحلة حتى يكونوا
جميعا أصدقاء خلصاء لي ، فأنا قادر على أن أتخذ من الشيطان نفسه صديقا
دون أن أجرح شعوره ، أو أسمح له أن يتسرب إلى روحي .

وهبطت الطائرة في مطار بيروت ، وفتح بابها وتسرب إلينا الهواء الرطب ، فقد كانت موجة من البرد تجتاح الشرق الأوسط ، وتقدم الوزير وراح ينزل في السلم ونحن خلفه ، وسرنا نخب في ثيابنا الفضفاضة صوب غرفة الاستقبال التي فتحت لنا ، والعيون تصوب إلينا من كل جانب .

وجلسنا قليلا نتحدث عن « البراد » وتبادل عبارات الترحيب ، ثم نهضنا قاصدين السيارات التي تنتظرنا ، فانطلقنا في ردهة المطار الخارجية الواسعة ، وفتيات شركات الطيران من كل جنس يتسمن لنا محبيات ، وعيونهن تأتلق . كان ترحيبا حارا لم أشهده من قبل في بيروت ، فقد جئت إليها في أكثر من وفد مصري ، وجئت إليها وحدي ، ولم أحظ من بنات الجبل الملهم بذلك الإشراق الحبيب .

وسارت بنا السيارات إلى الفندق ، ودلفنا إلى ساحة غاصة بسيدات يرتدين أحدث ما أخرجه محال الأزياء في لندن ونيويورك وباريس ، فاتسعت عيوننا وجعلنا نتلفت وقد اختلفت نظراتنا . كانت بعض العيون جائعة ، وبعضها ينظر في براءة هدفها النظرة للفن لا النظرة للحياة ، وأحسنا جميعا راحة للمشهد اللطيف بعد طول الجذب الذي قاسيناه في المملكة .

وصعدنا إلى غرفنا ، وسرعان ما عدنا إلى المصاعد فرادى لنهبط إلى المكان الموعد .. وظل عامل المصعد يتفرس في ويتسم ، فلم يكن يتصور أن يراني في بدلة عصرية .

ووقفنا في ساحة الفندق نتحدث ونحن نضع أيدينا في جيوب البنطلونات أو نمررها على الكرافات الأنيقة ، كان بعضنا أشبه بالأمريكان لولا اللحي التي أبت إلا أن تكشف أمرنا .

وتناولنا غداءنا ثم تبعثرنا في بيروت ، راح كل منا يقضى حاجته ، وذهبت أنا وعقيل إلى السوق نشترى بعض حاجاتنا .

وخرج أصحاب بعض المحال يدعوننا لتشريفهم وينادون :
— تفضل .. تفضل يا حاج .

ورفت على شفتى بسمة ، إذ تذكرت أن أحدهم في جدة إذا أراد أن ينفي عن نفسه السداجة قال في إنكار : « هو أنا حاج » ! . لقد صرت « حاجا » في نظر إخواننا البيروتيين .

ودلفنا إلى محل فرمز صاحبه بعينه للفتيات ليخفن إلينا ، وقال في حسرة :
— ليت فردوس كانت هنا .

وضحك عقيل بصوت مرتفع وهو ينظر إلى ، ورحت أشتري بعض هدايا لبناني فإذا بالأسعار ترتفع إلى حرارة الترحيب ، ظنوني كويتيا أو سعوديا انتفخت جيوبه بالدولار الساحر ، ولكن خابت فراستهم لأول مرة ، فما كان معي إلا بضع أوراق مالية مصرية وسعودية ، وكان سعرها في بيروت منخفضا بعد أن نهب الصهيونيون مصارف غزة وباعوا ما سرقوه في السوق التي تفتح ذراعيها للحلال والحرام على السواء .

وعدنا إلى الفندق وما اشترينا إلا أشياء يسيرة ، ولحت الوزير يتأهب للخروج فقلت له وأنا أمر يدي على لحيتي :

— سأخلق ذقني فأنا لا أستطيع أن أؤدى ضريبتها ، كانت السبب في رفع الأسعار ، إذ ظنوني سعوديا ألعب بالدولار .

فقال لي وهو يتسم :

— لو عرفوا أنك مصري لكانت الزيادة أكبر ، فالمصريون ينفقون هنا في

الصيف بسخاء .

فقلت :

— لو عرفوا حقيقتي لتصدقوا على .

وضحك الوزير وانصرف ، وجلست في ساحة الفندق ، وخطر في ذهني أن على الاقتصاديين المحدثين أن يضيفوا اللحي إلى أسباب ارتفاع الأسعار . وجاء مصطفى البديوي إلى .. كان يرتدى بدلة رمادية وكرافتة توحى بالثراء ، وعلى عينيه نظارته الطبية ، وفي جيب الجاكتة منديل حريري ، وشعره ينم عن أنه جاء رأسا من عند الحلاق ، ووقف عند رأسي وقال :

— ماذا تفعل هذا المساء ؟

— أذهب إلى السينما بعد أن حرمت منها شهرين .

فقال وهو يجذبني من يدي :

— تعال معي إلى الجبل .

— ماذا تفعل هناك في الشتاء ؟

— سهرة بريئة عند بعض الأصدقاء .

وسرت معه وركبنا سيارة انطلقت تسابق الريح في طريق الجبل . كانت الشمس قد غابت ، ولف الظلام والسكون الجبل الذي يأتلق في الصيف بالأنوار ويدوى بالناس كخلية نحل . وبدأ مصطفى يتحدث ، قال :

— إنني أحب أن أشرب وأضحك وأكركر ولا شيء غير هذا . حياتي شرب وضحك وكركرة .

فقلت له :

— وأنا لا أحب الشرب .. أنا أضحك وأكركر ولا شيء غير هذا ، حياتي

ضحك وضحك وكركرة .

وأخذ يحدثني عن أصدقائه في مصر ، وعضويته في النادى الأهلى ، وسهراته البريئة في المعادى ، ومعارفه في لبنان ، ورحلاته في أوروبا وآسيا ، وكان يضحك ويتحدث و « يكرر » على حد تعبيره ، ولكن حديثه وضحكاته وحر كاته تشوبها مسحة من الكدر .. إن في نفسه شيئا يعكر صفو حياته .

قلت له :

— عندك أولاد ؟

— بنت تزوجت وولد في الثالثة عشرة .

ومديده في جيبه وأخرج صورة ولده .. كان أسمر كأبيه وإن كانت عيناه أكثر اتساعا وبريقا ، وقلت مستأنفا الحديث :

— وأمهم ؟

— ماتت وتزوجت أختها ، إنها في سن ابنتى .. علمتها الفرنسية في البيت وعندها مكتبة هائلة .

وطفق يقص على حديث أسرته ، كان مزهوا بها ، واستشففت من حديثه أنها ليست سبب كدره .

ووقفت السيارة أمام بيت أنيق في الجبل ، وغادرناها وصوت يرحب بنا في لهجة لبنانية . ونظرت فرأيت رجلا ممتلئا تبدو عليه آثار النعمة ، وقدمنى مصطفى إليه فتصافحنا ، ثم سرننا في ردهة تفضى إلى ساحة مؤتثة برياش فاخر ، تنتهى بدرج غطى ببساط أحمر ، ورحنا نرقى في الدرج حتى بلغنا طبقه أنيقة ، ودلفنا إلى غرفة انتشرت فيها المقاعد الوثيرة ، وكانت الغرفة خالية .

وجلسنا والرجل يرحب بنا ، ومر بعض الوقت وأقبل شاب في رفقته فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، رائعة الحسن ، ذات شعر أسود متهدل على كتفها ، وعينين واسعتين كعيون المها ، ووجه ناصع البياض يزينه طابع الحسن في ذقنها ، وكانت ممثلة قليلا ترتدى ثوبا أسود زادها فتنة وتألقا .

وتصافحنا وجلسنا ، ودار الحديث بين صديقي والشاب ففهمت أنهما صديقان قديمان ، وغاب صاحب الدار قليلا ثم عاد يحمل زجاجة وكئوسا ، وقدم لصديقي كأسا ممثلة بالسائل الأشقر ، فتناوها مشرق الوجه ، وقدم إلى كأسا أخرى فاعتذرت ، فقالت الفتاة في دهش وهي ترفع كأسها عن شفيتها :

— عجيبة أن تجد اليوم من يرفض الشراب !

فقلت لها في استخفاف :

— هذا حق ، أنا حفرة قديمة ، أثر من الآثار البائدة .

وأشعلت الفتاة سيجارة ، وراحت تشد منها أنفاسا تنفثها في الهواء بطريقة تنم عن أنها غانية .

وراحت أفحص عنها بنظري ، كانت تضع ساقا على ساق وقد انحسر ثوبها حتى كشف أفخاذها ، وكانت في كل حركة أو إيماء تحاول أن تبرز فنتها ، وداعبها صديقي وهي تعب كأسها ، فضحكت ضحكة ناعمة خليعة دمغت معدنها ، ولم يعد هناك شك أنها من بنات الهوى .

ودارت الكئوس بينهم ، وانطلقت عقد ألسنتهم وذاب تحفظهم ، وتحدث بعضهم حديثا استعمل فيه ألفاظا تحمل أكثر من معنى ، وكان معناها الجنس بارزا ، فكانت الفتاة تكشف المعنى المستور لتدل على ذكائها !

— ٩٠ —

ورنوت إليها رنوة طويلة ثم قلت لها :
 — إنك جميلة وذكية .. وهناك آلاف يتمنون أن تكوني لهم زوجة ، أما
 كان خيرا لك أن تتزوجي ؟
 فقالت الفتاة وهي تعتدل في جلستها وتبعد خصلة من الشعر عن عينيها :
 — ولماذا أتزوج ؟
 — لتصوني نفسك — لكيلا تسيرى في هذا الطريق .
 — ومن أدراك أنني لو تزوجت ما شربت هذه الكأس ؟ لو تزوجت فلن
 يتورع زوجي عن تشغيلي ، خير لي أن أعمل لحساب نفسي .
 — هذا بشع ، لا يمكن تصوره .
 فقالت وهي تلقى بالكأس في جوفها :
 — إنك لا تعرف شباب اليوم في بيروت .
 ونظرت إلى الرجال الذين كانوا يصغون . أطبقوا شفاههم ولم ينبسوا
 بكلمة . وأشحت بوجهي ونظرت من خلل النافذة على المدينة التي تتألق
 أنوارها عند أقدام الجبل ، فخيّل إلى أنها غارقة في الدنس .

١٥

كنا مدعوين في الجبل ، فأمضينا الأمسية في قصر يفوق كل ما يستطيع أن
 يتصوره الخيال : ردهات من بلور ، وأعمدة من الرخام ، ورياش من أركان
 الأرض ، وثرثريات يكاد ينوء بحملها السقف ، ومرايا في الحمامات وغرف
 النوم ، وأحواض سباحة .. وأناقة تخلب اللب ، إن قصور ألف ليلة تخر

ساجدة عند قدميه في ذلة وخشوع .
وسرت أشاهد الحجرات مع رفاقي وأنا مفتوح العينين ، كان كل شيء
رائعا غريبا ، حتى أنا بدوت في المرايا وأنا في الملابس العربية واللحية التي نبتت
فيها شعرات بيض شيئا عجيبا . كنت في حلم من الأحلام .
واقترب مصطفى مني وهو يخب في مشلحه الأسود ، وقال في صوت
خافت :

— هذا القصر ، وهذا الحوض يملأ بالويسكى ، وفرقة من الحسان ، ولا
شيء بعد هذا .. سأكون في الجنة .
فقلت له وأنا أدنو منه :

— أفهم أن تتمنى أن يملأ هذا الحوض بالويسكى ، ولكن لا أفهم لماذا
تتمنى فرقة من الحسان ؟
— لأضحك معهن وأكركر .

— حرام عليك أن تتمنى فرقة من الحسان ليكتب عليهن الحرمان الأبدي ،
كيف تكون هذه جنة والفتيات في النار ؟

ودفعني بقبضته في كتفي وهو يضحك ، وسرنا نقتفي أثر الذين سبقونا ،
نسير خلفهم ، ونجوس خلال الدار . وانتبهنا من الطواف ، وحن ميعاد
الانصراف إلى المطار ، فعانق الوزير المضيف الكريم ، ثم ركبنا سيارتنا التي
انسابت هابطة في جبال لبنان في هجعة الليل قاصدة المطار .

كان الليل قد انتصف ، وكان الجو باردا ، حتى أنني أخذت أضرم مشلحي
الصوف إلى صدرى وألفه حول ساقى العاريتين لأحول بين الهواء البارد
وبينهما ، وعلى الرغم من تأخر الوقت وقسوة البرد كانت غرفة الاستقبال في

المطار غاصة بالمودعين .

ونودى علينا بالذهاب إلى الطائرة فنهضنا ، واستؤنف العناق والسلام والدعوات والتوصيات ، وانسللت وأنا أحمل حقيبة يدى فما كان هناك أصدقاء يعانقوننى ويتمنون لى أطيب التمنيات .

وصعدت فى درج الطائرة وأنا أتبختر فى أثوابى فأضم المشلح ، وسرعان ما أرفع رأسى وأنظر إلى مضيفتنا الواقفة تنتظرنا عند باب الطائرة لأكشف ما إذا كانت تلحظ لحمتى .

وبلغت المضيفة وألقيت عليها تحية المساء بالإنجليزية ، وأنا أومىء إليها برأسى إيماءة قلما تصدر إلا من رجل رفع قبعة تحية لسيدة ، وفى مثل لمح البصر تصورت نفسى وأنا أرفع لها العقال والغطرة ، فكادت بسمة خبيثة تولد على شفتى ، لولا أننى أسرعت لأحتل مقعدى .

وجلست وخف سامى واحتل المقعد المجاور لى ، وأغلق علينا باب الطائرة ، وأخذت المضيفة تمر علينا وتلمس منا أن نربط الأحزمة .

كانت المضيفة ترتدى قميصا أبيض وجاكتة و « جونلة » من قماش كحلى . وكانت ناصعة البياض وشعرها يميل إلى الحمرة وفمها أشبه بخاتم مستدير ، حسبها لأول وهلة أمريكية ، ولكنها كانت تختلف عن الأمريكيات بامتلاء ساقها وذراعيها .

وراحت العيون تتبعها ، ولو كان وقع العيون يحس لأحسست وخزافى كل جزء من أجزاء جسمها ، ولتأوّهت من وخز النظرات المسلطة على صدرها النافر وأردافها الممتلئة .

وارتفعت الطائرة ، وجاءت المضيفة ووضعت على ساقى بطانية من

الصفوف وأرشدتني إلى مكان « جاكته » النجاة ، وقالت :

— أتعرف كيف تستعملها ؟

فقلت لها وأنا أعبث في الحيتي :

— سمعت الشرح الذى تتفضل به المضيفات أكثر من مرة ، ولكننى واثق

أننى لن أستعملها .

ولم تفهم قصدى فى يسر ، بل ظنت أننى واثق من أننا سنصل بسلام ،

فقلت وهى تبتسم :

— أتعشم ذلك .

وغادرتنى ولم تفطن إلى أننى أقصد أننى لن أستعملها حتى لو انهارت الطائرة

لتغرق فى المحيط ، فأين الأعصاب التى تدع للمرء فرصة التفكير فى

« جاكته » النجاة ، وفى ارتدائها ، وكسر النافذة الزجاجية والخروج منها إلى

الماء ، ثم جذب الوسيلة المثبتة فى « الجاكته » تملأ هواء ، وإذا لم تنتفخ يفك

الصمام وينفخ « الجاكته » بفمه ، كل ذلك وهو فى الماء بعد مغادرة الطائرة ،

أين رباطة الجأش التى تمكن المرء من أن يفعل هذا كله والطائرة تهوى إلى

مصيورها المحتوم كالشهاب ؟! والصفارة المثبتة فى « جاكته » النجاة ما

دورها ؟ إنها للفت أنظار ركاب السفن إليك أنت أيها السعيد الذى نجوت من

الطائرة التى سقطت فى المحيط !

من اخترع هذه « الجاكته » رجل متفائل ، مغرق فى التفاؤل . وباليتهيم

وضعه فى طائرة وحده فى المحيط وأوقفوا محرقاتها — ولا أقول وأشعلوا النار

فيها — ليرشدنا عمليا إلى فائدة « جاكته » التى يخدر بها أعصاب ركاب

المحيطات .

وتدسست إلى رأسى فكرة شغلتنى عن جاكثة النجاة وعن المضيفة التى
وقفت عند بوفيه صغير لا يفصل بينى وبينه إلا ستارة أسدلت ، حجزت عنى
رؤية جزء من المكان .

فكرت فيما إذا كتب على أن أموت الآن ، أموت حسب الزمن فى
القاهرة ، أو حسب الزمن فى جدة حيث تركت زوجتى وأولادى الصغار ،
أو حسب الزمن فى المنطقة التى سألفظ فيها آخر نفس ، وحسب التوقيت
العالمى ، أو هناك توقيت خاص يستعمله عزرائيل ، ولأول مرة فى حياتى رثيت
لملك الموت ، وأشفتت عليه وقدرت الجهد الذى يكابده ليرىح الناس من
تباريح الآلام وقسوة الآمال .

وأطفئت الأنوار فى الطائرة ولم يبق إلا ضوء خافت حالم ، وإلا الضوء
الذى يتسرب إلى من فرجات الستارة ، واضطجعت وأغمضت عينى
لأغرى النوم على الطواف بى ولكن لم يعرف الوسن طريقه إلى جفنى ،
وتقلبت فرأيت مجدى واقفا بجلبابه الصوف وعلى رأسه الغطرة الحمراء
والشطاف الأسود وفى يده كوب ، وأمامه المضيفة يحادثها ، وهو يصبوب إليها
نظرات نارية . ولا أدرى لماذا تذكرت تلك اللحظة قول القائل لابنه الذى كان
يتفرس فى حسناء : « يا بنى لو كانت النظرة تحبل لحملت الفتاة من
نظراتك » .

ومرت دقائق ومجدى يتجاذب مع الفتاة أطراف الحديث ، وغفوت مدة
استيقظت بعدها فجأة على هبوط الطائرة هبوطا شديدا أفرغنى ، فقد مرت
بجيب هوائى ، ونظرت بعد أن سكن روعى فوجدت مجدى لا يزال يحادث
الفتاة وهى غارقة فى التطلع إليه .

ولحنى أنقلب في مقعدى فجاء إلى وقال لى وهو يميل بجسمه حتى يدنو من أذنى :

— ألم تنم ؟

— لست ممن ينامون فى السيما مهما كانت الرواية ! فما بالك إذا كان البطل ابن الشيخ والبطلة أمريكية !

فابتسم وقال لى وهو يدنو من أذنى :

— إنها ليست أمريكية ، إنها ألمانية .

— إنها تبحث عن تجربة جديدة ، وأنت فاكهة غريبة تشهى أن تتذوقها .

— سأقابلها فى كراتشى ، تواعدنا على اللقاء .

— أنا واثق أنها ترحب بدعوة أى عضو من أعضاء الوفد ، إنه حب

الاستطلاع .

— لا .. لقد ملأت رأسها .

— إننى لا أنكر أنك وسيم ، وأنتك شاب ، ولكن ليس هذا ما جذبها

إليك . إنه سحر اللباس الذى ترتديه ، ولو غازلها أى رجل فى الوفد

لاستجابت إليه .

فقال فى ضيق :

— لا أظن . لو رأيتنى فى سويسرا العرفت قدرى .

— وهل أنكرت قدرك ! إننى أقرر حقيقة .

فقال وهو يهم بالانصراف :

— المهم أنها ستقابلنى الليلة فى كراتشى .

وغاب عن عينى ، ومرت لحظات رحت بعدها فى سبات ، لا أدرى كم

نمت ، ولكن عندما فتحت عيني لحت المضيفة تغازل الشاب الذى يشاركها العمل فى الطائرة ، وكانت حركاتها تنم عن وجود أواصر عميقة من الألفة بينهما ، ذكرتنى بمداعبة الزوجة لزوجها فى شهر العسل .

ولم أتم إلا غرارا ، وأشرقت شمس الصباح ، وإذا بسامى يتشاءب ويتمطى ، ثم يلتفت إلى ويقول :

— صباح الخير . نمت جيدا ؟

— نمت نوما متقطعا .

— إننى لم أشعر بشىء .

— هذه نعمة .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن عدم الشعور نعمة ، نمت ونامت مشاعرك فقامت نسيطا منشرح الصدر ، أما أنا فقد أرهفت حواسى طوال الليل ، فثقل رأسى وأحس إرهاقا .

ومرت المضيفة بنا ، فقال سامى وهو يتبعها بنظره ويمصمص شفثيه :

— جميلة !

فقلت له وأنا أبتسم :

— رأيت بالليل فصلا من فصول حياتها .

— وماذا رأيت ؟

— مشهدا غراميا بينها وبين مجدى ، ومشهدا آخر أشد عنفا بينها وبين زميلها .

وجاء مصطفى البديوى مشرق الوجه ، ومال على وقال فى زهو :

— واعدت المضييفة على أن نلتقى فى كراتشى الليلة .

— أين ؟

— فى فندق المتروبول .

فقلت له وأنا أضحك :

— وماذا ستفعل معها ؟ تشرب وتضحك وتكركر ولا شىء غير هذا ؟

— إننى لا أريد إلا أن أشرب وأضحك وأكركر .

— أبشر .

وضحك سامى ، وسار مصطفى فى خيلاء ، أرضى غروره أن الفتاة البيضاء الممتلئة استجابت دعوته .

والتفت إلى سامى وقلت له :

— إنها واعدت مجدى فى نفس الوقت وفى نفس المكان ، ومن يدرى لعلها

واعدت الآخرين .

— وكيف توفق بين هذه المواعيد ؟

— واعدتهم جميعا لتضمن واحدا منهم ، وستستجيب لأول من يطرق بابها

حتى ولو كان أنت .

فالتمعت عينا سامى وقال :

— بالله لا تسخر .

— إلى أقرر حقيقة ، إنها من هواة جمع البصمات ، تشهى أن تقشر أحدا ،

لتكشف ما تحت الثوب العجيب الفضفاض .

وشرد بصر سامى ، ولا أدرى أكان يفكر فى أمر الفتاة أو كان يفكر فى إذ

يكون أول الذاهبين إلى فندق المتروبول فى المساء .

(وكان مسا.)

وهبطت الطائرة في مطار كراتشي ، ووقفت المضيفة وزميلها يودعان
 الهابطين ، وراح أعضاء الوفد يصافحونها وهم ينصرفون ، وكانت النظرات
 المتبادلة أفصح من الحديث .
 وسرنا على أرض المطار وقلوب بعضنا عامرة بالأمل .

١٦

سلطت علينا الأضواء ، والتقط مصورو الصحف والمجلات الصور من
 كل الزوايا ، وكانت أنشط المصورين امرأة شقراء على عينيها الزرقاوين
 منظار ، ترتدى بنطلونا أصفر وقميصا من نفس اللون التصقا بجسمها التصاقا
 تاما ، فبدت تفاصيل البطن البارز والأرداف المكتنزة ، وكان كسمها يوحي
 بأنها حملت ووضعت أكثر من مرة .
 وتقدمنا إلى غرفة الاستقبال والمستقبلون يحفون بنا ، والعيون تتطلع إلينا في
 تفحص وإجلال ، فإننا قادمون من الأرض المقدسة .
 وأخذت المصورة تدور كالنحلة ، كانت كتلة من نشاط ، وبدأت آلة
 التصوير السينمائي تدور ، فإذا بنا جميعا نصلح مشالحننا على أكتافنا ونسير في
 خيلاء ونتحرك في تصنع وافتعال .
 وجاءت سيارة وحملت الوزير إلى بيت رئيس الجمهورية ، ودلفنا نحن إلى
 غرفة الاستقبال لتبادل مع مضيفتنا عبارات الترحيب ، وأحسست يدا على
 كتفي فالتفت ، فإذا بالمحقق التجارى المصرى يتسم ويقول :
 — آسف ، لم أعرفك لولا أن قال لى أحدهم ، لم فعلت في نفسك كل هذا ؟

فقلت له وأنا أعبت في الحيتى :

— إننى عضو فى هذا الوفد ، وعلى أن أحافظ على تقاليده وأن أكون سعوديا أكثر من السعوديين أنفسهم ، فنظرات زملائى ستفحصنى وتجسم أخطائى ، وقد يغضبهم أن تبدر منى هفوة ولن يحرك ساكنهم لو ارتكب أحدهم جرما ، سيرون القشة فى عيني و ...

وقبل أن أتم حديثى جاء إلى سامى وهمس فى غضب :
— أصلح شطافك .

انفرج عقالى ، بعدت حلقة عن أختها قليلا فلمحتها عين سامى المسلحة على لفضح أخطائى ، فمددت يدي وضممت الحلقة على الأخرى ، ودارت علينا كئوس شراب الليمون .

وأفعمت الغرفة بعبارات الترحيب ، وخف عقيل إلى ومد يده إلى عقالى وأبعد حلقتة العليا عن أختها وقال لى :

— شيوخ القبائل لا يرتدون الشطاف إلا هكذا . منظر ك رائع الآن .

وتحرك شيطانى فناديت ساميا وقلت له :

— انظر ماذا فعل عقيل !

فالتفت سامى إلى عقيل وقال فى حدة :

— ما هذا ؟ ما هكذا يلبس الشطاف .

— بل هكذا يلبس .

— لا يا شيخ .

— جميع شيوخ القبائل عندنا يلبسونه هكذا .

وجاء فهد بقامته القصيرة الممتلئة وأنفه الطويل ، ورأيت إدماجه

المنافشة فقلت له :

— اختلغا فى لبس الشطاف ، أنضم حلقتاه أو يفرج بينهما ؟

فقال فهد :

— فى المنطقة الشرقية عندنا يفرج بينهما .

واشترك فهد فى المناقشة ، واحتدم الجدل وإن كان همسا ، وتعصب كل إلى رأيه وراح يدافع عنه دفاع علماء المسلمين فى العصور المظلمة عن رأيه فى المناظرة التى احتدمت فى ذلك الأوان ، والتى كانت تدور حول أيهما أفضل : مكة أو المدينة؟! وجف حلق فهد فالتفت يقول :

— أما من خادما يأتينا « بيج » ماء ؟

إن الكلمات الإنجليزية دخلت العربية وامتزجت بها ، وأصبح يشتق منها وتصرف . ستسمع (Jug) وهو الإبريق و « غرفة مكندشة » بمعنى مكيفة و « رود واسع » بمعنى طريق واسع ، وأصبح الموضوع « مفنشا » بمعنى منتهيا و « تلهمنى » بمعنى أخبرنى ، واشتقت من (Tell him) « والريل » بمعنى السكة الحديدية ، وتزداد الكلمات الإنجليزية أو الأمريكية انتشارا فى اللغة العربية كلما اتجهت إلى المنطقة الشرقية ، ولا أدرى هل الدولار هو السبب ، أو الحكام الذين كانوا خاضعين للورنس وعبد الله فيليبى وجلوب باشا ؟

وأدرت عيني فى المكان ، فألفيت مصطفى قد انفراد برجل من الباكستان والحديث يتدفق من فمه ، كان يسره أن يتحدث عن ذاته ، ويتلذذ بسماع صوت نفسه . ونظرت إلى شطافته فألفيت حلقتيها مضمومتين ، وفتشت عن ممدوح فوجدته واقفا فى ركن من الغرفة وهو يتحدث بيديه ورأسه فى حركة

دائبة ، ولحت شطافته فإذا بملقتهما منفرجتين ، ولكن انفراجهما لم يلفت نظر أحد من زملائى فما كان محط أنظارهم .

وجاء مجدى وطلب منا أن نتفضل إلى السيارات ، فنهضنا وسرنا فى ردهة طويلة وخدم المطار يحبوننا فى خشوع ، ولو استجابوا لعواطفهم لحنوا إلينا يتمسحون بنا ، فهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم أن كل ما يفد من الأراضى المقدسة مقدس .

وبلغنا السيارات وركبنا فيها ، وسرعان ما انطلقت بنا تشق الفضاء . والتفت خلفى القى نظرة على المطار بعد أن ابتعدنا عنه ، فإذا بمحطائه ومبانيه تنم عن الطابع البريطانى .

وانسابت بنا السيارات فى صحراء جرداء ، ووقع بصرى على منازل متواضعة أقرب إلى الأكواخ كان منظرها يشوه المكان ، وفطن أحد المرافقين لنا إلى الدهشة التى ارتسمت فى وجهى فقال لى :

— هذه بيوت اللاجئين ، ترك عشرة ملايين من المسلمين دورهم وأملأهم فى الهند عقب التقسيم ولجئوا إلى الباكستان فرارا من الاضطهاد . وراح الرجل يتحدث وأنا شارد ، لم أكن أصغى إلى حديثه بل أخذ ذهنى يفكر فى الناس ويتساءل : لماذا لا يعيش البشر متحابين متصادقين ، لا قهر ولا عنف ولا اضطهاد ، يعتنق المرء منهم ما يشاء من الأديان والمذاهب ، ويحترم الآخرون عقيدته ومذهبه . الحياة أقصر من أن تتسع للمشاحنات والإحزن والبغضاء ، لماذا لا يعيش الناس كلهم فى سلام ؟ لا أظن أن هناك فردا عاقلا يرحب بالحرب والدمار ، فلماذا تتأهب جميع الدول للعدوان وتتسابق فى إنتاج أسلحة الخراب ؟ علة ذلك أن رؤساء الأمم لم ينضجوا بعد نضجا إنسانيا

كاملا ، قد يكونون ناضجين في السياسة والمكر والدهاء ، وقد يكونون ناضجين علميا أو اقتصاديا ، ولكن شتان بين النضج السياسى أو العلمى أو الاقتصادى ، والنضج الإنسانى الرفيع .

وراحت الأفكار تنثال على رأسى ، ورحت أتساءل : لماذا لا يثور الذين نضجوا إنسانيا على زعمائهم ويرغمونهم على نبذ التجارب الذرية والهيدروجينية والقذائف الموجهة وأدوات الدمار ؟ ونبت الجواب فى ذهنى : إنهم لا يفعلون لأنهم غالبا يعيشون فى المجتمع بعقلية القطيع ، وإن تساموا على المجتمع وحصنوا عقولهم وصدوا عنها تيارات الدعاية المغرضة ، سلط الزعماء الطبقة المؤمنة بمبادئهم على هذه الصفوة للقضاء عليها .

لا أمل للبشرية فى أن تسود المحبة بينها إلا أن يتولى أمورها قادة تم نضجهم الإنسانى ، ولو ظل زعيم واحد منهم يؤمن بمبادئ الغابة فعلى الدنيا السلام . ووصلنا إلى كراتشى : الشوارع واسعة والمباني قلما ترتفع عن طبقتين أو ثلاث ، والسيارات عتيقة ، والعربات التى تجرها الخيل تجرى هنا وهناك ، والصندوق الذى يتسع لراكبين ويسحبه موتوسيكل من طراز « فسبا » هو أكثر وسائل المواصلات انتشارا ، أما الترام فكانت تدرج على قضبانها كامرأة عجوز .

لم تلمح عيني آية من آيات الترف ، حتى السيارات التى كانت تحملنا سيارات أجرة غطيت عداداتها بخرق سوداء ، فالحكومة لا تملك سيارات تضعها فى خدمة ضيوفها ، فأين هذا من السيارات « المكندشة » التى رأيتها فى المملكة ؟

وكان الجمل الشاخب فى كبرياء ذليلا فى شوارع كراتشى ، كان يمر

عجلات فوقها أحمال ثقيلة ، إنه صابر يخفف عنه ما يستشعر من هوان ذكريات أمجاده السالفة .

وبلغنا بيت الضيافة ، وحيانا الحراس التحية اللائقة ، ووقفت السيارات عند باب أمامه مظلة وعمودان من الأسمنت المسلح ، وهبطت من السيارة وأنا ألبس ملابس المبعثرة وأصلح هندامى وأرفع يدي إلى الشطاف أضمر حلقتيه ، ولما اطمأنت إلى الوقار تقدمت أضعف في الدرجات القليلة ، ثم انحرفت يمينا إلى قاعة واسعة ، صفت فيها مقاعد وثيرة ، وجلست أنتظر التعليمات .

وجاء رجل يرتدى عمامة بيضاء وملابس بيضاء تتكون من سروال طويل ضيق عند القدمين وقميص فضفاض وحول وسطه حزام أحمر ، وكان شارب الكث ولحيته الغزيرة المخضبة بالحناء يستغرقان كل وجهه ، إنه أشبه بصاحب التمثال المحتنى الموضوع في مكاتب الطيران ليرحب بالوافدين إلى الهند .

كان الرجل يحمل أقداح الشاي فراح يدور علينا وأنا أتفرس فيه ، لم يكن غريبا عني .. رأيته في جميع روايات السينما التي تدور حوادثها في الهند ، إنه هو نفسه ولا شك الذي أوحى إلى مخرجي السينما شخصية الساق الهندي . وأرشدت إلى غرفتي ، وعلمت أن شريكى فيها مصطفى البديوى ، فالتفت إليه وقلت له :

— تفضل يا شريك الهناء .

— تفضل أنت .. أنتظر أحد أصدقائى وسيحضر الآن .

وانتهجت إلى غرفتي ، كان بابها في نفس القاعة الواسعة ، ووضعت حوائجى وارتميت في الفراش أستريح .

ومر بعض الوقت ، ونهضت لأدخل الحمام ، وقبل أن أتوجه إليه خطر لى

أن ألقى نظرة على مصطفى ففتحت الباب فرأيت في القاعة وحده ، فقلت له :

— لم يأت صديقك بعد ؟

— لا . تعال .

— بعد أن أخرج من الحمام .

— تعال . أريدك في أمر هام .

وانطلقت إليه حاف القدمين حاسر الرأس وجلست إلى جواره ، فدفع إلى إعلانا مكتوبا باللغة الإنجليزية من الإعلانات التي ترفق بالأدوية ، وقال :

— أبغاه ليشتري لي الدواء .

وأخذت في قراءة الإعلان ، وراح هو يتسم ثم « كر كر » . كان الإعلان عن دواء يقوى الجنس ، فقلت له وأنا أعيد الإعلان :

— أتؤمن بهذا ؟

— هذا دواء مفعوله أكيد ، لا يوجد إلا هنا في بلاد العطاراة والعقاقير .

فقلت له وأنا أبتسم :

— عندي فكرة أفضل .

فقال وقد اتسعت عيناه :

— قل .

— إننا هنا في بلاد الحواة ، يزمر الحاوي منهم للكوبرا فترفع رأسها . وقد رأيت في شريط سينائي هندي يزمر للحبل فينتصب في الفضاء ويتسلقه البطل حتى يصل إلى شرفة حبيبته . أظن أنك في حاجة إلى حاو من هؤلاء أكثر من حاجتك إلى هذا الدواء .

فدفعني بقبضته في كتفي وقال :

— ١٠٥ —

— دائما تمزج الجد بالهزل .

فقلت وأنا أشير إلى الإعلان :

— أهذا جد ؟

— نهاية الجد . أمل غال .

— أمل المشرف على الموت في الحياة .

وفجأة أحسست قسوة حديثي ، وتقاصرت نفسي ، وهب ضميري
يقرعني ويصيح بي لماذا تسخر منه ؟ من حقه أن يتشبث بالحياة . إنه زوج
لشابة في السابعة عشرة لها عليه حقوق وهو لا يريد أن يقصر أو يحرمها
حقوقها . إذا كانت السنون قد نالت منه فلماذا لا يلوذ بالطب والعطارة
والعقاقير ؟!

ورأيت أن أمسح وقع سخرיתי فعزمت على أن أظهر اهتمامي بما يهتم به ،
فقلت له :

— أرجوك أن تريني هذا الدواء العجيب لما يشتريه صديقك .

فأشرق وجهه وقال :

— سأشتري لك منه .

فقلت له مداعبا وأنا أبعد :

— سيخل به صديقك علينا ، سيؤثر به نفسه إذا عرف فوائده .

وهذأت نفسي لما عاد الإشراف إلى وجه مصطفى ، وانسجبت لأذهب إلى
الحمام .

وتقضى الوقت ، وفتح باب غرفتنا ودخل مجدى وعيناه يتطاير الشرر
منهما ، قال :

— ١٠٦ —

— أف ... أف ... والله العظيم ... والله العظيم ...

— ماذا جرى ؟

— حسبت أننا سننزل في المتربول وإذا بهم يجيئون بنا إلى هنا ، وعللت النفس بالذهاب في الليل لمقابلتها . ولكنني علمت الآن أننا مدعوون على العشاء . ضاع كل شيء وتقوض كل تدبير .
— إنني لا أرى لها .

والتمعت عينا مجدى ، ظن أنني أرى لها لأن شابا وسيما مثله انساب من بين ذراعيها ، فقال والغرور يمشى في أوصاله :

— لماذا ؟

— لأنها واعدت الوفد جميعه على أمل أن تضمن بصمة جديدة غريبة ، فهي من هواة جمع البصمات ، ولكن الظروف نقضت غزها .
— ماذا تقول ؟

— لم تواعدك وحدك ؛ واعدت مصطفى ، وواعدت ممدوح ، وكان سامى عازما على الذهاب إليها . كان هدفها الأول أن تتاح لها فرصة تقشير أحدكم .

١٧

عقدت اجتماعات بيننا وبين الجانب الباكستانى ، وبرز فيها فهد بن عبد الرحمن بماله . إذا قال الباكستانيون عندنا فائض من الأسمت بسعر كذا ، قال فهد على الفور : إنه على استعداد لشراء حمولة سفينة ، وإذا قالوا عندنا فائض

من كذا، أبدى استعداده لشراء ذلك الفائض، كان الإمامه بالإنجليزية محدودا، ولكن أرصدة أمواله في البنوك أمدته بثقة في نفسه، فكان يتحدث حديث الوثائق، وكان الباكستانيون يعيرونه سمعهم، وهم يأملون أن يتحول الحديث إلى دولارات.

وذهبا لزيارة مصنع ضخّم.. كانت الآلات الهائلة تهدر كارد جبار، والعمال العجاف يرقبونها وقد تعرت صدورهم. كانت المسكنة في وجوههم، وما كانت عيونهم تأتلق بالآمال.

وسار معنا صاحب المصنع مشرق الوجه، كان في حجم الثور يتكلم عن ملائنه وآماله في زهو، وراح يتحدث علما يصنعه لعماله وعن الحياة الناعمة التي أعدها لهم، وأراد أن يعرض علينا منته الكبرى عليهم فذهب بنا إلى مساكن العمال.

وخاضت السيارات في ماء آسن، وخرج الأولاد من منازل وضيعة عرايا، وأسرعت زوجات العمال لمشاهدتنا.. كن ذابلات يلوح عليهن سوء التغذية، وكان على أذرعهن أطفال لفوا في ثياب بالية، وملأت أنوفنا رائحة كريهة، فتقرزت نفسى، ولم أطق أن أفتح عيني على المشاهد البغيضة، فأغمضت عيني وكتمت أنفاسى.

كان كل شيء بغيضا مقبنا حتى أننى التمسست من مرافقنا أن يعود بنا من حيث جئنا، وأخذت السيارات تخوض في الأوحال في طريق عودتها.

وعدنا إلى بيت الضيافة، ودخلت أنا وممدوح غرفة الاستقبال، بينما صعد الآخرون إلى غرفهم، والتفت ممدوح إلى وقال:

— معدنى مرتبكة قليلا.

فقلت له ناصحا :

— تناول غداء خفيفا .

فقال وهو يضع يده على بطنه :

— لا ، إننى أعرف دوائى .

ونادى على الخادم وأسر إليه بعض كلمات ، ورأيت أن أنسحب فاتجهت

إلى غرفتى ، وسمعت ممدوح يقول :

— إلى أين ؟

— إلى غرفتى لأصلى الظهر .

— انتظرنى لأصلى معك . لا زلت على وضوء .

— وانتظرته ودخلنا الغرفة معا ، وأقسمت عليه أن يتقدم ليكون لى إماما .

وصلينا وقضيت الصلاة ، وخرجنا إلى غرفة الاستقبال ، وأقبل الخادم فى يده

كأس بها ويسكى وقدمها إلى ممدوح .

وغيب ممدوح الكأس فى جوفه وهو يقول :

— هذا دوائى .. إنه علاج مجرب .

ورمقت من صليت خلفه برهة ، ثم انصرفت لأعيد صلاة الظهر

وحدى .

واجتمعنا حول المائدة تتجاذب أطراف الحديث ، ومال ممدوح على مجدى

وأسر إليه النجوى ، فأشرق وجه مجدى واتمعت عيناه ، وفى العصر ظهرت

آثار المناجاة .

توجهت إلى القبلة لأصلى واستغرقت فى صلاتى ، وسمعت باب الغرفة

يفتح وسمعت صوت مجدى ثم همس مجدى ومصطفى ، ودق الجرس وقدم

الخدام ثم أغلق الباب وما لبث أن فتح .
وانتهيت من صلاقي وسلمت ونظرت ، فرأيت مجدى ومصطفى يتقارعان
الكئوس وينظران إلى ويفرقان فى الضحك . أسر ممدوح إلى مجدى بسر
الويسكى ، فجاء إلى غرفتى يشربه مع مصطفى الذى يحب أن يجارى الناس .
وقلت لهما :

— ما شاء الله ، هذا تجديد صلاة على قرع الكئوس .
فأقبل مجدى إلى وفى يده كأسه ، وقال وهو يقرب الكأس من فمى :
— اشرب .

فقلت له فى هدوء :

— إننى لا أشرب .

— جرب .

— حاولت فتاة ما تحاوله الآن وأنا فى الرابعة عشرة ، وقد أخفقت .

— لماذا تحرم نفسك ؟

— أجد لذة فى هذا الحرمان قد تفوق اللذة التى تجدها فى الشراب .

— قل إنك تخاف أن يدور برأسك وأن ينطلق لسانك بأسرار أن تهتك

أسرارها .

— ليس فى حياقي ما أحجل من أن يبدو الناس ، وليس فى حياقي ما أريد

أن أنساه أو أفر منه وأكتم أنفاسه بالشراب .

واربد وجه مجدى ، واستشعرت من حركة عينيه أنه يكابد قلقلًا ، فأشحت

بوجهي عنه حتى لا أكبده مشقة كبج جماح عواطفه ، وجلست على حافة

سريرى ، وجلس مجدى على حافة سرير مصطفى ، وساد الصمت المكان وأنا

أرمقهما بطرف عيني ، وشردت فملأت صورة سائقي اليمنى القمىء صفحة ذهني ، والسياط تهوى على .
واستشعرت امتعاضا ؛ أوقعته المصادفة السيئة في يد آمر بالمعروف قد يكون ممن يشربون في اطمئنان ، دون أن يخشى بطش زملائه الآمرين بالمعروف .

١٨

كنت في الغرفة وحدي ، كانت هذه أول مرة منذ بدأت الرحلة أنفرد فيها بنفسى ، فرحت أفكر في زوجتى وابنتى الصغيرة التى غدرت بها وفررت منها ، فخفق قلبى حنانا واستشعرت لهفة وبللت الدموع مقلتى ، فأنا ضعيف وإن حاولت أن أبدو متجلدا ، وإن أية انفعالة حساسة قادرة على أن تسيل عبراتى .

ورأيت بعين خيالى التابعة وهى تتودد إلى الحاج داود ، وأوغل ذهني في تصوراته فرأيتها توزع الشرابات على أهل البيت جميعا ، ثم تغلق عليها وعلى الحاج داود باب غرفته .

ومشت رهبة إلى صدرى ، ورأيت زوجتى وأولادى الصغار وحدهم فزادت مخاوفي وانقبض صدرى وأرهفت كل حواسى . وأردت أن أنتشل نفسى من تصوراتى فأسرعت أفكر في فاطمة وأخرج طيفها من كهف الذكريات ، ولكن طيفها عجز عن أن يزحزح الخيالات التى كانت في رأسى ، وانسل مدحورا ليتوارى تاركا مسرح الخيال لزوجة مريضة وطفلة

حبيبة وتابعة لا يهملها من أمر الدنيا إلا نفسها .
 الويل لي من لحظات وحدتي ، إنني لأحس فيها وخزا ألما يخز روحي ، ولقد
 كان من حسن حظي أن تلك اللحظات نادرة ، فقد كنا مشغولين عن أنفسنا
 بزيارات وحفلات ورحلات واجتماعات .
 وقمت منفعلا أكتب رسالة لزوجتي أوصيها بالأولاد خيرا وأمنيتها
 الأمانى . وكتبت إلى أولادى الذين تركتهم فى القاهرة رسالة أطلب منهم فيها
 أن يكثرُوا من بعث الرسائل إلى أمهم ليمثلُوا وحدتها حياة وأملا .
 وأقبل سامى وقال :

— سنذهب نجوس خلال الأسواق ، هيا .

فقلت له :

— ألا ترى أن نرتدى بدلنا حتى تسهل حركتنا ؟

فقال فى إنكار :

— لا .. لا . هذا لا يجوز . إننا بعثة سعودية فعلينا أن نبدو دائما فى الثوب

العربى .

وارتديت ثوبى العربى وخرجت إلى قاعة الاستقبال ، فألفيت بعض
 زملائى السعوديين يرتدون الثياب الإفريقية .

وذهبنا إلى السوق ، وخف الأهلإ إلينا يرحبون بنا ، وكان الفقراء يحنون
 رءوسهم لنا احتراما ويرمقوننا فى إكبار وتقديس .

ودنا منى رجل أصفر غير الشعر ، ابيضت لحيته وكان بياضها أنصع من
 بياض ثوبه المغبر ، وأخذ الرجل يتكلم وينظر إلى السماء ويشير إلى صدره ،
 ولم أفهم كلمة واحدة مما يقول ، ولكن فهمت توسلات عينيه ؛ كان يلتمس

منى أن أدعو الله له ليشفيه من مرضه الذى أكل صدره .
أشفقت على الرجل وارتبكت قليلا ، ولكننى لم أكن قادرا على أن أخيب
رجاءه ، فوضعت يدى على صدره وقرأت الفاتحة وأنا أرنو إلى السماء ، وكل
حواسى تبتهل إلى الله أن يشفيه .

كنت صادقا فى ابتهالقى ، أحسست حرارتها فى قلبى حتى إننى كدت أن
أتوسل إلى الله بدموعى ، وغبت عن كل ما حولى واندحت فى الكون كله .
وأفقت من شرودى على ضحكة عقيل ، فالتفت فرأيت يهرع إلى سامى
والرفاق ويشير إلى . ووقفوا جميعا ينظرون ويضعون أيديهم على بطونهم
ويتأيلون وهم يقهقهون .

ورفعت يدى عن صدر الرجل الهزيل فطفق يتمم بكلمات ، وملاح
وجهه تعبر عن حقيقة مشاعره ، كان يشكر لى دعائى .
وانصرف الرجل الساذج الذى آمن أن كل من يأتى من الأراضى المقدسة
مقدس ، وقد انبسطت أساريه وقويت روحه ، وعمر قلبه بالأمل بعد أن كان
خرابا قفرا ، فقد ساق إليه حسن طالع رجلا صالحا من البلدة الطيبة .
آه لو درى أننى لست من الأراضى الطاهرة ، وأننى حديث عهد باللحىة
والثياب التى خدعته .

وجاء المساء وانطلقنا جميعا إلى حيث دعينا ، واندجنا فى المدعوين ، كانوا
موظفين حكوميين ومن التجار والشعب ودارت الأحاديث بيننا ، كانت
أحاديث اقتصادية ولكن سرعان ما انزلت أقدامنا إلى حديث السياسة .
عزمت يوم قبلت السفر فى هذا الوفد ألا أتحدث فى السياسة ، وألا أقدم على
ما قد يجرح شعور زملائى ، وأن أسالم من يهاجمنى ، وأن أضع أعصابى فى

ثلاجة . كنت حريصا على أن أبدو رزينا ، فأنا واثق أن أية هفوة منى ستنسب إلى المصريين جميعا .

وأغرائى حديث السياسة على أن أنسى مارسمته لنفسى ، وأن أخوض فيه ، فأنا فى ثياب عربية ، وإنها لفرصة لن يجود الزمان بمثلها لأعرف حقيقة شعور الناس بالنسبة لوطنى . دون مجاملة أو تزويق .

كانت قناة السويس لا تزال مغلقة بعد الاعتداء الخسيس على مصر ، وكانت مشكلة القناة حديث الساعة فى كل مجتمع ، وسألت الناس رأيهم فى مصر ورجالاتها ، فإذا بهم جميعا يؤيدون مصر ، ويعبرون فى حرارة عن حبهم العميق لها .

وانشرح صدرى وتفتح قلبى ، إن الشعوب عظيمة ، فما من شعب يرضى الهوان للشعوب الأخرى . ولكنهم الحكام يسدلون على عيون الشعوب نظارات حمراء وبيضاء وسوداء فيرون الأحداث الجارية فى العالم خلال اللون الذى يشتهونه .

ورحت أجوس خلال الناس منشرح الصدر ، وأقبل إلى سامى مكفهر الوجه فقلت له :

— خيرا ؟

فقال وهو يفرك يديه :

— وبخت توبيخا شديدا ، بل قرعت تقريعا .

فدنوت منه وقلت له :

— ماذا جرى ؟ أفصح .

فقال وهو يتلفت فى ارتباك :

— وقفت أتحدث مع رجل كبير فقال لى : دعكم من هذه اللحى وهذه
العباءات والمظهر الدينى هذه كلها قشور ، وأنا أعرف كل ما تفعلونه مع
الفتيات فى بيروت .

فقلت له همسا :

— وكيف عرف هذا ؟

فقال لى وهو يهز يديه فى يأس :

— إنه سفير الباكستان فى بيروت .

— وماذا قلت له ؟

— لم أقل شيئا ، عقد لسانى وأحسست أننى غريق .

ورأيت أن أهون عليه حزنه فقلت له :

— لا عليك ، كل البلاد فيها الصالح والطالح .

فقال سامى وهو يهز رأسه فى أسى :

— والله كشفنا .

وسار سامى مطرقا حزينا ، لم يحرك أساه ما يفعله السعوديون فى بيروت ،
وقبض صدره أن هناك من كشف أمرهم . وعجبت للإنسان يفعل المنكر دون
أن يعزن ، فإذا انكشف أمر ذلك المنكر غضب وثار . صرنا جميعا لإسبرطين
نشجع السرقة ، والويل لمن يضبط متلبسا بها .

وانتهت الوليمة ، وتأهبنا للانصراف ، ونظرت إلى حذائى وأنا أرفع طرف
الثوب فلمحت ثنية بنطلون البيجاما ، فقد لبست الثوب ونسيت أن أخلع
بنطلون البيجاما !

وكنت أستطيع أن أسدل الثوب وأنصرف بسلام ، فما كشف أحد

أمرى وما كان أحد بقادر على أن يكشفه ، فجلباى الصوفى طويل لا يظهر منه حتى خذائى ، ولكننى عزمت على أن أرى ما يفعل الزملاء لو عرفوا أننى كنت طوال الحفلة أرتدى البيجاما .

ودنوت من سامى وقلت له وأنا أرفع طرف جلباى :

— انظر !

ولمخطوط البيجاما العريضة ، فقال فى إنكار :

— لا . هذا لا يليق .

وارتسمت على وجهه امتعاضة ، ورفعت على شفتى بسمة وأنا أتطلع إلى سرواله الأبيض الطويل الذى يبدو من تحت جلباه ، لم أعرف ما الفرق بين سرواله المكوى المشغول طرفه بالحرير وبين بنطلون بيجامتى المستور ، ولا أظن أن أى باكستانى كان بقادر على أن يفرق بين سراويلهم البيضاء وبنطلون بيجامتى لو قدر له أن يراه ، ولكن سامى غضب لأنه اعتبر ارتداء بنطلون البيجاما تحت الجلباب خرقا للتقاليد .

إننا جميعا عبيد الأوهام .

كنا في رحلة دائمة ، نقطع عشرات الأميال أو مئات الأميال لنزور مصنعا أو نقابل رجال الأعمال في منطقة ، ثم نعود إلى الاستراحة الحكومية ، وما نكاد نلتقط أنفاسنا حتى نخرج لنلبى دعوة للشاي أو لعشاء كنت أعود بعدها إلى الفراش ، فأنا لا أطيق السهر . ويذهب رفقاءى إلى السينما أو إلى مرقص بعد أن يخلعوا ثيابهم ويرتدوا الثياب الأوربية أو إلى ما يشاءون من أنواع التسلية ، وكانوا جميعا يخفون إلى في الصباح يقصون على ما فعلوه في أمسهم .

كان مجدى حليف الشراب ، يشرب في غرفتى ما شاء له أن يشرب ، ثم ينطلق في الليل مع بعض رفاقه إلى بيت من بيوت الهوى ، وما أن يستقر به المقام حتى يستأنف الشراب ولا شيء غيره .

وكان سامى لا يشرب ولكنه كان يبحث عن صيد بلا شراب ، وكان ككلاب الصيد دائم البحث عن فريسة ، إنه ومجدى يكونان رجلا كاملا من رجال الليل .

وكان عقيل ينطلق معهما يشاهد الشراب ولا يشرب ، ويجالس النساء يصغى إلى الأحاديث الدائرة وهو يضحك متشهما ولكنه لا يفعل شيئا ، كان يستشعر في قرارة نفسه أنه من الأشراف فكان يأنف أن يمارس الإثم علنا . وكان ممدوح يصاحبهما أحيانا وينفلت وحده غالب الأحيان ، إنه يستيقظ في البكرة يغتسل ويصلى الفجر حاضرا . وما كان يفوته الفجر أبدا ،

مع أنني قلما كنت أصلى الفجر حاضرا ، وكان لا يجد حرجا في الشراب ، ويجد متعة في قضاء الليل في أحضان غانية .

وكان فهد وصديقه تاجر الرياض قلما يفترقان ، كان فهد من جابوا أوروبا وآسيا .. مارس كل ما مارسه أوروبا من إباحية وانطلاق . لقد ملئ حتى أنه لم يعد يتلهف على الشراب أو النساء ، أما صديقه المنطوى على نفسه الذى قلما كان يكلم أحدا أو يفتح فمه ، فقد كان رجلا مستقيما حريصا على ماله الذى جمعه بعرق جبينه ، كان لا يشرب ولا يقترب المعاصى ، وكان زملاؤه يغمزون من بعيد وقلما كانوا يبادلونه الحديث ، ولم أندمج معه ولم نتبادل الأحاديث إلا مرة ، وعلى الرغم من ذلك كنت أفتح له قلبى وإن لم يعلق فى ذهنى اسمه .

أما مصطفى فكان ينفلت وحده يذهب للقاء الوزير ويمضى معه الليل السرمد ؛ فالوزير لا ينام قبل الفجر أبدا ، إنه يمضى الليل مؤرقا . وكان مصطفى عند عودته يوقظنى من نومى ويأخذ فى سرد ما قال له الوزير وما قال للوزير . وفطنت إلى أن مصطفى يجد لذة فى أن يدس نفسه فى زمرة العظماء ، وأن يسهب فى الحديث عن النوادى التى يشترك فيها وعن المجتمعات الراقية التى يغشاها ، ويتحدث بالفرنسية ، ولا يخاطبنى إلا بالإنجليزية التى ينطقها نطقا فرنسيا . كان فى نفسه شيء وقد عجزت حتى الساعة عن أن أكتشف ذلك الشيء الذى يعكر حياته ، والذى كانت ضحكاته تسفر عنه ولا تلقى ستارا عليه .

كنا ممدودين فى سريرينا وكان الوقت عصرا ، وقام مصطفى من نومه يتمطى ، والتفت إلى وقال :

— داخل الحمام ؟

« تروشت » وصليت العصر وتمددت في سريري لأستريح .

فقال وهو يحمل « الفوطة » على كتفه :

— « سأتروش » سريعا ، لا تتحرك من هنا ، أريد أن أتحدث معك حديثا

طويلا .

فقلت له وأنا أنظر إليه من طرف عيني :

— « ستتروش » فقط !

فقال وهو يضحك :

— يا خبيث .

كنت أذيع بين الإخوان أن مصطفى إذا دخل الحمام لا يفتسل كما نفعل ، ولكنه يطلى جسمه كله بالمرهم والأدهان والمساحيق ليبيض جلده الأسود ويزيل الشعر الذى ينبت للرجال وللنساء على السواء ، وكنت أقسم أن بشرته على الرغم من أنها فى لون الشيكولاتة إلا أنها أملس من بشرة البنات البكر ، وكنت أعد زجاجات التجميل المصفوفة على رف الحمام وأبالغ فى عدها وهو يضحك وفى وجهه رضا ، وإن كان لسانه يستنكر ما أقول استنكار من يطلب منى المزيد .

ودلف إلى الحمام وأغلق الباب خلفه ، ورحت أفكر فى كلمة « تروش » التى يستعملونها للدلالة على الاستحمام فلم أعرف من أين جاءت ولا كيف اشتقت ، وفيما أنا فى تفكيرى فتح الباب ودخل مجدى وقال :

— أين مصطفى ؟

— فى الحمام « يتروش » .

واتجه إلى النضد وقلب في الكوبات بعيون زائغة وقال :

— ألم يطلب شيئاً ؟

— لا . قل لي : « من أين جاءت كلمة « تروش » ؟

فقال وهو يضغط على الجرس :

— لا أعرف ، كل ما أعرفه أنني أريد أن أشرب .

وجاء الخادم الباكستاني الشاب ، ولما رأى مجدى فطن إلى ما يريد ،

والتفت إلى وقال :

— وأنت هل أحضر لك كأساً ؟

كان يعرف أنني لا أشرب ، ولكن شيطانه أغراه بمشاكستي . كان ينتظر

أن يرانى أحوقل وأستغفر وأستعيد بالله وأنهره في فزع فيخرج وهو يتسم ،

ولكننى قلت له :

— تعال .

فاقترب منى فقلت له :

— ما اسمك ؟

— محمد .

— مسلم ؟!

— الحمد لله .

— أتعرف أن الخمر حرام ، وأن عليك وزر حملها ، وأن مأواك النار ؟

فقال في فزع في إنجليزية ركيكة :

— وما ذنبى أنا ؟ ، إننى أومر وعلى أن أطيع .

وانتظر قرارى كأنما كان لقرارى أهمية ، فقلت كرجال الكهنوت الذين

يفتون فيما بين الخالق والمخلوق :

— يغفر الله لهما ولا يغفر لك .. مأواك النار .

وأشحت بوجهي عنه ، ووقف الشاب برهة ثم انصرف مطرق الرأس ،
فقال لي مجدى :

— أفرغت الرجل .

— هذا جزاؤه ، حتى لا يعود شيطانه ويغريه بى .

ودلفت إلى الغرفة الثانية ، ورحت أخلع البيجاما وأرتدى الجلباب الصوفى
وأهذب شاربى ولحيتى ، وخطر لى أن أداعب مصطفى فدنوت من باب
الحمام وقلت :

— مصطفى ، خطرت لى فكرة الساعة .

— ما هي ؟

— أن أبعث إلى مصر أسألهم أن يرسلوا لك حجر الحمام ، إنه حجر أسود
كان النساء يستعملنه لصقل البشرة وتبييضها .

فصاح وهو يضحك :

— يا خبيث .

— احترس أن يصل مسحوق إزالة الشعر إلى حاجبك . إن وصل إلى
لحيتك فأمرها يهون .

— إنه دهان وليس بمسحوق .

— وما أدرانى ؟ تزوجت من عشرين سنة ولم أجد عند زوجتى ما وجدته
عندك من مراهم وأدهان ومساحيق وسوائل للتجميل .

فقال وهو يقهقه :

— وما وجه الشبه بينى وبين زوجتك يا خبيث ؟

— أعوذ بالله ! لا يوجد وجه للشبه إلا بجامع التجميل فى كل .

وتركته وعدت إلى الغرفة الثانية فألفيت مجدى يعب الكأس الثانية وقد احمرت عيناه ، إنه يشرب فى شراهة ، وإذا ما اضطرتنا الظروف لأن نمضى النهار كله فى تحوال فإن أعصابه تثور ويلل شفثيه بلسانه ، ويخال لكل من يتفرس فيه أنه يقاسى من الظمأ .

وجلست على حافة السرير وجعلت أرقبه فأحسست أنى أتطلع إلى مأساة ، إلى حطام إنسان ، وإن لم يتجاوز الخامسة والثلاثين . وعزمت على أن أجاذبه أطراف الحديث فقلت له :

— متزوج ؟

فhez رأسه أى نعم ، وكست وجهه سحابة من الكدر ، فقلت له :

— وعندك أولاد ؟

— بنت واحدة .

فقلت مداعبا :

— غدا تصبح رب قبيلة . هذا أيسر إنتاج .

ووضع الكأس على النضد وأقبل على ييشنى همومه ، قال :

— زوجتنى أمى وأنا طالب فى المدرسة ، أرادت أن تفرح لى ، اختارت لى زوجة دون أن تأخذ رأيى ، وفى ذات ليلة وجدت نفسى فجأة مع فتاة لا أعرفها فى غرفة واحدة ..

وسمعنا حركة عند الباب فتوقف مجدى عن الحديث ، وفتح الباب ودخل سامى وعقيل وجلسا إلى جوارى ، وراح مجدى يستأنف قصته قال :

— حاولت منذ الليلة الأولى أن أتودد إليها ، أن أفتح لها قلبي ، ولكنها كانت تنفر مني ، وراحت الأيام تمر والهوة التي تفصل بيننا تتسع ، وتولد في قلبي البغض لها حتى أصبحت أمنيته أن أحطم القيد الذي يربط بيننا .
وظهرت عليها أعراض الحمل فتحملت وعللت النفس أن المولود قد يؤلف بين قلبينا ، وقد يسمح البغض الذي يفيض به فؤادي ، وراحت الأيام تمر وكراهيته لها تربو والنفور بيننا يزداد .

وجاء ميعاد الوضع وأصدقك القول أنني تمنيت لها الموت ، وزاد ضيقي لما جاءوا إلى يحمدون الله على سلامتها ويهنئونني بالوليدة .

تفتح قلبي لابنتي ، وأوصدت جميع منافذه في وجه زوجتي ، صارت كابوسا يجثم على صدري وستار أسود أسدل بيني وبين الحياة ، وفاضت كأس آلامي فذهبت إلى أمي أبكي وأتوسل إليها أن تنتشلني من العذاب الذي أتردى فيه .

وحاولت أمي أن تصلح بيننا ولكن هيهات ، فقد تسربت كراهيته لها إلى كل خلجة من خلجات نفسي وكل جارحة من جوارحي ، وما أحسب أن إنسانا أبغض شيئا بغضى لها ، حتى خيل إلى أن البغضاء التي تملأ أرجائي حولت دماي المتدفقة في عروقي قيحا وصديدا .

وكان لا بد من الفراق فكان الطلاق .

فقال سامي في لهفة :

— لم ترها قبل أن تتزوج ؟

فقال مجدى :

— لا . زوجتني أمي منها دون أن أراها .

— ١٢٣ —

فقال سامى وهو شارد البصر :
— إننى أتأهب للزواج ولم أر زوجتى حتى الساعة ، أخشى أن أشقى كما
شقيت .

فقلت لسامى :
— هون عليك ، المسألة أعمق من هذا .
والتفت إلى مجدى وقلت له :
— هل كانت زوجتك شابة ؟ وهل كان شكلها مقبولا ؟
— نعم . كانت شابة جميلة من الشام .
فقلت وأنا أرنو إلى سامى :
— وهل لو رأيتهما قبل الزواج كنت تقبل أن تتزوجها ؟
— ربما .

فقلت وأنا أعبث فى الكوب الموضوع على النضد :
— إنها ضحية أملك .
فقال مجدى وهو يعبث فى لحيته :
— لماذا ؟

— لأنها زوجتك قبل أن تتثقف أية ثقافة جنسية .
فقال لى وقد اتسعت عيناه دهشا :
— كنت شابا ناضجا .
فقلت وأنا أنهض لأدنو منه :
— قد تكون ناضجا جنسيا ولكنك غير أهل للزواج بعد ، هناك فرق بين
النضج الجنسى والثقافة الجنسية التى تعاونك على أن تستغل طاقتك استغلالا

يزيد في توثيق الروابط بينك وبين زوجتك على الدوام .
 فقال مجدى وهو يحرك يده كأنما يطرد شيئا يتقزز منه :
 — كل رجل ناضج يستطيع أن يتزوج ويسعد .
 فقلت له في تحد :
 — إننى أجزم الآن أنك حتى الآن لا تعرف شيئا عن الجنس .
 وظن أننى أقصد تجربته فمد يده وقبض على يدى وأخذ يلوى ذراعى فى
 قوة ، فقلت له :
 — هذه قوة خرقاء تحتاج إلى عقل مثقف يوجهها الوجهة الصحيحة .
 وقال سامى فى لهفة :
 — بالله دعه حتى يتم حديثه .
 وقال عقيل وهو يضحك :
 — دعنا نسمع .
 وترك مجدى يدى وأعارنى أذنيه ، واستأنفت حديثى قلت :
 — زيجات كثيرة قامت على الحب وأخفقت ، وزيجات كثيرة قامت بين
 زوجين ولم يلتقيا إلا ليلة الزفاف ونجحت ، لأن أهم ما فى الزواج لا يكتشف
 إلا بعد الزواج .
 شابة جميلة شقراء أو سمراء كما يشتهى الرجل ، وهام بها حبا ، وقبل أهلها
 أن يكون لابنتهم بعلا ، فراح يحسب أنه أسعد مخلوق فى الوجود ، وتم الزواج
 واكتشف الزوج أن الدمية الجميلة التى عبدها لا تكمل روحه ، إنه يستشعر
 عند الاندماج أن هناك شيئا ينقصه ، شيئا ينغص عليه حياته ، زواج بدايته
 مشرقة ، ودوامه تعب وإرهاق .

وشابان تزوجا بلا مقدمات ، وعند الاندماج أحسا كفاية ورضا وشبعا
وارتواء ، فراح جهما ينمو مع الأيام ، ويكتب قصة زواج سعيد .
فقال سامى :

— لم تحدثنا عن الثقافة الجنسية ، ما دورها فيما ذكرت ؟
— هدف الثقافة الجنسية الصحيحة أن تعلمك التعاون الجنسي ، ألا تأخذ
حقك الجنسي كاملا وتهجر الطرف الآخر قبل أن ينال حظه . إن الأنانية
الجنسية هى سبب تعاسة أغلب الأسرات ، إنها أسس الخيانات الزوجية .
وهناك حالات قليلة تستعصى على الثقافة الجنسية ، ويعبر العامة عن هذه
الحالات بقولهم : « الزواج قسمة » ، و « كل فولة ولها كيال » .
ونفضت وقلت :

— انتهت المحاضرة .
فقام سامى وتشبث بى وهو يقول :
— تعال هنا ، أنا رجل مقبل على زواج ، وهذا كلام مقتضب ، حدثنى فى
إسهاب .

فقلت له وأنا أرنو إلى عقيل مداعبا :
— تعال نتحدث أنا وأنت على انفراد .
فقال عقيل وهو يضحك :
— أريد أن أسمع .
فقلت له وأنا أسير صوب الباب :
— تعال إلى عندما تفكر فى الزواج .
— وأين سأجدك تلك الساعة . هذه فرصة .

وأقبل مصطفى وهو يضع « فوطة » على رأسه ، فقلت له :

— نعيما .

— إلى أين أنت ذاهب ؟

— أحدث سامى عن الزواج قبل أن يتزوج ، انتظرى هنا فقد أحتاج إليك

فى تطبيق بعض النظريات .

فصاح وهو يقهقه :

— يا خبيث .

وجذبنى سامى من يدى لنخرج من الغرفة ، فالتفت إلى مجدى وقلت له :

— تثقف وعد إلى زوجتك بعقلية جديدة ، بنت الشام خير لك من بنت

الخان .

وتناول وسادة وقذفنى بها ، ولكنى كنت قد خرجت وأغلقت الباب

خلفى .

وانطلقنا أنا وسامى وعقيل إلى أريكة فى غرفة الاستقبال ، وجلسنا

نتسامر ، وطفقت أشرح كل شىء فى تفصيل ، وقد هالنى أن الشابين اللذين

أشرفا على الثلاثين لا يعرفان شيئا عن الجنس .

عرف سامى المرأة فى لبنان وفى مصر وفى أوروبا ، وكانت معرفة خاطئة ،

فما امتزج إلا بينات الهوى ، وويل للمرأة التى يعاملها زوجها معاملة خفافيش

الليل !

ومرت ساعات والحديث يجر بعضه بعضا ، وحن ميعاد خروجنا إلى وليمة

من الولايم فهضنا للنصرف ، وقال عقيل وهو يضحك :

— والله لقد حيرتنى ؟! أأنت خبير اقتصادى ، أم خبير فى الدين ، أم خبير

فى التاريخ ، أم خبر فى الجنس ؟

فقلت له :

— أصدقك القول إنى لست خبيرا فى شىء ، كل ما فى الأمر أننى هاوى

معرفة .

وانطلقنا .

٢٠

انتهى جرى النهار وزيارة المصانع والمصارف وتبادل المذكرات ، وأخذنا نتأهب لليل ، فقد كانت أول ليلة فى كراتشى تترك لنا دون دعوة رسمية ، وكثير الحمس بين الرفاق ، وراح هذا ينتقل إلى غرفة ذاك ، وخطر لى أن أصعد إلى غرفة ممدوح لأسأل عنه فقد امتنع عن الغداء معنا لأنه أحس توقعنا ، ولكننى آثرت أن أتريث حتى يتم الزملاء تدبيرهم ، وحتى لا أعكر عليهم صفو الأمانى والأحلام .

وخرجت من غرفتى وأنا أرتدى الثوب الصوفى الفضفاض ، وأضع على رأسى الغطرة والشطاف ، فما كنت أستطيع أن أسير عارى الرأس حتى لا أخرق التقاليد وأثير غضب سامى .

لمحت فهد بن عبد الرحمن جالسا فى غرفة الاستقبال وحده ، فألقيت عليه السلام ، ثم اتجهت إلى الباب المؤدى إلى الحديقة الواسعة فقال لى فهد :

— إلى أين ؟

— أسير قليلا فى الحديقة ، بدأت أحس الكسل يدب فى أوصالى من عدم

المشى .

— انتظر . سأسير معك .

وهبطنا بعض درجات ورحنا نجوس خلال الحديقة ، ثم قلت :

— هذا المشى لا جدوى منه ، تعال نمشى مشية عسكرية .

وشددت وسطى ورفعت رأسى ، وفعل فهد مثلما فعلت ، وسرنا نهز

أيدينا فى قوة وأنا أنادى :

— واحد .. اثنان .. واحد .. اثنان .

وبلغنا نهاية الحديقة فصحت فى قوة :

— خلفا در .

ودرنا على أعقابنا ، وسرنا فى خطوات عسكرية وأكلمى الواسعة ترفرف

فى الهواء ، ومشلح فهد ينتفخ كالبالونة ، وبلغنا نهاية الحديقة من جهة الباب

الواقف عنده الحارس فإذا بأحد الجنود يرصد حركاتنا وهو يبتسم ، ولم

ألتفت إليه وصحت :

— خلفا در .

ودرنا وسرنا ، وما وصلنا إلى الباب الذى هبطنا منه حتى وجدنا صديق

فهد واقفا عنده يرمقنا وهو يبتسم ، ثم قال :

— ماذا تفعلان ؟

فقلت له دون أن أتوقف :

— إننا نتمشى ، تعال . واحد .. اثنان .. واحد .. اثنان .

وصاح فهد به :

— تعال يا حسان .

وخف حسان إلينا واشترك معنا فى سيرنا ، وقد أحسست فى تلك الساعة
أننى لا زلت طالبا فى القسم المخصوص ، ونسيت اللحية التى تزين وجهى
والشعر الأبيض الذى تسلل إليها فى غفلة منى .
وسرعان ما اختلت خطواتنا ، فقلت لهما ما قاله المسيح لحواريه فى العشاء
الآخر :

— الروح قوى أما الجسم فضعيف .

وعدنا إلى الغرفة ونحن نتحدث ، قال فهد :

— أين تذهب الليلة ؟

— إلى السينما .

فقال حسان :

— وأنا معك .

وقال فهد :

— لا أظن أن أحدا منهم يسره أن يمضى الليلة معنا فى السينما .

فقلت لهما :

— انتظرانى هنا حتى أعود ممدوح وأسأله إن كان يأتى معنا .

وصعدت إلى غرفة ممدوح وطرقت الباب فلم يجب أحد ، فأدريت مقبضه
ودفعته فى رفق ونظرت فألفيت الغرفة خالية ، ولكن مس أذن صوت ارتطام
الماء بالأرض ، لقد كان هناك فى الحمام .

ووقع بصرى على بقايا طعام وقشر موز ، فإذا بصورة التابعة تقفز إلى
ذهنى ، كان ممدوح من نفس طرازها ، يأكل خفية ويدعى أمام الناس أنه لا
يأكل وأن لا شهية عنده ، حتى يتقى الحسد .

(وكان مساء)

يا طالما قاسيت من التابعة ؛ كانت تنساب إلى الجيران وتحدثهم عن الثواب الذى أعده الله للمحسنين ، وتظل تزين لهم الإنفاق حتى يعطوها مما عندهم أو يدسوا فى يدها ورقة من فئة الريال أو بعض أوراق وهى تتمنع تمنع الرغبات ، ثم تطبق يدها على ما بها وهى تؤكد أنها لا تأخذ شيئا لنفسها بل تنفقه فى سبيل الله !

وكانت تكس الخيرات تحت سريرها ، كان فى صندوقها موز وتفاح وبرتقال وسمك ولحم محمر وبطاطس وحلوى من صنع الشام ، وكانت تقوم فى الليل تأكل مما جمعت . فإذا ما أصبح الصباح وقدمنا لها الإفطار أقسمت أغلظ الأيمان أنها لا تأكل وأنها تعيش على الكفاف ، ثم تقول : أسألو فلانة وفلانة وفلانة .

وكانت تنطلق إلى الطريق وتخبر كل من يقابلها أنها لا تأكل ، وأن الله أنعم عليها بنعمة القناعة ، وكانت فى المغرب تغلق بابها عليها لتصلى فتهتبل هذه الفرصة وتخف إلى ما تحت السرير وتملأ بطنها ، فإذا حان وقت العشاء ووضعنا أمامها الطعام تعيده إلى المطبخ وهى تقسم بالله العظيم أنها لن تأكل ، وتستمر فى حديثها عن عدم رغبتها فى الأكل ، وعن القناعة التى أنعم الله عليها بها بصوت عال ليبلغ حديثها آذان الجيران جميعا .

اكتشفت الساعة أن ممدوحا من طرازها ، ولكن ممدوحا يشتري ما يأكله بعيدا عن أنظار زملائه ، أما هى فتحتال على الجيران حتى يعطوها رهبة من لسانها أو رغبة فى الثواب الذى تجيد الحديث عنه . كنت أظن حتى اللحظة أن التابعة نسيج وحدها ، فإذا بها نموذج لأمة من الناس !

ودنوت من الحمام وقد وأدت فكرة السؤال عن صحته فإن فئات المائدة

أجانبى عن ذلك السؤال ، وناديت :

— ممدوح سندهب أنا وفهد وحسان إلى السيما الليلة ، هل تأتى معنا .
فقال فى عتاب :

— أظن أننى مجنون حتى أمضى ليلة كهذه فى السيما ؟

وفهمت قصده ، وخطر لى أن أسخر منه فقلت له :

— سنصلى العشاء قبل أن نذهب إلى السيما ، فإن شئت أن تصلى العشاء
معنا قبل أن تخرج فتعال .

ولم يظن إلى سخرى بل قال لى فى لطفة :
— بالله لا تصلوا حتى أحضر .

ورحنا نرتدى الثياب الأوروبية ، وحن موعد الصلاة فجاء ممدوح وانتظر
أن أدعوه ليؤمنا ، ولكننى طلبت من فهد أن يقيم الصلاة .
وقضيت الصلاة ، وخرجنا أنا وفهد وحسان إلى السيما ، وانطلق ممدوح
إلى علب الليل ليمضى ليلة حمراء .

انسابت السيارة بنا تسير على الشمال ، ووقفت أمام سيناتين إحداهما
تعرض فىلما أمريكيا والأخرى تعرض فىلما باكستانيا راقصا غنائيا . كنت
أميل إلى مشاهدة الفيلم الباكستانى ، فالتفت من زميل أن نعبر الطريق
لنشاهد صور الفيلم الوطنى .

وهمنا بعبور الطريق فإذا بخطواتنا تضطرب ، اعتدنا أن نعبر
الطرق التى تنطلق فيها السيارات والعجلات والترم على الجانب
الأيمن من الشوارع ، فألفنا أن نلتفت إلى اليسار حتى إذا قطعنا
نصف المسافة التفتنا إلى اليمين لنكشف السيارات المقابلة ونأخذ

حذرنا ، ولكن الأمر كان في الباكستان على عكس ما ألفنا : نلتفت إلى اليمين أولاً ثم إلى اليسار ، فكنا أشبه بالقروى الذى وجد نفسه فجأة في ميدان المحطة !

وضحكنا من أنفسنا ، فقد كادت السيارات تدهمنا أكثر من مرة . وبلغنا السينما وأخذت أتفرس في الصور وأنا أستشعر نفس اللذة التى كنت أحسها أيام كنت تلميذا في المدارس الابتدائية يقف أمام صور الأبطال المعروضة في ساحة سينا أولمبيا .

وأبدى زميلاي رغبتهما في مشاهدة الفيلم الأمريكى الملون ، فعدنا نقطع الطريق في حذر شديد ، وبلغنا شباك التذاكر بسلام فألقيناه مغلقا ، كان العدد كاملا .

وبدأنا في الانسحاب ، ولكن شابا أسمر تقدم إلينا وسألنا عن بغيتنا ، فأخبرته أننا في حاجة إلى ثلاث تذاكر ، فمد يده وأخذ منا الثمن ، ثم سار أمامنا وأجلسنا في ثلاثة مقاعد دون أن يعطينا أية تذكرة .

وعرضت الرواية الأمريكية ، كانت تدور حول لص باكستانى وضابط بوليس إنجليزى ، كان الباكستانى يمثل الخسة والدناءة ، يعشق زوجة أبيه ويعرض الأبرياء من بنى وطنه للقتل باسم الوطنية ليتمكن هو من السرقة ، بينما الضابط البريطانى يمثل الكفاح في سبيل القيام بواجبه الشريف النظيف . وأحنقنى الفيلم الاستعمارى ، وزاد في حنقى أن الشعب الباكستانى يضح بالتصفيق إذا ما كتب على ديكور بوابة « بشاور » أو أى أسم آخر من أسماء المدن الباكستانية .

رأيت بشاور وعشت فيها وتجولت في أنحائها وزرت قلعتها ، ولم أجد أى

شبه بينها وبين ما تخيله المخرج الأمريكى ، ولكن مجرد ذكر اسمها فى فيلم أمريكى ملون كان يثير حماسة الجماهير وفخرهم ، حتى ولو كان الفيلم استعماريا يسيء إليهم ويجرح شعورهم ، والتفت إلى زميلى وقلت له :

— لو كنت الرقيب الباكستانى لحرقته هذا الفيلم .

وقال زميلى فى إنكار :

— لماذا ؟ إنه فيلم لذيذ .

أعجب زميلى بالمثلة العارية وبالحركة فى الفيلم ، ولم ير السم فى الدسم ، ونظر الباكستانيون إلى الفيلم الحبيث نظرة زميلى السطحية ، وأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير ؛ فقد تركت كراتشى وسافرت إلى لاهور ، وحلقت فوق الهند لأصل إلى الباكستان الشرقية ، الجناح الآخر للدولة العجيبة المكونة من جناحين تفصل بينهما دولة الهند ، وهبطت فى بشاور ، وزرت ممر خير ، ثم عدت أدراجى إلى كراتشى ، فألفت الفيلم الاستعمارى لا يزال يعرض .

وخرجت أنا وزميلائى من دار العرض نبحت عن سيارة تحملنا إلى بيت الضيافة ، ولكن لم نعثر على واحدة .

فعرضت عليهما أن نركب حنطورا وأن ننعم بنسيم الليل ، وأسرعت أقفز داخل أول عربة مرت بنا .

وداعب الهواء البارد وجهى فأنعش روحى وأحسست نشوة ، ولما كانت النشوة كالجزن لا بد أن تجد لها متنفسا فقد رفعت عقيرتى بالغناء ، إننى لا أحفظ أية أغنية ، كل ما لصق فى ذهنى أغنية قديمة ، جعلت أرددها طوال حياتى . وجلجل صوتى فى شوارع كراتشى ، وطفقت أصيح فى سكوت الليل : « يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا ، دا نخلتين مع نخلتين يبقم أربعة

سوا » وسرعان ما انضم إلى فهد في الغناء . ولما تعب صوتي وما أسرع ما
يتعب التزمت الصمت ، وأخذ هو يغني أغنية بدوية وحسان يضحك لهمايلنا
ونحن نسند خدينا بكفينا .

إن صوتي قبيح وصوته أفتح من صوتي ومع ذلك امتلأنا غبطة ، وربت
غبطتنا لما أخذنا نشاكس العشاق المتسرلين بالظلام واللائذين بجذوع
الشجر ، كنا كسكاري آخر الليل يضحكننا مجرد عبور دراجة أو مواء قطة .
وبلغنا بيت الضيافة فهبطنا من العربة ، وقبل أن نخطو أية خطوة لحت

سامي فقلت له :

— إلى أين ؟

— جئت أبحث عنك .

— لماذا ؟

— اكتشفنا ملهى بجوار بيت الضيافة .

— أريد أن أنام .

— بالله تأتى معنا ، لا تخف إنها جلسة بريئة .

فقلت له وأنا أسير معه :

— ومن قال لك إننى أخاف ، إننى لا أعتبر العاكف في صومعته عابدا ..

لا بد للإنسان أن يغمس في الحياة وأن يصون نفسه . العبادة الحققة في نظري

هى قدرتك على أن تذكر الله وتسبحه ولو كنت في مأخور .

فقال سامي ضاحكا :

— أين ذلك الذى يذكر الله في ساعة لهوه ؟!

— أذكر أننى حمدت الله مرة وسبحت له وأنا في كباريه .

فقال وهو يضع يده على كتفى :

— أنت عابد مودرن .

فقلت له وأنا أبتسم :

— بل قل : عابد مطبوع .

انطلق فهد وحسان فى طريقهما صوب بيت الضيافة ، وسرنا أنا وسامى إلى الكباريه . كان مبنى على الطراز القديم له بابان : أحدهما لدخول السيارات والآخر لخروجها ، وأمامه ردهة ضيقة تقود إلى سلم جانبى مكون من بضعة درجات .

وصعدنا فى الدرج ، ودلفنا من الباب ، فإذا بفناء واسع أقيم بار على جانبه الأيمن ، وصفت فيه النضد ووضعت الكراسى حولها ، وفى الصدر فرقة موسيقية تعزف ، وترك أمامها مكان مستطيل للراقصين . ومددت بصرى فوجدت منضدة خالية قريبة من مكان الرقص ، فقلت لسامى :

— مكان هذه المنضدة أفضل من المكان الذى تجلسون فيه .

وقال الجرسون فى لهجة مصرية :

— هناك منضدة أحسن .

ورنوت إليه .. إنه يونانى يرتدى بذلة سوداء ، فقلت له على الفور :

— من الإسكندرية ؟

— أجل . مكثت فيها تسع سنين .

فقلت له :

— أيوه .

فقال وهو يلتفت نحو البار :

— أنتم ضيوفنا الليلة .

والتفت إلى حيث كان ينظر ، كانت هناك فتاة عارية الظهر تحتسى كأسا ، إنها من بنات الليل ، وكنا قد وصلنا إلى المنضدة التي أشار إليها ، وخف إلينا عقيل وأحد أصدقائه الذين تعرف بهم في كراتشي ، ووقف الجرسون ينتظر أن أطلب من الصنف الجالس في البار ، ولكنني خيبت ظنه فقد طلبت عصير ليمون .

ووقف شاب أنيق أمام الأوركسترا ، كان يرتدى سموكنج وقد سلطت عليه الأنوار ، وأخرج من جيبه ورق اللعب ، وراح يقوم بعرض رائع على أنغام الموسيقى ، يسط الورق في رشاقة على طول ذراعه ثم يطويه في خفة ، وأخذ في ضغط الأوراق بين كفيه ويسسطها كأنما يعزف على موسيقى اليد ، كان رشيقا في أعباءه ، فراح الناس يصفقون له طويلا .

وعزفت الأوركسترا موسيقى راقصة ، فقام الباكستانيون يرقصون ، كان الرجال يلبسون الملابس الأوروبية ، أما النساء فكان يرتدين الساري ، فكانت بطونهن وظهورهن عارية .

وراح شاب يتأيل ويضم فتاته إليه ، ويلف ويدور في نشوة ، ويحاول أن يقلد نجوم السينما ، واقترب صديق عقيل منا وقال :

— هذا دكتور من أشهر أطباء الباكستان .

فقلت على الفور :

— متخصص في أمراض النساء بلا شك .

فقال الرجل :

— لا . إنه متخصص فى أمراض الأطفال .

— أظن أن النساء يحملن أطفالهن إليه لمهارته فى الرقص .

فقال الرجل مدافعا عنه :

— لا ، إنه ماهر فى علاج الأطفال ، إن زوجتى تفضله على جميع الأطباء .

والتزمت الصمت ، وحمدت الله أن الرجل لم يفهم غمزى .

وقامت فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، مشرقة الوجه ، فاحمة الشعر ،

ترتدى سروالا طويلا من الحرير عليه ثوب يصل إلى مانت تحت الركبة ، كانت

نامية ، ناهدة الصدر ، يزيدها جمال الشباب فتنة ورواء ، واتجهت إلى حلقة

الرقص وراحت تراقص شيخا . كانت حركاتها تترجم عن الثورة الجامحة

المتأججة فى الحشايا .

وأنقل شبابها بالعدوى إلى الشيخ ، وخفت حركاته وترقق ماء الحياة فى

وجهه ، وأشعلت حركاتها نار الحرمان بين ضلوع زملائى . فأخذوا يتأوهون

وقد التمعت عيونهم ببريق الشهوة .

ونفضت لأنصرف ، فتشبث بى سامى وقال :

— انتظر .

— أريد أن أنام .

— كيف تنام وتترك هذه المتعة ؟

فقلت له :

— المتعة شئ نسبى ، قد يكون هذا الرقص متعة للمراهقين من أمثالكم ،

وقد يكون النوم اللذة الكاملة لكهل مثل .

وغادرت الملهى وأنا أتائب .

٢١

أن أوان أن يكشف لي مصطفى سريره ، وأن يروي قصته التي تنغص عليه حياته . كانت آخر ليلة لنا في كراتشي ، وكنا نجمع حوائجنا لتأهب للسفر إلى لاهور ، وراح مصطفى يطيل النظر إلى وجهه في المرأة ، ورأيت أن أستحبه على جمع ملابسه المبعثرة في كل مكان فصحت به :

— دع المرأة يالكع .

فقال وهو يمرر يده على وجهه :

— حقا أن بشرقي ناعمة ؟

فقلت وأنا أضحك :

— ناعمة يا عبد !

والتفت إلى وهو ساهم ، واربد وجهه ، وفطنت في مثل لمح البصر أنني أصبت منه مقتلا . وارتبكت برهة ، وهممت أن أعالج جرح نفسه الذي نكأته ، ولكنه قال في صوت كأنه منبعث من مكان سحيق :

— هل تعرف أنهم باعوني بيع العبيد ؟

فقلت في صوت خافت :

— لا .

فقال وهو يتجه إلى حافة السرير ليجلس ويسرد على قصته :

— باعوني أنا وأمي .

وصمت قليلا كأنما يستجمع شتات أفكاره ، وقال :

— كانت العادة في البيوتات الكبيرة إذا بلغ الشاب الحلم زوجه جارية ليصونوه ، فإذا ما بلغ مبلغ الرجال زوجه من فتاة من أسرة تتكافأ مع أسرته ، وتبقى الزوجة الأولى في البيت تدير شئونه وتسهر على أبناء زوجها من زوجته الثانية .

كان جدى من سراة مكة ، فلما بلغ أبى الرابعة عشرة من عمره زوجه من أمى ، كانت جارية ، وقد تحررت بهذا الزواج وإن ظلت أمة وفية لزوجها . وتقضت سنوات الزواج الأولى في سعادة : شباب وفراغ وغنى ، وقد ربت تلك السعادة لما أنجبتنى أمى .

قصت على أمى أن أبى كان يحملنى ويضمنى ويقبلنى وهو يدور بى في أرجاء البيت الواسع ، ولا غرو فقد كنت أول ثمرة من ثمار رجولته . وتقضت أيام هناء أمى سريعا ، بلغ أبى مبلغ الرجال ، وكان عليه أن يختار زوجة أخرى ، أو بمعنى أصح كان على أهله أن يزوجه من فتاة من أسرة تتكافأ مع أسرته .

كانت أمى تعلم أن هذا كائن يوما ما ، وكانت منذ أول لحظة ساقوها إلى أبى على يقين من أن حياتها الزوجية الحققة لن تدوم إلا بضعة سنوات ، وعلى الرغم من كل ذلك أخذ الحزن ينهش جوفها ، كانت امرأة تجد زوجها الذى تفتح له قلبها وحملت فى أحشائها ابنه الأول ، يتسرب من يديها . وقررت أمى أن تضحى بسعادتها فى سبيل الرجل الذى أحبته ، أن تعيش على ذكريات الأيام الحبيبة ، وأن تمضغ فى صمت أحزانها ، وأن تخمد النار المتأججة فى جوفها ، وأن تفتح قلبها لغريمها من أجل أبى .

وذات يوم أطلقت الزغاريد في بيتنا وجاء الطهاة وأضيئت الأنوار ،
ووفدت النساء في ثياب براقة ، وقامت راقصة بينهن تعرض فنونها ، بينا جاء
الرجال أفواجا يتناولون الطعام حول السماط الطويل .
كان الأولاد يجرون هنا وهناك فرحين ، وكنت أشاركهم في لعبهم وأنا
مسرور ، لا أفكر شيئا ، ولا أدري ما الذي جعل أمي تغلق عليها بابها ، وما دار
بخلدی أن كل هؤلاء الرجال والنساء والصبية والأطفال كانوا يحتفلون بمأتم
عزى !

واستيقظت من نومي ، وتلفت في الغرفة بعيون زائغة ، وعلى الرغم من
صغر سني انقبض صدري .. استشعرت أن شيئا قد تبدل ، ولم أجد أي وقد
اعتدت أن أذهب إلى فراشه كل صباح وأدوس في بطنه وأقف على صدره ،
وإذا اختل توازني ووقعت أتعلق في لحيته وأخذ بها وهو يضحك ويضمني
إليه .

وبكيت ، فخفت أمي إلى وحملتني وضممتني إليها وهي تمرغ وجهها في
ثيائي ، لم تجرؤ على أن تنظر إلى ، كانت تبكي وهي تتوسل إلى أن أكف عن
البكاء ، وارتفع نسيجي فأخذت تدور بي في الغرفة وهي تمنيني الأمانى .
وقلت وعبراني تخنقني :
— أريد أمي .

فقالت وهي تقبلني :

— ذهب إلى الدكان وسيعود .

وتبخر قلقي وذهبت ألعب في البيت ، فوجدت امرأة غريبة بيضاء حسبها
ضييفة ما تلبث أن تعود إلى دارها ، ولكنها بقيت في بيتنا ، وأحسست بغريزتي

أن سلطانها فيه يفوق سلطان أمى .
 وكنت أقابل أبى ، ولكنه لم يعد ذلك الذى أففى على صدره وأجذب
 لحيته ، أصبح يتركنى وأمى وحدنا فى غرفتنا وقلما يطوف بنا ، ولم أفطن إلى
 سبب تلك الجفوة وإن استشعرت مرارتها فى أعماقى .
 وشغلت عن كل ما حولى بنفسى ، كان كل شىء فى الحياة جديدا على ،
 فكنت أحاول أن أكشف أسرار الكون ، وأنا أعرف البيئة التى أعيش فيها ؛
 الحارة والطريق إلى الحرم ، والطريق من الحرم إلى الدكان ، وأجناس الناس
 الذين يفدون إلى مكة ويطوفون حول الكعبة .
 وحدث حادث عظيم فى بيتنا أقيمت له الأفراح ؛ لقد أنجبت زوجة أبى
 ولدا ، ولم أقدر أثر ذلك الحادث إلا فيما أقبل من الأيام .. فرحت يومها مع
 الفرخين ، ولعبت مع اللاعبين ، وسعدت يومها بأبى بما لم أسعده منذ جاءت
 إلى بيتنا المرأة البيضاء .
 كان أبى مغتبطا تأتلق البشاشة فى وجهه ، وقد أجلسنى يومها فى حجره
 وطفق يداعبنى حتى إننى رحت أجذب لحيته فى فرح وابتهاج .
 وراحت أمى تحمل الوليد وترعاه ، وكانت تضعه فى حجرى أحيانا ،
 وتقول لى إنه أخى ، وتوصينى بحبه ، وكنت أعجب لأخى هذا فقد كان أبيض
 البشرة ، بينما كانت بشرتى سمراء !
 وضعت أمى بنتا ، جاءت سمراء مثلى ، فكنت أحن إليها أكثر من حنينى إلى
 أخى الأبيض . كنت أناغيها الساعات الطويلة دون أن أسأم ، وإذا بكت
 أحاول أن أسكتها ، أما إذا بكى أخى الأبيض فقد كنت أقمس من أمى أن تعيده
 إلى المرأة الأخرى .

ومرت سنوات وأنا ألعب مع أختي وأخوي الأبيضين ، فقد وضعت زوجة أوى ولدا آخر . وفى ذات يوم بينا كنا نلعب تكشفت ما تكنه قلوب النساء .

جاء أوى الأبيض وفى يده إبرة ، وغرسها فى عيني أختي ، وصرخت أختي فى فرع ، فخفت إلينا أمى ، وحملت البنت وهى تقول لأوى فى غضب :
— ماذا فعلت ؟

فقال الولد فى خوف :

— فعلت ما قالت لى أمى أن أفعله .

ولطف الله بأختي فلم تصب عنها بسوء ، ولكن أمى كشفت البغضاء . كانت غريمتها بيضاء البشرة ولكن قلبها أسود من الليل البهيم . وسهرت عين أمى علينا ، ولم تكن تتركنا لحظة ، باتت تخشى مكائد زوجة أوى ، وأمست تتوقع أن تدس لنا السم وترتاح منا .

كنا من سراة مكة فكنا نمضى الصيف فى الطائف . وفى ذات يوم من أيام الصيف بينا كنا أنا وأمى وحدنا فى البيت ، أغارت جنود من نجد على الطائف ؛ كان عبد العزيز آل سعود قد استولى على البلاد ، ولم يكن فى حوزة الشريف حسين إلا الطائف ومكة وجدة ، ودهم الطائف عسكر عبد العزيز ، ولم نشعر إلا بالرجال فى الدار . وفزعت أمى وحاولت الفرار ، ولكنهم قبضوا عليها وساقوها أمامهم ، وهرعت إليها وأنا أصرخ أتشبث بها . وانطلقنا فى الصحراء وأنا أقول إننا لسنا عبيدا ، وأذكر اسم أوى ، ولكنهم وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وانسابوا بنا صوب الجهول .

وبلغنا سوقا لبيع العبيد ، ففصلوا بينى وبين أمى وعرضوا أمى للبيع .

فصرخت وتملصت من قبضة الرجل الذى أمسك ييدى ، وعدت إلى أمى
وارتميت فى أحضانها ، وحاولوا أن ينزعونى منها دون جدوى ، وأخيرا قر
قرارهم على أن يبيعونا معا .

وباعونا بدراهم معدودة وأمى تطيب خاطرى وتطلب منى أن ندع
مقاليدنا لله ، وحملنا مولانا الجديد وذهب .

ولم تطل عبوديتنا .. بلغ أبى كل ما حدث فذهب إلى الملك ، ودارت بينهما
مفاوضات انتهت بأن يسلم أبى مكة دون قتال ، على أن يعيدنى الملك أنا وأمى
إلى أبى . وهكذا سقطت عاصمة الحجاز .

وعدت أنا وأمى إلى البيت ، واجتمعنا بأختى الصغيرة التى ما إن رأتنا حتى
انخرطت فى البكاء ، وبكىنا جميعا من فرط الفرح .

واشتد حرص أمى علينا بعد ما كابدناه من هوان ، وعشنا مع زوجة أبى
تحت سقف واحد ؛ كنا معسكرين متباغضين ، يعيش كل منا مفتوح العين
يخشى غدر المعسكر الآخر ، وما كان أحد منا بقادر على أن يسفر عن مرض
قلبه خشية بطش أبى ، فقد كان جبارا .

واشتد عودى ، وأنهيته تعليمى ، وذهبت إلى الدكان أعاون أبى .
وتفتحت عيناى ، وبدأت شخصيتى تتكون بعد أن بعدت عن مجال تأثير
أمى ، وفكرت فى حالنا فوجدت أن الوفاق بينى وبين إخوتى البيض هو حجر
الزاوية فى بناء أسرنا ، إذا صلب هذا الحجر استطعنا أن نقيم صرح الأسرة
شامخا . فوطنت العزم على أن أقرب أخوى منى ، وأن أسبل عليهما عطفى ،
وأن أغمرهما بحبى ، فليس فى الحياة ما يستأهل العداوة والبغضاء .

وأغریت أبى أن نوسع تجارتنا وأن نتصل بالعالم الخارجى لنحصل عل

وكالات الشركات الكبرى ، وقبل أبى وسافرت أجوب البلاد ، أو طد أسس
محالنا وأجمع كل ما أستطيع أن أجمعه من ثقافات .

وازدهرت تجارتنا وزادنا الله من فضله ، وصرت قطب الرحي الذى تدور
حواله كل أعمالنا ، وسقط أبى مريضاً وما لبث أن مات .

وهرع أناس إلى يوسوسون فى أذى أن قد حانت فرصتى ، فأنا أكبر
إخوتى ، والعمود الفقرى لأعمالنا ، وأن ما حققناه من أرباح إن هو إلا بعض
جهودي ، وأخذوا يزينون لى الغدر بأبناء زوجة أبى ، ولكننى أوصدت أذى
عن الهمس المسموم ، فقد قررت أن تظل عروة الأسرة وثيقة ولو كان ذلك
على حسابى .

وجمعت إخوتى ، وقلت لهم إننى وإن كنت أكبرهم إلا أننى أدع لهم أن
يقرروا ما يرون ، وأنا قابل كل ما يحكمون به .

وتقضت أيام وهم يتشاورون ، ثم جاءوا إلى وعرضوا على ما استقر عليه
رأيهم ، وقبلت فى الحال على الرغم من أنهم جاروا على ، وكان جورهم بينا .
فضلت أن يقول الناس ظلم من أن يقولوا ظلمهم ابن الجارية .

وصمت قليلا ، ولا ح فى وجهه أنه قد بذل جهدا فى نطق جملته الأخيرة ..
أراد بنطقها أن يقنعنى أنه لا ينجل من أصله ، ولكن كل جارحة فيه كانت تعبر
عن الألم الدفين الذى يقاسيه .

ونفض وذهب يجمع حوائجه المبعثرة وهو يقول :

— إننى أحمد الله أننا الآن عصابة .

وفتح حقيبته وأخذ يلقي فيها ثيابه ، ومرت فترة من الصمت ثم قال :

— إننى لا أستطيع أن أنسى أنهم باعونى فى سوق العبيد .

وأردت أن أنزعه من ماضيه الذى يعيش فيه ، فقلت له :
 — أسرع .. هيا .. دنا موعد رحيلنا ، بنات البنجاب ينتظرنك محمولات
 الشعر باسطات لك أذرعهن البضة .

فقال وهو يتنسم :

— هل رأيتهن ؟

— سمعت عن جمالهن .

فقال فى زهو :

— ليس من سمع كمن رأى .

فقلت له :

— رأيته فقط ؟

فقال وهو يقهقه فى سرور :

— يا خبيث .

وقفزت إلى حقيقته أصف ثيابه فيها ، وأعاونه على إغلاقها وأنا أقول له :

— إلى لابسات السارى ، ذوات الشعر السبط الأسود الفاحم والعيون

النجل والبطون العارية .

فقال وهو يتنسم :

— خيال منسرخ يصف قبل أن يرى .

— لقد رأيته الجمال الباكستانى فى كراتشى ، ولا أحسب أن الجمال فى

لاهور يختلف عنه هنا .

— شتان بين جمال وجمال . غذا ترى .

فقلت وأنا أحمل حقيبتى :

— إذن مرحبا بالغد .

— ١٤٦ —

— من يسمعك ولا يعرفك يحسب أنك زير نساء .
 — غدا ستري .
 فقال وهو يحمل حقيته :
 — ماذا نويت أن تفعل غدا ؟
 — كل شيء .
 فقال في إنكار :
 — كل شيء .
 فقلت له في عزم :
 — كل شيء ما عدا الوصال .
 وأصلحت مشلحي على كتفي وانطلقنا .

٢٢

انسابت السيارة في الطريق الذى يشق الصحراء ويؤدى إلى المطار . وكان الليل قد أسدل ستائره على أكواخ اللاجئين المبعثرة هنا وهناك ، فغيب في جوفه مآسى البشرية النكراء .
 وراحت الكشافات تبدد أمواج الظلام وتفرش أمام السيارات بساطا من الضوء ، كلما انطوى منه جزء انبسط جزء جديد بمقدار ما انطوى ، وظلت سيارتنا تعدو في إثر الضوء ككلب السباق الذى يعدو خلف الأرنب ولا يلحق بها .
 ونظرت من نافذة السيارة إلى السماء الصافية الزرقاء فألفيت النجوم تتلأأ في كبدها ، وأدمت النظر ، فنجوم السماء وشروق الشمس وغروبها

كل أولئك يهز مشاعري ويجعلنى أنداح فى الكون العريض .
ولاحظ سامى شرودى فقال لى :

— فيم تفكر ؟

— أقلب وجهى فى السماء .

— تبحث عماذا ؟

— عن النجم القطبى . هل تعرف موقعه ؟

— لا والله .

فقلت فى حماسة :

— أتمنى أن أعيش فى الصحراء وأن أهتدى بالنجوم ، وأن أعرف كل نجم وموقعه ورسالته التى يؤدّيها ، وأن تتوطد بينى وبين النجوم أواصر الصداقة .
فضحك عقيل وقال :

— أنا بدوى وعشت فى الخلاء طويلا وأعرف منازل النجوم ، ولكن لم ترتبط بينى وبينها أية صداقة ، وما كنت أظن قبل الآن أن الصداقات يمكن أن تتوطد بين البشر والبحار والنجوم والصحارى .

فقلت له فى هدوء :

— هذه الصداقات دليل رحابة القلب ، وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذه الصداقات خير تعبير بقوله : « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

فقال عقيل فى زهو :

— هذا قول جدى .

— إنه شرف عظيم أن تكون من نسل النبى ، ولكن هذا وحده لا يكفى .

— إنك تصلى وتسلم علينا فى صلاتك ، نحن آل محمد .

— أعتقد أننا نصلى على آل محمد الصالحين الأبرار . وأحب أن أذكرك أن

الإسلام قد جاء ليقضى على العصبية والجاهلية الأولى ، وأن الرسول هو القائل : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، وعلى ذلك فليس لك أى فضل على أذى مسلم إلا بالعمل الصالح ، ولو كنت من نسل الرسول حقا . فقال فى حماسة :

— إننى من نسل النبى فأنا من الأسرة الهاشمية ، وعندنا شجرة النسب . فقلت له فى بساطة :

— إن شجرة النسب تباع فى مصر بعشرين قرشا لكل من يريد أن يربط الأسباب بينه وبين النبى ، وأظن أنك تذكر أن فاروقا وجد له مكانا فى الدوحة الشريفة .

فقال فى انفعال :

— لن أجادلك بعد الآن .

— لماذا ؟ هل تجاوزت حدودى فى النقاش ؟

— لا . ولكنك تحطم دائما كل ما تريد أن تحطمه .

— والله إني لا أبغى إلا الحقيقة وإلا وضع الأمور فى نصابها ، فإن بدوت

عنيفا أحيانا فأرجو أن يكون حسن قصدى شفيعى .

وساد بيننا صمت ثقيل لم يقطعه إلا بلوغ السيارات المطار ، فرحنا نغادرها

ونسير فى الطرقات الطويلة ونحن نتبخر وقد صوبت إلينا العيون ، حتى

احتوتنا غرفة الاستقبال .

ونودى علينا لتوجه إلى الطائرة ، فتحسست حلقتى الشطاف ووضعت

أطراف غطرتى الحمراء تحت المشلع ، فقد قيل لى أن ترك الغطرة متهدلة فوق

المشلع يمس كبرياء التقاليد ، ولما اطمأنت إلى هندامى سرت إلى الطائرة

كالطاووس .

وصعدت في الدرج ، وتعثرت في أطراف مشلحي فضمته إلى ورفعته حتى تعرت ساقاي ، وتلفت خلفي خشية أن يلمحني سامي فيسرع إلى غاضبا ويردني إلى الطريق المستقيم ، ولكن سامي كان قد غاب في بطن الطائرة ، فعرجت إلى أعلى السلم وأنا مرتاح الضمير .

كانت المضيفة واقفة عند باب الطائرة ترحب بنا ، كانت ترتدي سروالا أبيض فوقه قميص أخضر طويل وعلى رأسها كاب أخضر ، كانت بيضاء البشرة كستنائية الشعر يزين وجهها عINAN خضراوان كعيون القطط ، وقد رحبت بمقدمي بابتسامة عريضة فضحت طرف سنتها الأمامية المكسور ، وأحنت رأسها لي في أدب بالغ وتوقير عظيم .

وتقدمت إلى مقعدى شاخ الأنف مزهوا بنفسى ، أنقل قدمي في خيلاء . وعجبت لأمرى ، وفكرت ثانية في مصدر ذلك الكبر فإذا بي أتذكر ما حدث لأmir المؤمنين عمر بن الخطاب يوم ذهب لتسلم مفاتيح البيت المقدس ، فقد أغراه قواده أن يخلع مرقعته وأن يركب برذونا مطهما ، وما إن انطلق على ظهر البرذون في ثوبه الفاخر الجديد حتى استشعر كبرا يملؤه ، فصاح في قواده : — ثكلتكم أمهاتكم ، دخلني العجب ، مرقعتى .. مرقعتى .

وخطر لي أن أصبح في رفقائي كما صاح عمر وأن أتمس ثيابي البسيطة ، وأن أحلق اللحية والشارب ، ولكنني غصت في مقعدى ورحت أعبت في الحيتى ، وأطلق لخيالى العنان يخوض في الماضى السحيق ويقفز إلى الحاضر ويتطلع إلى المستقبل يطوف بدول شرقية وغربية ، ويجمع بين المتناقضات يتذكر ويتكرر ويؤيد ويعارض ويحبذ وينتقد ، كل ذلك في لحظة من اللحظات أو في ثانية أو بضع ثوان . إن نوح الإنسان لأعجب ما في هذا الوجود .

وأغلق باب الطائرة ودرجت على أرض المطار ، وجاءت المضيفة ومالت

علّى ومدت يدها تبحث عن شيء في طيات ثيابى ، ورفعت بصرى إليها فقالت في رقة :

— الحزام .

— ربطته .

وأزلت المشلح عن بطنى فظهر الحزام تحته ، فابتسمت المضيفة وكانت البسمة في عينيها الخضراوين أروع منها على شفتيها .

وسارت بين صفى المقاعد تتأكد من أن الركاب جميعا قد ربطوا أحزمتهم ، وتتبعها ببصرى ، كان خصصها دقيقا غاية الدقة حتى إننى أشفت عليه من ثقل الأرداف الممتلئة ، وكان صدرها بارزا ، وكان نهدها يصرحان أن الفضل لقوامه لما استحدثته بيوت الأزياء من وسائل توحى للخيال بأشياء لا وجود لها . إنها سراب الجمال يحسبه الظمان الحما فإذا جاءه وجده أسلاكاً أو شرائح من الخيزران شد عليها قماش من الحرير الغالى .

وارتفعت الطائرة في الجو ، وأسرعت المضيفة إلّى تصب في كفى « الكولونيا » وتقدم إلى بعض أقراص النعناع ، وعيناها تتحدثان إلى حديثا شهيا أحلى من حديث الشفاه .

وابتعدت عنى قليلا ، وأخذت أقنع نفسى أن غرورى وخيالى هما اللذان أوحيا إلى حديث العيون ، وأنها فتاة تؤدى عملها وترحب بضيوفها جميعا على السواء ، ولكن إحساسا خفيا همس في أغوارى أن نظراتها تحمل معانى أعمق مما تحمله نظرات الترحيب العادية ، إن فيها نداء صريحا لا يمكن أن تتغاضى عنه أجهزة الاستقبال في الإنسان .

ومددت يدى لأضغط على اليد التى تحرك المقعد لأضطجع ، فإذا بالمضيفة الفارعة تسرع إلّى فى خفة وتضغط على اليد ، حتى إذا ما مال المسند أملتني

في حنان وقد دنا صدرها من صدرى ، ثم مدت يدها وجلبت وسادة من على الرف وضعتها تحت رأسى .

وجلست القرفصاء وأخرجت من تحت مقعدى وصلة تضاف إلى المقعد لأبسط رجلى فوقها ويصبح المقعد سريرا ، وأخذت تضع الوصلة في مكانها ، ثم رفعت رجلى في رفق وأراحتها فوقها .

وأحضرت من فوق الرف بطانية أنيقة غطتني بها ، وطفقت عيناها ترويان قصة ، وكانت الجملة الوحيدة التى نطقتها :

— أية خدمة أخرى ؟

— شكرا .

وانبثقت في أعماق مشاعر لذيدة ، وأرضى غرورى أن لا يزال في على الرغم من الشعرات البيض المتسللة إلى لحتى ما يجذب شابة جميلة أمامها عشرات الرجال لتختار .

كان مقعدى بالقرب من الباب الذى وضع عنده ثلاثة الطائفة والبوفيه ، فكانت تمر على فى غدوها ورواحها ، تحدثنى بجوارحها وإن أطبقت شفيتها لا تنبس بكلمة ، وكانت العينان الخضراوان أفصح جوارحها جميعا .

ووقفت بالقرب منى ، وقد أطفئت الأنوار ولم يبق إلا نور خافت يساعد على انسراح الخيال وتضخم الأوهام ، وظلت ترمقنى ونخرضنى على أن أدعوها .

وطلبت كوب ماء فما أسرع أن جاءت به ، وقلت لها وأنا أتناول الكوب :

— من أين ؟

— من لاهور .

— حقا إنها مدينة الجمال .

و لم تشأ أن تضيق وقتها في غزل لا طائل تحته ووجهت نفسها وجهتها التي تبغيها ، تعلمت من طول ركوب الطائرات أن الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين ، وأن الطائرة إذا وضعت في الاتجاه الصحيح فإنها تبلغ محطة الوصول ، فقالت :

— إنكم أغنياء . أغنياء جدا . عندكم دولارات كثيرة .

وفهمت كل شيء ، وانهارت أوهامي كما تنهار قصور الحلوى إذا سلطت عليها حرارة النار ، لم تجد في ما يجذب فتاة جميلة مثلها ، إنها باحثة عن الذهب ، وإن الباحث عن الذهب لا تتقرز نفسه لو غاص في الأوحال ما دامت تلك الأوحال تقوده إلى منجمه .

وغشيتني موجة خفيفة من الحزن ولكن سرعان ما انحسرت ، بعد أن غسلت صدري وأزالت الغشاوة الكاذبة عن عيني .
وقلت لها :

— حقا إننا أغنياء . أغنياء جدا . الدولارات عندنا تملأ الطرقات .

وأشرق وجهها والتمعت عيناها بهريق الطمع ، وفي مثل لمح البصر خطر لي أن أوجه اهتمامها إلى مصطفى ، لعل عطفها عليه الذي لن يعرف سببه ، يزيل رواسب مرارة التفرقة التي ركدت في أغوار وجدانه السنين الطوال .

زهدت في عطفها الزائف وعافته نفسي ، ولكنني عقدت العزم على أن أوجه وجهه صالحة . ورن في أغوارى صوت يردد : « قليل من الخمر يصلح المعدة » ، ولم أفطن إلى العلاقة بين ما تردد في نفسي وبين ما أنا مقبل عليه ، وكثيرا ما أشغل نفسي بتحليل الدوافع التي تجعل مثل هذه العبارات ترن في أغوارى في أوقات دقيقة ، وغالبا ما أجد رابطة بين حقيقة مشاعري وتلك الأقوال التي تنبت فجأة في ضميري دون أن أحس أن فكري يفكر فيها ، رابطة

— ١٥٣ —

قد تكون أوهى من خيط العنكبوت ، ولكنى لم أجد فسحة من الوقت لأنسق
عواطفى وأنقب عن الرابطة التى تربط بينها وبين الخمر القليل الذى يصلح
المعدة ، وقلت للمضيفة فى همس :

— أريد أن أفضى إليك بسر .

وشعرت أن حواسها جميعا قد أرهفت ، فقلت لها :

— إننى لم أر دولارا واحدا فى حياتى .

واتسعت عينها دهشة ، وقبل أن تفيق من وقع المفاجأة قلت لها وأنا أشير

إلى نفسى :

— وهذا الرجل المائل أمامك لم يولد الا من عشرة أيام .

وتبدلت نظرتها إلى .. لاح فيها خوف .. ظنت أننى مجنون ، فولدت فى

صدرى بسمة لم ترسم على شفتى ، وقالت وهى تبتعد قليلا عنى :

— إننى لا أفهم شيئا .. هذا لغز .

— ما أيسر حله .

— كيف ؟

فقلت وأنا أعتدل فى مقعدى :

— إنى لست سعوديا ، أنا مصرى لم ير الدولار يوما ، وهذه اللحية وهذه

الثياب عمرها عشرة أيام .

— ولماذا أطلقت لحيتك وارتديت الثياب العربية ؟

— لأننى تابع لهذه البعثة ، فعلى أن أرتدى ما ترتديه ، أنا رجل فقير .

فقلت فى أسف :

— حسبك أميرا سعوديا .

— وما الذى جعلك تتصورين هذا ؟

— طريقة لبسك ومشيتك وحديثك ، إنك تختلف عن الآخرين .
 — هذا حق لأنى لست منهم ، لا أعرف كيف ألبس ولا كيف أمشى
 ولا كيف أتحدث ، لأننى غريب لا لأننى أمير .
 والتمتع عيناها ببريق خبيث سرعان ما خبا ، ففطنت إلى ما ستقوله قبل أن
 تنطق به ، ستستخدمنى أنا الفقير لتكتشف الكنز الدفين بين هؤلاء الرجال
 الغارقين فى الأسرار .

واقتربت منى وقالت :

— من أغنى رجل فى هؤلاء جميعا ؟

ورن فى أعماق ذلك الصوت الذى يرن فجأة دون مقدمات : « قليل من
 العطف يصلح القلب » . كان عقلى يعمل دون أن أدرى ليجد العلاقة بين
 مشاعرى وبين « قليل من الخمر يصلح المعدة » ، وبدأت أنفذ خطتى التى
 رسمها خيالى ووجدانى ، فقلت لها وأنا أشير برأسى إلى مصطفى :

— الرجل الأسمر الراقد هناك .

— لا يبدو أنه عربى . هل هو عربى ؟

— إنه عربى صميم .

— ولكنه أسمر .

— العرب بيض وسمر .. إنه يملك نصف مكة ، جميع الدور التى تطل على
 الكعبة ملكه .

وكان هذا هو القول الفصل ، تركتنى وذهبت إلى حيث يرقد مصطفى
 وغطته فى حنان ، وتعمدت أن يرتطم مرفقها بذراعه التى وضعها تحت
 رأسه ، وفتح عينيه فهست فى سحر :
 — آسفة .

وطار النوم من عيني مصطفى وانفرت شفتاه عن أسنانه البيض ، وقالت
في صوت دافئ :

— عندى شاي ممتاز ، أتحب أن أحضر لك فنجانا ؟

وقال مصطفى فى انشراح :

— إنى أحب الشاى .

ولو عرضت عليه أن يشرب قهوة أو ليمونا أو أى شراب آخر لأقسم لها أنه
شرا به المفضل .

وسارت على أطراف أصابعها . وإن من يراها ولا يعرف خبيئة نفسها
يخسبها تفعل ذلك خشية أن توقظ النوم ، ولكننى فطنت إلى حقيقة السبب ،
فمشيها على أطراف أصابعها يشد جسمها ، ويبرز كل فتنها فى إغراء فتاك .
وتبعها مصطفى بأنظاره ، وقد سال لعبه ، فأخذ يمسح فمه بظهر يده
ويصلح ثيابه ، واعتدل يرقب أوتبها .

وعادت إليه وناولته الشاى ووقفت تناجيه ، لم أسمع الهمس الدائر بينهما
ولكننى لحت إشراق وجه مصطفى وتفتحه على الرغم من الضوء الخافت
السارى فى المكان .

وأخذت تغدو وتروح وتمرى فى ذهابها وجيئتها دون أن تحفل ، خرس
نظراتها وحبست رقيق عواطفها عني ، حتى حقى كراكب عادى سلبته
منى ، لم يخطر على بالها أن تقدم لى ما قدمته لسائر رفاق الذين كانوا معى فى
الطائرة . إننى رجل فقير وحسان هذه الأيام يفرون من الفقراء فرارهن من
الأجرب .

وهبطت الطائرة فى مطار لاهور فخفت إلى مصطفى تعاونه على فك
حزامه ، لم يكفها ما أسبغته عليه من عطف طوال الليل ، حتى راح الرفاق

جميعا يتساءلون عن علة ذلك الود العجيب الذى نبت فجأة ، ولكنهم لم يجدوا جوابا .

ووقفت عند باب الطائرة تودع الهابطين ، ولحت مصطفى قادما ففرست فيه فأذهلنى التبدل الذى طرأ عليه ، بدا لعينى شابا متفتحا يستقبل الحياة باسم الثغر تملأ الآمال العراض صدره ، وترثت لأرصد ما يكون بينهما .
ومد يده يصافحها فمدت يدها البضة وصافحته وضغطت يد اليد الأخرى ، ولم أستطع أن أميز اليد الضاغطة أهى اليد البيضاء الرخصة أم اليد السوداء ؟

وقالت له بعد أن ردت على شكره :

— انتظرنى .. إلى قادمة .

وتقدمت لأهبط ووصلت إلى حيث تقف وقلت :

— رحلة جميلة ومضيئة أجمل .

فقلت فى فتور :

— شكرا .

وأشاحت بوجهها عنى فقد صرت فجأة قذى فى عينها .

وبلغت أرض المطار فوجدت مصطفى منتظرا ، فقلت له :

— هيا .

فقال فى فرح :

— طلبت منى أن أنتظرها .

ولم يمض طويل وقت حتى أقبلت على مصطفى وطلبت منه أن يلتقط لهما

صورة معا . ووقف مصطفى إلى جوارها وقد تفتح كزهرة مسها الندى ،

وسرت فى الطريق وأنا أغمغم :

— الويل للفقراء .

٢٣

راحت السيارات تشق شوارع لاهور الهادئة النظيفة التي غرست على جوانبها الأشجار الوارفة الضخمة ، وقد أطلت من خلف أسوار الدور الفاخرة الأزهار والورود فأفعم الجو برائحة عبق .

وكان مصطفى إلى جوارى في السيارة يتدفق في الحديث ويقص على في نشوة تنفا من مغامراته النسائية ، وهو واثق أنني سأصدق كل ما يقول بعد ما رأيت بعيني رأسى المضيفة تركع ساجدة عند قدميه .

وأطل من النافذة ورأى لاهور بأشجارها وبيوتها الأنيقة وحدائقها الخضراء المزدهرة ، فالتفت إلى وقال :

— لا تذكر لاهور بمدينة عندكم ؟

فقلت على الفور :

— المعادى .

— صدقت .

وظفق بخدشني عن المعادى ، وعن فتاة المعادى التي أحبته والتي كان يذهب معها في سيارته إلى الكازينو ، وعما كان يقول لها وعما كانت تقول له ، كان سعيدا غاية السعادة يكاد يطير من الفرح ، فقد لمست المضيفة روحه لمسة سحرية .

وأردت أن أغرقه في النشوة فقلت له :

— أين ستقابلها ؟

— من ؟

— المتيمة بحبك .

— ما رأيك فيها ؟ جميلة . أليس كذلك ؟

— رائعة ، كان حذبها عليك عجيبا .

— أمضت الليل إلى جوارى تداعبنى وتناجيني .

— سحرتها .

— أعطتني عنوانها ولكننى لن أذهب .

— حرام أن تحطم قلبها .

— أنا رجل أحب أن أشرب وأضحك ولا شيء غير هذا ، وما أظن أن هذا

يرضيها ففى عينها شبق .

— تغاض عما فى عينها .

— يا خبيث .

ووصلت السيارات إلى بيت الضيافة ، ودخلت من الباب الأيسر وسارت فى حديقة رائعة ، ثم وقفت أمام باب الدار الفاخرة ، وهبطنا جميعا ، وخف الزملاء إلى غرفة الاستقبال ، بينا وقفت أدير عيني فى الأزهار والورود والأشجار ، وأملأ رثتى بالهواء ، فأحسست الحياة تدب فى أوصالى ، والربيع الجميل يتسرب إلى روحى .

ودهبنا إلى حجرتنا نستريح ونتأهب لدعوة الغداء ، وبعد أن تمددت فى الفراش قليلا قمت أستحم وأهذب لحتى وشاربى .

وارتديت ثيابى العربية الفاخرة ، وانطلقنا إلى الدعوة ، فلمحت سيدة رائعة الحسن واقفة عند الباب تستقبلنا ، كان شعرها أسود طويلا ، وعيناها واسعتين جدا ، ووجهها مستديرا ، وفمها كأنه خاتم من عقيق ، وبشرتها

بيضاء معتدلة القامة يميل جسمها إلى الامتلاء ، ترتدى السارى الخفها ، وقد كشفت بطنها وجزءا من ظهرها ... كانت فتنة .

وتقدمت منها وصافحتها دون أن أجد في نفسى الجرأة على أن أنظر إليها ، بهر جمالها بصرى حتى لم أقو على فتح عيني . ودلفيت إلى غرفة فاخرة ، فرشت أرضها بسجادة كبيرة رائعة ، وانتثرت فيها الأرائك والمقاعد التى تشهد بخسن ذوق صانعها ، وعلقت على الحوائط لوحات فنية أخاذة . واخترقنا الغرفة فإذا بها تؤدى إلى حديقة واسعة ، نصبت فيها خيمة مخططة من القماش الأحمر والأسود والأبيض قد قامت على أعمدة رفيعة كسيت بالقماش المخطط بالأحمر والأبيض والأسود ، وصفت تحت الخيمة مقاعد وثيرة ، وعلى بعد منها انتثرت مواثد تظللها مظلات البحر الكبيرة ، وجلست الحسان من حول المواثد وقد تطلعن إلينا .

كان الوزير يتألق في ثيابه ، ومجدى خلفه كأنه أسطورة عربية تتحرك ، وسار مصطفى يتلفت ، وانطلقت وأنا مأخوذ ، وبالقرب منى عقيل وسامى وممدوح ، وسار فهد وحسان فى المؤخرة .

ودنا سامى منى وقال :

— هذه روعة .. هذه هى الجنة .

فقلت له وأنا أمد بصرى إلى الحسان :

— وهناك الحور العين .

والتفت الوزير إلينا وقال :

— انتشروا فى المكان ، لا يقف اثنان منكم يتحدثان أحدهما مع الآخر .

وانتشرنا ، وقاد رجل مسن عقيل إلى حيث تجلس الحسان فجلس بينهن وهو غارق فى خجله ، وبدأته إحداهن بالحديث فانطلق لسانه ، وسرعان

ما اشترك مصطفى في الحديث مع رجل يرتدى البدلة وعلى رأسه عمامة زرقاء يرتفع طرفها إلى أعلى كأنه ريشة ، وجلس فهد وحسان إلى أحد التجار وغرقا في العروض والمساومات ؛ أما مجدى فقد خف إلى سيدة هندية بين حاجبيها دائرة حمراء ، وانغمس في الحديث معها ، وجلس ممدوح يتجاذب أطراف الحديث مع رئيس الغرفة التجارية بالمدينة ، وراح سامى نجوس خلال الصفوف يتحدث مع هذا وذاك ، أما أنا فقد وقفت شاردا برهة .

إن ما أراه الساعة ليس غريبا عنى ، رأيته في السينما في الروايات التى تدور حول قصص ألف ليلة وليلة وتخرج بالألوان ، كنت أظن أن هذا العالم من ابتكار المخرجين الأمريكيين ، فإذا بى أجده نابضا بالحياة فى لاهور ، ولكن كان هناك فرق واحد .. كانت حسان لاهور أروع فتنة من حسان هوليوود !

ودنت منى فتاة أمريكية طويلة ترتدى ثوبا أحمر ، فى عينيها جرأة ، وكل لفظة فيها تدل على أنها مرت بتجارب ومغامرات كثيرة ، وأنها على استعداد لأن تخوض أية مغامرة جديدة ، فهى تحس أن الشباب قد بدأ يتسرب من بين يديها ، قالت :

— كيف رأيت لاهور ؟

— جميلة .. رائعة .

— وماذا تفعل فيها ؟

— أكل وأشرب وأنعم بالطبيعة .

فضحكت ونادت على بعض صاحباتها وهى تقول :

— تعالوا انظروا إلى من يأكل ويشرب فقط فى لاهور .

وخفت بعض الفتيات إلينا وهن يضحكن ، وفهمت تعريضها لى ، فقلت متظاهرا بالسذاجة :

— وهل هناك ما يفعله الرجل في لاهور غير هذا ؟
ورنت ضحكات ناعمة حبيبة ، وأحست الأمريكية الخبيثة أنسى
سأستدرجها في الحديث حتى أجعلها أضحوكة ، فقالت لتغير الحديث :
— نزلت في جدة منذ عشر سنين وأمضيت بها أسبوعا ، كان أسبوعا لن
أنساه أبدا ، كنت وقتها طفلة وقد سعدت برفقة محمد وعلى وأحمد ، كانوا
كرماء معي غاية الكرم .

فقلت لها :

— تمتعت بالأكل والشرب والطبيعة .
ورنت إلى رنوة دلال ورفت على شفيتها بسمة ، وتحرك شيطاني فقلت
لها :

— مما لا شك فيه أنك كنت من عشر سنين شابة جميلة .
ففاضت بسمتها وغشيت عينيها موجة من الكدر ، وقالت وهى
تنسحب :

— عن إذنك .

وتنفست الصعداء ، كنت أخشى أن يمضى الوقت كله وأنا أتحدث إلى
الأمريكية الطويلة التى فاتها قطار الشباب .

وأقبلت نحوى امرأة إنجليزية ترتدى ثوبا عنايبا قصيرا ، وعلى كتفها فراء
أسود ، وعلى رأسها قبعة سوداء مزينة بريشة . قد طلت وجهها بطبقة من
الأيض ، وزينت شفاهها وخديها بالأحمر ، ولكن يد التجميل عجزت عن أن
تخفى تجاعيد عنقها والعرق النافر فى رقبتها .

ابتسمت عن أنسان انجليزية صميمة ، وقالت فى دلال الصبايا وهى تخنى
رأسها فى رشاقة مفتعلة :

(وكان مساء)

— كيف حالك ؟

— شكرالك .

ووقفت تحدثني ، وخف مصطفى إلينا ، قالت :

— كيف رأيت لاهور ؟

فقلت في طلاقة :

— مدينة الجمال : ورد في الحدود ، وبنفسج في العيون ... هي ربيع

الطبيعة وربع الشباب .

فقلت وهي تميل برأسها وتتأوه :

— أوه .. أنت شاعر .

فقال مصطفى :

— من كبار شعرائنا .

فقلت وأنا شامخ بأنفي :

— لى قصائد رائعة سار بها الركبان .

ويعلم الله أنني لم أنجح في نظم بيت واحد طوال حياتي ، ولكن المجال كان

يوحى بالكذب . فانطلق الخيال .. قالت لى :

— إنك تتكلم الإنجليزية بطلاقة . أين تعلمتها ؟

— في المملكة ، لم أغادرها أبدا .. في جامعة الرياض .

— رائع .. رائع ..

وسألتنى أن أحدثها عن المملكة ، فرحت أحدثها حديث الخيال ، وصفت

لها الرياض والخبر والدمام وشركة أرامكو ، وما كنت قد رأيت من الجزيرة

العربية إلا جادة ومكة . ولم يستطع مصطفى صبرا على حديثي فانفلت .

وانفردت الإنجليزية بي فتلفتت ثم قالت :

— ١٦٣ —

— كم زوجة لك ؟

قلت في تواضع :

— واحدة .

واستشعرت خيبة أمل فقالت :

— قل الحق .

وانسرح خيالي وانطلق لساني فقلت :

— أربع زوجات من سورية ...

ودار مصطفى دورة ، ووجد أن يعود ليتمتع بالحديث الدائر بيني وبينها ،

فسرعان ما عاد يصيخ سمعه دون أت ينبس بكلمة ، وانطلقت في الخيال :

— وزوجتان من لبنان .

قالت وهي مفتوحة العينين مرهفة الحواس :

— هيه !

— وواحدة من تهامة .. من بلادى .

— هيه !

— غير ما ورثت من جوارى .

وقال مصطفى وهو يضحك :

— الله يلعنك .

ثم هرب وتركنا ثانية وحدنا . ودنت منى وهمست :

— ماذا تلبسون تحت ثيابكم الجميلة هذه ؟

وكشفت عن نفسها ، إنها تشتتني أن تقشرني ، وتخركت غريزة حب

الاستطلاع فيها . وإن أية امرأة لآتمنى أن تتاح لها فرصة إزاحة الستار عن رجل

يملك قطيعا من النساء لتعرف سره . وقلت في بساطة :

- لا شيء .. أقصد لا شيء يختلف عما تلبسون .
- إنك لا تلبس مثلهم ذلك الشيء الطويل .
- ونظرت إلى سراويل مصطفى التي لاح طرفاها من تحت الثوب ، وقلت :
- هذه سراويل طويلة تغطي الساقين إذا لفح الهواء الثوب .
- ولما لا تلبسها ؟
- لأنني لا أحفل أن تتعري ساقاي أو يتكشف أى جزء من جسمي ، قد أكون مريضا بحب الاستعراض .
- وفتحت عينيها وتأوهت ثانية وهي تقول :
- أوه ! يخيّل إلى أنك مثقف ثقافة خاصة .
- فقلت وأنا أخفى ابتسامة ساخرة تريد أن تحتل شفتي :
- إنني ممتاز في الخواص .
- ورنت إلى رنوة طويلة ، وتركت عينيها تتحدثان فاللسان يتعثر وهو يلف ويدور ليلمح إلى بعض ما تستطيع العين أن تفضي به في حرية تامة ، وسادت فترة من الصمت المعبر ثم قالت :
- لا بد أن يدعوك زوجي لتناول الشاي عندنا .
- وتركتني وذهبت إلى زوجها ، وكان إنجليزيا طويلا ممتلئ الجسم مستقيم القامة ، وقد نبئت بعض شعرات بيض في فوديه ، ووقفت تحدّثه برهة ثم عادت في رفقة زوجها وقالت هي تشير إلى :
- إنه رجل هام من رجال الأعمال ، وقد قلت له إن زوجي سيدعوك لتناول الشاي عندنا .
- فقال الرجل وهو يقدم إلى بطاقته :
- يسرني أن تشرفنا غدا لتناول قدحا من الشاي معنا في الخامسة .

— لا أستطيع أن أعد . سأحاول .

وصافحت الرجل ، وصافحت المرأة وهى تمد لى يدها وتلقى برأسها إلى الخلف فى دلال العذارى ، وانصرفت وأنا أدرس البطاقة فى جيبى وإن قررت عدم الذهاب .

وسرت فى الحديقة العجيبة التى أنبتت الحسان من كل لون وأنا أفكر فى حالى ، صرت رجل أعمال هام أدعى إلى الشاى دون أن أدرى نوع العمل الذى يراد منى أن أتحدث عنه .

ولمحت شابة جميلة ، لم تكن ترتدى السارى بل كانت فى ثوب أسود ، وكان شعرها وعيناها أشد قتامة من ثوبها ، وكان وجهها بين السواد كهالة من نور ، ودنوت منها وأحنيت لها رأسى محييا فإذا بها ترفع يدها إلى فمها ثم إلى رأسها . كانت تحتيتها أشبه بالتحية الشرقية التى نراها فى الأفلام التى تدور حول الشرق ، وذهلت برهة فلم أكن أدرى هل استعارت هذه التحية من السينما أو أخذت السينما هذه التحية عنها وعن أترابها .

وقدمت لها نفسى :

— جمال عبد السلام ، من تجار الدمام .

و لم تفقه قولى وإن فطنت إلى أننى أعرفها بنفسى ، فقالت جملة فهمت منها « تيرانى » فعلمت أنها من طهران ، قلت لها :

— تتحدثين الإنجليزية ؟

— لا .

— الفرنسية ؟

— لا .

— العربية ؟

— لا .

والظاهر أنه لاحظ في وجهي امتعاضة مضحكة فقد أشرق وجهها ولمعت عيناها سرورا ، ثم ضحكت ضحكة خافتة كان لها وقع السحر في فؤادي . وتحركت وخطوت خطوة إلى الخلف ، فأنا لا أستطيع أن أقف ثابتا لحظة واحدة ، فارتطمت بجسم ، فالتفت لأعذر فإذا بي أكتشف أنني ارتطمت برجل عربي طيب انضم إلينا في كراتشي ، ولحني الرجل فابتسم ، ثم قدمني إلى الرجل الذي كان يحادثه ، وكانت مصادفة سيئة من سلسلة المصادفات التي تكون حياتي ، قال :

— الأستاذ جمال عبد السلام من مصر ، وهو خبير يرافق البعثة .

ولمحت في وجه الرجل الباكستاني تحفزا ، وقال الرجل العربي الطيب وهو يشير إلى الرجل الباكستاني الذي يرتدي بدلة كحلية وقد ابيض بعض شعر رأسه :

— سعادة سفير الباكستان في تركيا .

وما إن تم التعارف حتى راح السفير يهاجم مصر وينتقد سياستها في القنّاة ، ويتهم قاداتها بأنهم قد عادوا بها القهقري خمسين سنة ، ثم عرج على العلاقات الطيبة بين مصر والهند وسخر منها ، وراح يعجب كيف تشتد أو اصر المحبة بين مصر والهند التي اعترفت بإسرائيل ، وتقع النفرة بينها وبين الباكستان التي لم تعترف بإسرائيل !

كنت عازما على ألا أخوض في السياسة ، وعلى ألا أعادي أحدا ، وأن أفنح قلبي للجميع ، ولكن ثارت دمائي في عروقي وارتفعت درجة حرارتي ، لقد ألقى القفاز في وجهي ، فعلى أن ألتقطه وأن أعيد اللطمة لطمتين ما دام حقي ظاهرا وقد هوجمت ظلما .

وسخرت من سعادة السفير ومن عدم اعترافه بإسرائيل ، ودلت بالأرقام على أن حليفته تركيا هي عميل إسرائيل الأول . وأنه حليف إسرائيل وزحفت على حلف بغداد وهاجمته ، وما أيسر تجريعه وتقويضه ودوسه بالأقدام .

ولم يصمد سعادة السفير للجدل فنار وثرث وقلت في عنف :
— ليسمح لى سعادة السفير أن أقول له إنه لا يفقه شيئا في السياسة .

وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— كيف تقول لى هذا ؟ أنا فى الستين وأنت لا تزال صغيرا . كم سنك ؟
— العبرة ليست بالسنين .. هناك بوابون أكبر سنا من سعادتك .

ووقف كل منا متحفزا . كنا كديكين فى معركة ، وخطر لى أن أخلع الثياب العربية وأن أقف على منصة وأصيح :

— أنا مصرى وأعتز بمصريتى ، وأنا مستعد أن أنازل كل من توسوس له نفسه مهاجمة مصر أو جرح شعورها .

وجاءت زوجة الداعى تقودنا إلى المائدة فانصرفنا وأنا ناثر ، شاءت المصادفة أن أرطم برجل أخرق وأن أعاديه ويعادبنى ، وما كنت من الباحثين عن العداوات ، إننى لأدعو إلى الحب ، وقد أحبت الشعب الباكستانى ، وإننى على استعداد لأن أحب الناس جميعا ، ولكن ما كانت النوايا الطيبة وحدها تكفى ، لا بد أن تضمهرأ أنت ، وأن يضمهرأ الأطراف الآخرون الذين تحتك بهم وتعيش معهم .

لن يكون سلام على الأرض ما لم يؤمن به البشر كلهم ، أما إذا أضمر زعيم شعب واحد العداوة فسيذكى نار البغضاء فى الصدور ويعكر صفو الناس جميعا .

والتفطنا حول الموائد العامرة بألوان الطعام الهندى ؛ من الأرز إلى السمك

إلى « الكارى » إلى الكباب ، كنت جائعا ولكن المشادة التي قامت بينى وبين
السفير أمانت شهوقى للطعام .

وبدأت اليد التي قبضت صدرى ترخى قبضتها ، وتبخر الغضب من
جوفى ، والتأم جرح نفسى وإن خلف أثرا ما أهون أن ينكأ ، ورحت أجوس
خلال المدعوين والمدعوات أتبختر كالطاووس .

أجسام الحسان الغضة البضة تنثنى كأغصان البان ، والعيون الواسعة التي
يغلب فيها السواد على البياض كأنها النبال ، والحرير الهفهاف الملتف حول
الصدور الناهدة والمسدول على الظهر لا يغطى الأجزاء العارية ولا يتركها
لوخر النسيم يزيد الفتنة والإغراء ، وأخذت النشوة تتدسس إلى روحى ،
فللجمال وقع السحر فى النفوس .

وانتهى الحفل وأخذ الناس فى الانصراف ، فسرنا فى الحديقة واخترقنا
الغرفة الأنيقة ، ووقفنا على وصيد باب الدار الخارجى ننتظر سيارتنا .

ووقفت سيارة أمامنا ، فقفزت إليها نشيطا ودخل معى فهد وحسان ،
وانطلقت السيارة وعبير الحفل يملأ الجو ، فأخذت أدندن وشعرت برغبة فى
الغناء ، ولما كنت لا أحفظ أية أغنية فقد نظمت مطلع أغنية جنسية فاضحة
وجعلت أرددها ، وإذا بفهد يغنى معى الأغنية الوقحة وهو يتمايل ويهز رأسه
ويرسم بأنفه دوائر فى الهواء .

وقهقه حسان لأول مرة منذ غادرنا جدة .

وقفت أصلى المغرب فى خشوع ، كانت الغرفة مظلمة ، وكان السكون يلف بيت الضيافة فى لاهور ، فقد كان الزملاء جميعهم يغطون فى النوم ، حتى يستطيعوا السهر فى الليل .

وفتح باب غرفتى وأضئى النور ، ولما سلمت وأنا أختتم صلاتى تحت مصطفى ينظر إلى وهو يتسسم ، ثم قال :

— أنت محير ، من يراك وأنت تصول وتحول بين الحسان يقسم أنك زير نساء ، ولا أحسب أن هناك من يصدق أنك عابد متبتل .

— لماذا ؟

— كيف يمكن أن تجمع بين المتناقضين ، الصلاة ومغازلة النساء فى جراحة .

— لا أرى أى تناقض فى ذلك ، إن مغازلتى للنساء نوع من العبادة .

— بالله دع الهزر مرة وكلمنى كما أكلمك .

— هذا ليس هزرا ، هذا نوع من التصوف ، إننى لا أؤمن أن العبادة

مقاطعة الناس والاعتكاف فى صومعة ، ولا أعتقد أن قصر اليد أو عدم القدرة

أو موات الحركة ضرب من التعفف ، إن التعفف الحق أن تكون قادرا وأن توفر

لك السبل ثم ترفع ، لذلك تجدى أسير فى الطريق حتى إذا ما كدت أشرف

على نهايته كبحت جماح نفسى وعدت أدراجى .

— هذه تجربة محفوفة بالمخاطر ، هذا لعب بالنار .

— اللعب بالنار يحتاج إلى مران . الحاوى يضع النار فى فمه دون أن تحرقه .

— وما الذى يرغملك على هذا ؟

— قد يكون غرورا وقد تكون لذة الانتصار على النفس . قارفت كثيرا من المذاهب الهندية واعتنقت آراء فى التصوف تلقائيا ، قبل أن أقرأ وأعرف كنه هذه المذاهب والآراء .

كنت منذ صغرى أجد لذة فى القسوة على نفسى وحرمانها ما تشتهيهِ ، وكنت وأنا غلام صغير إذا ما قرأت القرآن أعتقد أن له معنيين ، أحدهما ظاهرى والآخر باطنى لا يفقهه إلا من أزاح الله الغشاوة عن قلبه ، وكنت أرقب اليوم الذى أتمكن فيه من كشف سره والإمام بمعانيه الباطنية ، فلما كبرت وعشت بين الكتب عرفت أن ما أحسسته أحسه أناس قبلى ووضعوا فيه مذهبا هو مذهب الباطنية ، وأن الإمام هو من تنقشع الغشاوة عن قلبه وتتفتق أمامه أسرار القرآن .

وبلغت مبلغ الرجال ، وبعد أن مارست أنواعا من الحب اهتديت إلى أن كل حب ما عدا حب الله زائل ، فصرت أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، وبدأت دعواتى وصلواتى تأخذ طابعا روتينيا ، ولم ينشرح صدرى لما وصلت إليه ، لذلك عزمت على أن أخوض الحياة وأعيش مع العصاة وأسهر مع السكارى وأجالس البغايا وأن أصون نفسى ، وإذا قالت فتاة هيت لك تعففت تقربا لله .

— هذا تجديد فى العبادة .

— هذا ليس بتجديد ، كان بعض المتصوفين يمارسون هذا النوع من العبادة مع تعديل فى الوسائل . فقد كانوا يراودون النسوة عن أنفسهن حتى إذا ما استجبن لمن تركوهن لوجه الله ، لأن الجوارى وما ملكت أيمانهم كن فى زعمهم حلالا لهم كما تزعمون الآن ، لذلك كانوا يأتون بغلمان ، حتى إذا ما اشتعلوا شوقا إليهم تركوهم ابتغاء مرضاة الله .

— يا شيخ !

— اقرأ سير المتصوفين تجدها زاخرة بهذا اللون من التصوف .

— أنت محير غريب الأطوار .

— أنت على حق ، كثيرا ما أحتار في تحليل نفسي ، إننى كلما أشرفت على النجاح فى مشروع أهجره وأفر من النجاح وأبدأ مشروعاً جديداً ، حتى إذا ما أئنع وبدأت تنضج ثمرته أهرب منه إلى مشروع جديد ، بدأت خطواتى تثبت وأنا أسير صوب القمة فى عملى فى مصر ، فأفزعنى ذلك ولم تطمئن نفسى إلا بعد أن قبلت السفر إلى بلادكم .

يهمس فى أعماق دائماً هامس يردد : المولد بداية النهاية ، وقد يكون ذلك هو الدافع لى للفرار من النجاح ، لأننى أفر من نهاية النهاية !

قد أكون مريضاً ، وكثيراً ما أقنع أننى مريض ، ولكنى أصدقك القول أننى سعيد بهذا المرض ، فقسوتى على نفسى وحرمانها ما تشتهيه وفرارى من النجاح كل أولئك يمدنى براحة نفسية عجيبة .

فقال مصطفى وهو يضحك :

— ما رأيك فى أن ترى حسناتك !

فقلت له وأنا أنظر إليه نظرة خاصة :

— على طريقة المتصوفين القدامى !

فابتسم وقال :

— يا خبيث . على طريقتك أنت .

— وكيف ؟

— تأتى معى وترقبنى وأنا أشرب فتزيد سيئاتى وتزيد حسناتك .

فقلت له :

— ١٧٢ —

— أريد أن أنام .

وأقبل مجدى وسامى وعقيل ، فقلت لمصطفى :

— ها قد أقبل زميلك فاذهبا معا فى سبيل الشيطان .

فقال مجدى :

— لن أذهب معه ، إنه يعتنق مذهب الشراب ولا شىء غير الشراب .

فقلت لمجدى :

— إنك من حزيه وإن كابر . الفرق بينكما أنه رجل صريح وأنت تحب

أن تدعى ما ليس فيك .

وقبض مجدى على معصمى وجعل يلويه فقلت له :

— ثورتك دليل على صدق ما أقول .

واشتد فى ثنى معصمى فقلت له :

— أقسم بالله أنك لا تعرف شيئا عن الجنس حتى الآن .

فقال له مصطفى :

— اعترف بالواقع وتعال معى .

وجاء ممدوح وقال وهو واقف بالباب :

— هيا .

فقلت :

— إلى أين ؟

فقال سامى وهو يضحك :

— نغضى ليلة فى أحضان الشياطين .

فالتفت إلى ممدوح وقلت ساخرا :

— انتظر حتى تصلى العشاء ثم اذهب .

ولم يفتن إلى سخريتي بل نظر إلى ساعته جادا ثم قال :
 — سأصليها في القهوة ، سنقابل هناك صديقا سيكون الليلة قائدا .
 فقال سامي :
 — فرق كبير بين القائد والقواد .
 فقلت :
 — الهدف واحد ، القيادة إلى النصر .
 فقال مصطفى :
 — لو استمررنا في مناقشته فلن نخرج الليلة .
 وانسل من الغرفة وتبعه الرفاق وأنا أقول :
 — أسمع ولولة الفضيلة وسك الحدود ، بالله أرحوا أسلحتكم وخذ حذرك
 يا مصطفى .
 — من ماذا ؟
 — خشية أن يسكر مجدى ويضع خنجره في غير غمده .
 فقال وهو يضحك :
 — يا خبيث .
 وانصرفوا وبقيت وحدى فإذا بى أستشعر أننى قد تبدلت ، صرت رجلا
 آخر لا يعرف العبث ولا الهزار ، وإذا باللسان الذى ينطق الفواحش فى يسر
 يدور فى حلقي ويعكف على تسبيح الله والقلب خاشع والدمع فى العين
 يترقق ، وحان وقت صلاة العشاء فقامت أصلى فى اطمئنان ، ثم اندست فى
 فراشى وأسلمت جنبى للرقاد .
 هل أنا صاحب شخصيتين ، دكتور جيكل ومستر هايد ! هذا ما يطوف
 بذهنى أحيانا ، ولكن يطمئننى أن دكتور جيكل عندى متفوق على غريمه ،

وإن كنت أفزع أحيانا عندما أفكر أنه قد يأتى يوم تتحطم فيه قيود نفسى وينطلق مستر هايد المارد الجبار يعصف بى ويقوض جميع آمالى كما يهشم الطفل العايب دميته .

وأشرقت شمس يوم الجمعة فارتديت ثيابى كاملة لأذهب إلى غرفة الاستقبال أنتظر زملائى ، كنا تناول طعام الإفطار معا ، وكان كم الثوب الواسع يعوقنى عن أن أمد يدى لأتناول صنفا بعيدا عنى ، وكثيرا ما سقطت أطراف الغطرة فى الأوانى الموضوعة أمامى فكنت آكل بحذر إذا جلست إلى المائدة ، أما إذا كان الأكل ونحن وقوف فإننى أصول وأجول ، وقد عرضت علينا بعض أجزاء من الشريط السينمائى الذى أخذ لنا فلم أظهر على الشاشة أبدا إلا وأنا آكل ، كأنما رسم لى القدر شخصية الأكل فى البعثة .

كنت أول من وصل إلى غرفة الاستقبال فجعلت أنعم بتأمل الأزهار المختلفة الألوان التى وضعت فى أصيص الزهر ، كان توزيع الألوان فى كل زهرة معجزا غاية الإعجاز ، وما تأملت البنفسج أو القرنفل أو الورد يوما إلا اندمجت روحى بالكون ، وراحت كل خلجة من خلجات النفس تسبح الله . وظللت صامتا ، وإن كانت الأفكار تتولد فى رأسى والرؤى تتخيل لعينى والأنفاس تضطرب لصراع الآراء المتضاربة فى أغوارى ، فما أخلو بنفسى حتى تنشب فى أعماق معارك يغذيها الفكر ، ويمدها دائما بوقود متجدد يؤجج نارها ويزيدها ضراما .

وأقبل سامى مشرق الوجه يبتسم فى انشراح وحيانى فى حرارة ، ثم جلس وهو يقول :

— مدينة جميلة جدا ، تصور أن لاهور بها خمسمائة بيت للترفيه !

— مررت عليها جميعا ؟

— ١٧٥ —

فقال وهو يضحك :

— هذا ما قيل لنا ، وقد مررت على بعضها ، ليتك كنت معنا ، لرأيت مصداق ما قلته لمجدي .

— أنا أعرف مجدي أكثر من نفسه .

— جاءت فتاة معنا .. كانت فتاة صغيرة وجعلت ترقص وتغنى ، ومالت على مجدي تداعبه ، ولكنه فر من مداعبتها وأغرق نفسه في الشراب .
— شكله يغرى من لا يعرفه .

فقال سامي في عجب :

— لو صنعوا للرجولة تماثلاً لكان مجدي .

— فرق كبير بين الرجولة والتماثيل ، لا تغرنك الظواهر ، أستطيع أن أجزم أن هناك ملايين الفتيات فيهن أنوثة تفوق أنوثة مارلين مونرو ، الرجولة والأنوثة أعمق من أن يكشفها الشكل الخارجي .
— كانت فتاة الأمس تتمتع بأنوثة طاغية .

— وماذا فعل ممدوح ؟

فقال سامي وهو يضحك :

— ما يفعله كل مرة .

— أقصد هل صلى العشاء قبل أن ينطلق إلى عبته ؟

— أرى أن نصعد إلى أى بيت قبل أن يصلى العشاء ، إنه يؤدى جميع الفروض

على خير وجه .

— وأنت ؟

— سأصون نفسي بعد الزواج .

— ومتى ستتزوج ؟

— بعد عودتنا من هذه الرحلة مباشرة . بالله لا تذكرنى بالزواج ؟

— أمرك عجيب . الزواج متعة .

— إنك لا تعرف متاعب ليلة الجلوة عندنا .

واعتدل فى جلسته وقال :

— تزوج أحد أصدقائى ، وما إن أغلق بابه عليه وعلى عروسه لأول مرة حتى ارتفعت أصوات من الخارج تحته على الإسراع . كانت الفتاة غير محنكة وكانت خائفة ترتجف ، فراح يحدثها حديثا ناعما ، ولكن الأصوات المرتفعة فى الخارج كانت تفسد عليه الجو الشاعرى .. وصاح صائح :

— أسرع ، أبوها يغدو ويروح فى قلق ، ارحمه .

وقالت قائلة :

— أمها يكاد يغمى عليها . تحرك .

و لم يستطع أن يصم أذنيه عن الصباح المدوى الذى يمزق أعصابه ، فهجم على العروس يفتصبها ، جرت الفتاة مرعوبة منه ، وجرى خلفها بعد أن أحس أن كبرياءه جرح ، وقبض عليها ولم يأبه لأنينها وصراخها وتم له افتراسها ، ثم فتح الباب فتدفق الأهل إلى الغرفة يقصون فى حرص بالغ كل ما لوث بالدم ، ودوت الزغاريد ، واطمأنت النفوس القلقة ليلة ، وفى الصباح حملت العروس إلى الطائرة لتتنقل إلى مصر لتجرى لها عملية جراحية . لقد انقلب الزوج بسبب الصباح والحث والتفريع إلى وحش كاسر .

— اسمع نصيحتى وفر بزوجك ليلة الدخلة .

— والتقاليد ؟

— ثر على التقاليد البالية ، هذا أمر يتعلق بك وحدك .

— يا ليت .

— كانت هذه هي العادة عندنا ولكنها اندثرت ، لأن شبابا مثلك لم يؤمنوا بها فثاروا عليها .

— إننى أكفر بكل هذه العادات المردولة .

— لو كنت تكفر بها ما قبلتها . إنك تكفر بها بلسانك ولكنك تؤمن بها فى ضميرك ، قد يتحرر الفكر ولكن الروح تظل ترسف فى أغلال الرجعية !
وبدأ الزملاء يتوافدون على القاعة ، وأقبل عقيل فلما وقعت عيناه على سامى انفجر ضاحكا ، فقلت لسامى :

— ماذا فعل بالأمس ؟

— ظل ينظر إلينا كأنما يشاهد رواية فى سينما .

وجاء مجدى شاحنا برأسه ، ويعبث الهواء بمشله الأسود فيزيد فى روعته ، ولما وقعت عيناي على البطل الأسطورى ابتسمت ، ولمح ابتسامتى فجاء إلى وقال :

— ما الذى يضحكك ؟

— ما فعلته أمس .

— كانت فتاة لا تطابق هواى .

فقلت وأنا أضحك :

— أنا واثق أن ما من فتاة فى العالم تطابق مزاجك .

فقام ليقبض على معصمى ، ولكن أقبل الوزير فى تلك اللحظة فوقف البطل الأسطورى يحى الوزير فى أدب وعيناه محمرتان ، وتطلع إليه الوزير مليا ثم قال :

— ما بالك مصفرا ، لا ترهق نفسك .

وكدت أقول :

— إنه مصفر من عدم الإرهاق .

ولكنى كبحت لسانى فقد كان لذيذا أن أدع الوزير يعتقد أن مجدى زير نساء ، فمما يبهج الصدر أن ترى تصرفات رجل مع آخر على وضع ما ، بينما أنت تعرف أن الحقيقة هى الوضع الآخر .

وجاء مصطفى وراح ينقل بصره بين مجدى وبينى وهو غارق فى الضحك ، ودخل ممدوح منبسط الأسارير يشع النور من وجهه ، وجاء فهد وحسان معا فقلما يفترقان .

ونهضنا إلى غرفة الطعام ، وجلسنا نتناول الإفطار ونحن نتجاذب أطراف الحديث . وتصرم الوقت ونحن نعيش فى جو من الود ، ثم نهضنا لنذهب إلى السوق نشترى بعض هدايا من منتجات كشمير .

وعدنا قبل الظهر ، وذهب بعضنا إلى غرفته ، وبقيت فى غرفة الاستقبال . وإذا بممدوح مقبل وهو مكفهر الوجه ، يقول فى لوعة :

— ستفوتنا صلاة الجمعة !

فقلت له :

— نحن على سفر .

— لم تفتنى الجمعة من قبل أبدا .

— إذا شئت أن تصلى الجمعة ذهبت معك .

— هيا ، الله يفتح عليك .

وانطلقنا فى سيارة إلى أقرب مسجد . وأفسح المصلون لنا طريقا وقادونا إلى الصفوف الأمامية وهم يرمقوننا فى إكبار . كنا فى الثياب العربية الحبيبة . وكان إمام المسجد نفسه يرتدى ثيابا تحاكي ثيابنا تشبها بأصحاب الرسالة . وراح الإمام يشرح الخطبة التى سيلقيها باللغة الأردنية وقد تعلقت به عيون

المصلين ، كانوا من الفقراء ، وشتان بين معمرى المساجد والنازلين فى القصور .

وأذن المؤذن وألقى الخطيب خطبته باللغة العربية ، كانت من الكتب الصفراء ولكن إلقاءه كان سليما ، كان من خريجي الأزهر ولا ريب . وقضيت الصلاة وذهبنا إلى السيارة ، وما كدنا نستقر فيها حتى قلت للمدوح :

— كيف تجمع بين العبادة والنساء ؟

فقال دون أن تطرف عينه :

— هذا فرض وهذا فرض .

— لا خير فى صلاة لا تنهى عن فاحشة أو منكر . أفهم أن يؤمن الإنسان أو يكفر ، أن يسير فى طريق واحد ، أن يكون صادقا مع نفسه ، أما أن يسير ثم ينحرف ثم يعود إلى الجادة لينحرف فهذا ما لا أفهمه ، اختر لنفسك طريقا واحدا واسلكه .

— لى عذرى .

وصمت قليلا ثم قال :

— أنا رجل كامل ، أقصد كامل من الناحية الجسمانية ، وقد أوقعتنى سوء حظى فى زوجة تتعبها المعاشرة ، إننى لا أنال حقى منها لذلك أحاول أن أستوفى حقى من الخارج .

— أظن أن لمثل هذه الحالة صرح بتعدد الزوجات . تزوج من أخرى .

— هذا كلام هين . كيف أتزوج من أخرى ؟!

— أنت رجل قادر تستطيع أن تنفق على بيتين .

— المسألة ليست مسألة إنفاق . إننى أحب زوجتى على الرغم مما بها ، إنها

أم أولادى .

- ما دمت تحبها فضح من أجلها ، تسام بعواطفك .
- هذا مجرد كلام . لا أستطيع .
- ما دمت لا تستطيع تزوج .
- زواجى يجرح شعورها ، وأنا لا أحب أن أرحها .
- وهل ارتماؤك فى أحضان غانية كل ليلة لا يجرح شعورها ؟
- كيف يجرح شعورها وهى لا تدرى ؟
- سواء أعلمت أم لم تعلم فأنت تعرف أنك تهينها بخيانتها ، وما أحسب
- الحب الصادق يرضى أن يهان من يحب حتى فى غيابه .
- لن أتزوج ، لن أقوض هناء بيتى بيدى .
- إننى لا أحرصك على الزواج ، ولكننى أريد أن أكشف لك نفسك التى
- تخدعك وتزين لك المعاصى .
- نفسى لا تخدعنى ، ولكن الضرورة هى التى تدفعنى لهذا .
- هل الضرورة ترغمك على أن ترتقى فى أحضان غانية كل ليلة ؟ أنت
- باحث عن متعة .
- فقال فى صوت خافت :
- إننى أتخفف حتى أستطيع أن أحتمل شهور الجذب الطويلة .
- خداع آخر ، أخطر ما فى النفس أنها قادرة على أن تخدع نفسها
- بنفسها .
- فقال فى يأس :
- صدق مصطفى ، أخطر ما فىك أنك لا تتعب من الجدل .
- وكننا قد وصلنا إلى بيت الضيافة فهبطنا من السيارة ، وانطلق كل منا إلى

غرفته ، وما تمددت في سريري حتى رحت أفكر في ممدوح ، وتساءلت ترى لو نكبت بزوجة كزوجته أكنت أتزوج أخرى ؟ وترددت في الإجابة وامتلأ قلبي شفقة عليه .

٢٥

وكان مساء لن أنساه .
ارتدينا جميعا المشالخ السود ، وهذبنا لحانا وشواربنا ، وتضمخنا بالطيب والروائح والعطور ، فقد كنا مدعويين للعشاء في قصر حاكم لاهور ، وكان رئيس جمهورية الباكستان مشرفا الحفل .
واجتمعنا في غرفة الاستقبال في بيت الضيافة فكنا كأبطال القصص التاريخية ، وجلال بخاطري مرارا أننا واقفون على خشبة مسرح ، وأن الستار لن يلبث أن يرتفع .
ودنا سامي منى وراح يتفرس في ، كأنما كان مكلفا بمراقبة لبسي ، وخفق قلبي ، انتظرت أن يقول لي : أصلح الشطاف ، أو يسألني عن سروالي الطويل ! ولكن انبسطت أساريه وقال :
— أنت رائع الليلة .
فالتفت إلى عقيل وقلت :
— زه زه . أعطه ألف دينار .
واقتربت من مصطفى وقلت :
— امسح « الكريم » الذي وضعته على وجهك .
— يا خبيث .

ومرر يده على وجهه وقال :

— حلفت ذقنى الآن .

— بالملقط ؟ أو بمرهم من مراهمك العجيبة ؟ أو بالسكر والليمون ؟

— يا شقى .

ودنا فهد منى وراح يدندن فى أذنى بالأغنية البذيئة التى نظمتمتها وهو يرسم
بأنفه دوائر فى الهواء فدندنت معه ، والتفت الوزير نحونا فلمحنا ونحن نتمايل
فابتسم وقال :

— هيا .

فقلت وأنا أصلح مشلحى ، وأضع أطراف غطرقى الناصعة البياض تحته :

— وقار .

وسرت شامخا بأنفى أتبختر ، وهمس عقيل يقلدنى وهو يضحك :

— وقار .

وانطلق وفد الأجنحة السوداء إلى السيارات .

كان القصر قريبا من بيت الضيافة ، وما إن سرنا فى الشارع الهادئ الذى
عبق جوه بعير الأزهار حتى لحنا القصر يتألق فى النور ، وانسابت السيارات
فى طريق يخترق حديقة جميلة ، ثم دارت إلى اليسار دورة ووقفت أمام القصر
الكبير .

خدم فى ثياب مزر كشة ، وحرس هنا وهناك ، ونعمة وثراء ، وجو شاعرى
أخاذ يسلب الألباب ، وزاد فى روعة المشهد سيرنا بثيابنا الخلافة كأبطال
الأساطير .

وصعدنا فى درج خشبى غطى ببساط أحمر ، ودلفنا إلى غرفة واسعة ،
أثت بفاخر الرياش ، ووقع بصرى على صورة لإمبراطور إيران كانت فى إطار

من معدن ووضعت على نضد ، وقد أوحى إلى طريقة وضعها أن هناك صلة وثيقة بين الإمبراطور وصاحب الدار .

وأدرت عيني في الوجوه التي غصت بها غرفة الاستقبال فإذا بها نفس الوجوه التي رأيته في كل حفلة دعينا إليها ، الأمريكية الطويلة التي فاتها قطار الشباب ، والحسنات الفاتنات اللاتي يملأن كل مكان ذهبنا إليه بعبير الفتنة والشباب ، ولكن غاب وجه واحد ، وجه البريطانية المتصاية المتلهفة على تقشيري .

ومر بي سفير الباكستان في تركيا ، والتقت عيوننا ولم يفكر أحدهما أن يبدأ صاحبه بالتحية ، وسار في طريقه كأن لم يكن بيني وبينه أشياء ، ولم أحفل بالعداوة التي نشبت بيننا ، كنت سعيدا في تلك الليلة ، وكنت أستشعر نشوة عارمة ، فما كنت لأسمح لعداوته أن تعكر صفوى .

ودعينا إلى قاعة الطعام فسرت مع التيار المتدفق من البشر ، وبلغت المائدة فألفيت أمامي الفتاة الأمريكية ، فلما لمحتني قالت لي :

— ماذا ستفعل الليلة ؟

فقلت وأنا أبتسم :

— آكل وأشرب ثم أنام ، ولا شيء غير هذا .

وضحكت وضحكت وما دار في خلدي أن القدر يخبئ لي مفاجأة . وتناولت صفحة وملقعة وسكينا وشوكة ، وأدرت عيني في المكان فرأيت روعة وفخامة : الثريات تتلألأ .. كانت من بلور يأتلق كالмас ، وكانت تتدلى كعناقيد العنب في كبرياء ، الحيطان تنطق بالبذخ والفن والذوق السليم ، كانت كحواشي طرزت في دقة ومهارة وأناة ، نقوش فارسية يغلب عليها اللون الأزرق والذهبي ، لا تبهر العين ولكن تهز النفس . وكانت القاعة طويلة مدت

فيها موائد عامرة بالورود والأزهار ، وانتثرت فيها مصابيح ملونة أضفت على المكان شاعرية وجلالا . وكان في صدر المكان شرفة عالية زينت بالورود والرياحين وانتشرت فيها أضواء خافتة ، واحتلتها فرقة موسيقية يرتدى أفرادها سترا محلاة بقصب مجدول وسراويل غامقة ، وكانت الألحان الخفيفة التي تعزفها تسرى كالنسيم الرقاق .

ووجدت بالقرب مني بعض درجات من خشب البلوط ، ودرابزين من نفس الخشب ، أنيق الصنع ، دقيق الخط ، وكانت الدرجات تقود إلى داخل الدار .

وكانت على النوافذ والأبواب ستائر هائلة من المخمل الأحمر ، إنها تضيئ على المكان غموضا ورهبة وسحرا ، وراح الخدم يغدون ويروحون في ثيابهم الوطنية المزركشة في خفة الأطياف .

وتقدمت لأخدم نفسي وأتناول ما أشاء من الطعام المقدس على المائدة الطويلة ، وإذا بالموسيقى تعزف السلام الباكستاني ، وإذا بضابط كان بجوارى يقف مشدود القامة . فوضعت الصحيفة على المائدة ووقفت وقفة عسكرية ! وفتح باب الغرفة العالية القريبة مني وظهر عند الباب رئيس الجمهورية يرتدى بنطلونا أسود وجاكتة بيضاء ، وإلى جواره البيجوم في ثوب أزرق وقد لفت حولها « اسارى » هفهافا من نفس اللون .

استمرت الموسيقى في عزفها وأنا واقف كالتمثال ورأسى فارغ لا يشغله شيء . وفجأة رن في أغوارى ذلك الصوت الذى يرن بلا مقدمات وجعل يردد : « ورق العنب سلطان المحشى » .

ورفت على شفتى بسمه جعلت تتسع في أعماق حتى خشيت أن أقهقه ، وبدأت أفكر في ذلك الهمس وما مصدره وما الذى جعله ينبثق في أغوارى

الساعة؟ أمامى رئيس جمهورية وزوجه ، فهل ياترى قد وقر فى النفس أن كل حاكم سلطان ! وما علاقة ورق العنب وسultan المحشى بالسلطان !؟
وقبل أن أسترسل فى تفكيرى صمتت الموسيقى برهة ، وتحرك رئيس الجمهورية والبيجوم وهبطا فى الدرج ، وكنت أول من مرابه فحييانى بإيماءة خفيفة من رأسهما ، ودبت الحركة فى القاعة مرة أخرى ، فشغلت بما يدور أمام عيني عما يدور فى رأسى .

ولحت الفتاة الإيرانية الجميلة التى لا تتحدث الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية ، ولحتنى وارتسمت على شفيتها بسمه فأشرقت روحى ، وتفurst فيمن وقفوا معها فإذا بى ألمح شقيق إمبراطور إيران وزوجته الأمريكية وبعض فتيات إيرانيات . لقد كانت من حاشية الشاب المنطوى على نفسه ، الذى رانت على وجهه مسحة من الحزن العميق .

وشغلت بالطعام عما حولى ، ولما امتلأت عادت عيناي تتجولان فى المكان ، فلمحت مجدى بقماته الفارعة الفخمة يتحدث إلى فتاة ، كان رائعا غاية الروعة ، وقد تخيلت قصور الأوهام التى قامت شاحخة فى ذهن الحسناء . ورأيت الوزير وقد أحاطت به باقة من الحسان ، وخف إلى مصطفى وقال وهو ينظر صوب الوزير :

— لو كنت امرأة لسجدت تحت قدميه ، نظراته أخاذاة .

فقلت له وأنا أبتسم :

— أنا الليلة فى ليلة القدر . تمن وأنا أدعو الله معك أن يحقق أمنيتك .

فقال وهو يضحك :

— يا خبيث .

ثم تركنى وانسل ، وبحشت عن الرفاق فوجدتهم قد قبعوا فى ركن القاعة ،

أشفقوا على أنفسهم أن يعيشوا فى الجنة فجلسوا ينظرون إلى الحلم البهيج من بعيد .

ورحت أجوس خلال المدعوين ، وإذا بى أقف فجأة وأرنو إلى فتاة لا تتجاوز السابعة عشرة ، كانت سمراء داكنة الشعر واسعة العينين رقيقة الشفتين دقيقة التقاطيع ، يلف جسمها « سارى » فى لون زرقة السماء . لم يكن جمالها أخاذا ولكننى أحسست قلبى يهفو إليها ويخفق خفقانا لذيذا حرمت منه منذ سنوات طويلة . خيل إلى أنها حبيبة إلى روحى .
وسرت إليها كالمسحور ، وألقيت عليها تحية المساء ثم قلت :
— ليلة رائعة ، ليلة من ليالى ألف ليلة .

فقلت فى بساطة :

— حقا ، إنها ليلة رائعة .

وابتسمت ابتسامة أضاءت روحى ، فقلت فى سرور :
— إنها ليلة أنعشت خيالى ، حتى إننى أطلقت على كل من وقعت عليه
عينى اسما من أسماء ألف ليلة .

فنظرت نحو الوزير وقالت :

— ماذا أطلقت على معاليه ؟

— هارون الرشيد ؟

وأشارت إلى مصطفى بطرف عينا وقالت :

— وهذا ؟

قلت وأنا أبتسم :

— مسرور السيف ، ولكن بلا سيف .

وكأنما أعجبته اللعبة فالتفتت صوب مجدى وقالت :

— ١٨٧ —

— وماذا أطلقت على هذا ؟

— شهريار ، قاتل النساء .

— لماذا اخترت له هذا الاسم ؟

— لأننى أعتقد أنه عدو النساء على الرغم من وسامته .

ودنا ممدوح منا فقالت :

— وماذا أطلقت على صديقك هذا ؟

— أبو قير .

— ولماذا اخترت له هذا الاسم ؟

فقلت وأنا أضحك :

— لأسباب لا يمكن أن أفضى بها إليك الآن .

ووقع نظرها على رئيس الجمهورية فقالت وقد التمتعت عيناها بالسرور :

— وماذا أطلقت عليه ؟

فقلت وأنا أتصنع الفزع :

— لا . لا أستطيع أن أقول خشية أن أطرده من البلاد .

فقالت دون كلفة :

— بالله قل .

فقلت فى صوت خافت :

— أبو نواس !

وضحكت ، وعلى الرغم من أننا لم نلتق إلا منذ لحظات إلا أننى أحسست
أحاساسا عميقا أننى أعرفها حق المعرفة ، وأن حديثى إليها يملأ روحى غبطة .
ولو طواعت نفسى لوضعت ذراعى فى ذراعها وسرت معها أحدثها إلى الأبد
دون أن يتسرب الملل إلى .

ورمقتنى مسرورة وقالت :

— وماذا أطلقت على ؟

فقلت على الفور :

— بدر البدور . أتعرفين معنى هذا الاسم ؟

— لا .

فقلت لها الترجمة الإنجليزية :

— قمر الأقمار .

وتضرجت وجنتها بحمرة خفيفة وأسبلت جفניה ، ولم أطق ذلك

الصمت الذى ساد بيننا لحظة فقلت لها :

— أتعرفين قصة بدر البدور ؟

— لا ، وما قصتها ؟

— إنها قصة طويلة لا يمكن أن أقصها عليك الآن .

— أتبخل بها على ؟

— إني أتمنى أن أكون لك كما كانت شهرزاد لشهريار ، أقص عليك كل

ليلة قصة ، لا ألف ليلة وليلة فحسب بل آلاف الليالى .

فقالت :

— لنبدأ بقصة بدر البدور .

— غدا .

— غدا سنشاهد استعراض الخيل .

— وسنشاهد نحن أيضا ذلك الاستعراض ، وما رأيك فى بعد غد ؟

وأحسنت أننى أطوقها فى بساطة ، فأرادت أن تغير الحديث فقالت :

— هل شاهدت لاهور ؟

— ١٨٩ —

— لم أشاهد إلا القصور التى دعينا إليها .

فقلت فى استنكار :

— لم تشاهد حدائق شالامار ؟

— أبدا .

— إنها إحدى عجائب الدنيا ، لا تستطيع أن تقول إنك رأيت لاهور إذا

لم تشاهد عجائبها .

— ومن لى بها !

— أية سيارة تملك إلى هناك .

فقلت فى اندفاع :

— عندى فكرة : ما رأيك فى أن تكونى دليلى الذى يقودنى إلى حدائق

شالامار ، تفصين على قصة الحديقة وأقص عليك قصة بدر البدر ؟

وأطرقت . فخفق قلبى ، خشيت أن أكون قد أسأت إليها باندفاعى . لقد

ترجمت عن لطفة فؤادى دون تدبير أو إمعان فكر . كانت الأستار المسدلة بين

روحينا قد ارتفعت كلها ، فبدأت أحسن أنها أخذت تنسدل ستارا إثر ستار ،

وقلت وقد تقاصرت نفسى :

— آسف ، لم أقصد أن أخرجك .

فقلت فى بساطة :

— هون عليك .. كنت أفكر فى قبول دعوتك .

فقلت وقلبى يكاد يقفز من الغبطة :

— وعلام استقر رأيك ؟

— أن ألبى دعوتك .

وارتفعت الأستار التى أخذت تنسدل بين روحى وروحها ستارا إثر ستار

دفعة واحدة .

وانتهت الموسيقى من عزف الدانوب الأزرق وبدأت فى عزف الفالس

الكبير ، فملت عليها وقلت :

- لو طاوعت نفسى لو وضعت يدى فى يديك وأخذت أدور أنا وأنت ،

إننى لم أحس غبطة من قبل كما أحسها اليوم .

فقلت فى دهش :

- أتعجب الرقص ؟

- الرقص يحلو فى لحظات الصفو .

وصمت قليلا ثم قلت :

- كنت أتمنى أن أشاهد رقصا هندية .

فقلت وهى تبسم :

- باكستانيا من فضلك .

- باكستانيا .

- كانت هناك فكرة أن تعرض عليكم ألوان من الرقص الباكستانى ،

ولكن عدل عنها حتى لا يجرح شعوركم .

فقلت فى إنكار :

- يجرح شعورنا ؟

فقلت وهى تتفرس فى وجهى :

- أجل .

- ولماذا ؟

- لأن الرقص حرام .

وتذكرت المشلح الذى أرتديه واللحية التى تملأ وجهى فقلت فى

اقتضاب :

- آه .

وسرنا فى القاعة والموسيقى تعزف ، ولم أحفل بالموجودين جميعا ، خيل
إلى أننا وحدنا فى المكان . قالت :

- ما الذى أعجبك فى لاهور ؟

وكدت أقول « أنت » ، ولكننى كبحت جماح لسانى وقلت :
- أزهارها .

- أزهار لاهور جذابة .

- لا أقصد أزهار الحقائق ، بل أقصد الأزهار الدافئة الحنون الرائعة
الزاحرة بالأنوثة .

ولم تنبس بكلمة ، وقلت :

- رأيت حسانا فى بلاد كثيرة ، ولكننى لم أر الأنوثة الطاغية ولا الروح
الشفافة الحبيبة إلا فى مصر وهنا .

فقلت فى لهفة :

- هل رأيت مصر ؟

- مررت بها .

- هل هى بلاد جميلة ؟

- نعم أحببتها كما أحببت لاهور .

وتحرك رئيس الجمهورية والبيجوم صوب الدرج وصعدا فيه ، ثم وقفا
يواجهان الناس وعزفت الموسيقى السلام الباكستانى ، ثم انسحب رئيس
الجمهورية والبيجوم وغابا فى الغرفة المرتفعة ، وسرعان ما اقتفى أثرهما
شقيق إمبراطور إيران وبطانته ، وقلت :

— ١٩٢ —

- بدر البدور ، يخيل إلى أن شقيق الإمبراطور من أهل الدار .
- فقلت وهى تبسم :
- هناك قرابة بينه وبين الحاكم .
- وبدأ الناس فى الانسحاب ، وانتهت الحفلة ، فقلت لها :
- بدر البدور ، سأنتظرك بعد غد فى الخامسة أمام بيت الضيافة ، فلا أعرف فى لاهور مكانا غيره .
- سأمر عليك فى ذلك الميعاد .
- وسكنت قليلا ثم قالت :
- بدر البدور اسم جميل ، ولكن اسمى ياسمين .
- وصافحتنى لتصرف ، فقلت لها :
- فى رعاية الله يا ياسمين .
- وتحركنا لتصرف ، فإذا بى مفعم بالغبطة أسير فى نشاط ابن العشرين .

٢٦

ملأت ياسمين نفسى واستولت على روحى واحتلت رأسى وشغلت فراغ حياتى ، فقد تلتقى روحان لحظة فتأتلفان وتمتزجان وتكونان روحا واحدة ، وقد تجتمع روحان سنين طويلة فى مكان واحد ولا يزيدهما طول العشرة إلا نفورا .

استشعرت أننى أعرف ياسمين منذ الأزل ، إن روحينا تقابلتا قبل الليلة ، وقد يكون ذلك فى عالم آخر ، أو من زمن سحيق ، وراح فكرى يعمل فى

نشاط وينتقل بى وبها فى عصور التاريخ المختلفة . رأيت نفسى
أميرا فرعونيا وإلى جوارى ياسمين ، ورأيت نفسى رومانيا وإلى جوارى
ياسمين ، ورأيت نفسى بدويا وإلى جوارى ياسمين .

ترى هل تناسخ الأرواح حقيقة ، كنت أسخر من ذلك المذهب ، فما
بال مقابلتى لياسمين تجعلنى أفكر فيه وأنا أميل إلى تصديقه ؟ فى نفسى
إحساس عميق أننى التقيت بياسمين من قبل ، لا بذلك القوام المشوق
ولا بالعينين السوداوين الساحرتين ولا بالشعر السبط الأسود ، ولكننى
التقيت بهذه الروح ، إن روحى لا تخطئها أبدا .

هل كنا قطا وقطة ؟ هل كنا كلبا وكلبة ؟ هل كنا ثورا وبقرة ، لا ، لم
نكن شيئا من ذلك ، بل كنا رجلا وامرأة ، وإننى أستطيع أن أجزم أن
ياسمين تحب الموسيقى وتعشق الغناء وأنها صاحبة صوت أسر جذاب .

هل كانت جارية من الجوارى المغنيات فى زمن الأمويين أو العباسيين ،
وكننت أنا المتيم بالجارية ، لست أدرى . كل ما أستشعر به أن روحينا
اختلفتا من قبل وأننى تلظيت بنار البعد والحرمان ، فإننى أحس فى غمرة
فرحى وخزات تخز روحى أشبه بلسع النار .

وراحت الأفكار تتوافد إلى رأسى توافد الموج ، وتصرم الليل وما مس
الكرى أجفانى . وغادرت الفراش فى الصباح وأنا نشيط . وذهبت إلى
المرآة أتفرس فى وجهى فلمحت الحياة تترقرق فى عيني ، وعاد الشباب
يتدفق فى خدى على الرغم من الشعرات البيض التى نبتت فى لحتى ، لقد
مستنى عصا الحب السحرية .

كنا فى فبراير وكان البرد شديدا ، ولكن حرارة مشاعرى جعلتنى أنعم
(وكان مساء)

بدفء الحياة ، فخرجت إلى رفاق منشرحا ، وجعلت أداعب مصطفى وأضع
يدى على خدى وأتمایل ، فيضع فهد يده على خده ويدندن ويدير وجهه
ويرسم بأنفه دوائر فى الهواء ثم ينفجر ضاحكا .
ولمخنا الوزير مقبلا فقال عقيل وهو يقلدنى :

— وقار .

فقلت له :

— الوقار رواسب الشيخوخة . تبخرت هذه الرواسب فطار الوقار .
وظللت فى دعابتى وعبثى حتى إننى رحت أقص على الوزير قصة مكشوفة
وأضحك من كل قلبى . كنت مسرورا ، ولو كان لأحد رفاق نظرة ثاقبة
لفطن فى يسر إلى حقيقة ما أنا فيه .

كنت مرحا طوال الرحلة ، ولكن كان يشوب مرحى قبل أن ألقى ياسمين
مرارة ، أما مرحى اليوم فكان صافيا تزينه خفة الشباب .

وانقضى الوقت وحن موعد ذهابنا إلى معرض الخيل ، فتأنقت فى ارتداء
ملائسى العربية ، وخطر لى أن أدعو سامى ليفحصنى قبل أن أذهب ويستوثق
من أن حلقتى الشطاف الأسود قد وضعتا فوق الغطرة كما ينبغى . كنت أضحك
بملاحظاتى ، ولكننى اليوم متلهف عليها ، لولا بقية من كبرياء لاستدعيته
والتست منه أن يتفضل بتنسيق هندامى .

ووقفت لأول مرة طويلا أمام المرأة منذ بدء الرحلة ، وكدرت الشعرات
البیض المتسللة إلى لحتى صفوى برهة ، فاتجهت إلى حقيبتى وأحضرت المقص
الصغير ورحت أجتث الشعرات البغيضة ، ولما اختفت من لحتى ارتحت
لذلك التزييف .

وانطلقنا إلى السيارات التي تنتظرنا ، كنا جميعا في ثيابنا العربية ما عدا الوزير فقد ارتدى ثيابا أوروبية ، وسارت السيارات في شوارع لاهور . وكان الناس في عربات أشبه « بالكرتة » ، السائق في مقعده الأمامي وقد أمسك بعنان الحصان ، والركاب في مقعد خلفي يواجهون المقبلين في الطريق .

ولمحت سيدتين متسربلتين بثوبين يخفيانهما من الرأس إلى أخمص القدم ، كانتا أشبه بنساء جدة ، وكانتا في المقعد الخلفي ، رفعت لهما يدي وألقيت عليهما التحية . وعاتبني سامي ، حسب أنني أغازلهما أو أسخر منهما ، ولم يدر بخلده أنني كنت سعيدا وأني كنت أحس رغبة في تقبيل البشر جميعا .

وبلغنا الشارع الرئيسي .. كان غاصا بالسيارات ، وكان الناس على جانبي الطريق ينظرون إلى موكب رئيس الجمهورية ، كان الرئيس في سيارة مكشوفة حوله راكبو الموتوسيكلات ، وحول الجميع الحرس الخاص على ظهور الجياد في ثيابهم الحمراء المزركشة ، كان أشبه بالحرس الاسكتلندي .

وسرنا خلف ركب الرئيس ، وراحت السيارات تزحف ، ولفتت ثيابنا أنظار الجماهير فأخذوا يحيوننا . وهممت أكثر من مرة أن ألوح لهم بيدي لأعبر عن أحاسيس الحب التي تغمر قلبي ، ولكنني أحجمت خشية أن يغضب سامي أو يلفت نظري إلى أن ذلك يخالف التقاليد . وعلت شفتي بسمة ، وما أحسب أن هناك قوة في الأرض تستطيع أن تفرض على العبوس إذا شئت أن يتطلق وجهي .

وبلغنا المكان فهبطنا من السيارات ، ورحنا نرقى في سلم المدرج ، وأشرفنا على الناس فإذا بالأنظار تصوب إلينا ، وإذا بأضواء آلات التصوير تأتلق ، ورحنا نخطر بين الصفوف بينا انسل الوزير دون أن يلتفت إليه أحد .. فقد

سحره بعد أن خلع ثوبه العربي الخلاب ، ذكرني بشمشون بعد أن حلق شعره .

وفطن أحد الموظفين إلى الوزير فأخذه من يده إلى حيث يجلس رئيس الجمهورية . وتلفت ولم يطل بحثي عنها ، أرشدني قلبي إليها ، كانت بالقرب مني وكانت بين صديقتين .

التقت عيوننا وانحنى رأسنا ، ورففت البسمات على شفاهنا وتألفت البهجة في وجهينا ، وخفق قلبي خفقانا لذيذاً ملاً جوف حنانا ونشر حول عقلي ضباباً خفيفاً جعلني في شبه غيبوبة ذهنية مكنت للنشوة أن تمرح في كياني دون رقيب .

وجلست في مقعدى وأنا أسترق النظر إليها ، ولو طأعت قلبي لذهبت إلى ياسمين أقص عليها قصة بدر البدر ، وأصغى إلى صوتها الدافع الحنون الذى يعبث بأوتار مهجتي ويحملني إلى عوالم رحيبة من الانشراح .

وأقبل ثلاثة فرسان إلى منصة الرئيس واستأذنوا منه أن يبدأ الاستعراض ، فلما أذن لهم عادوا على ظهور جيادهم من حيث أتوا ، وما لبثت فرق الموسيقى أن أقبلت من البوابة الكبيرة القائمة في نهاية الميدان قبالة المدرجات .

وانتشرت الفرق الموسيقية ، كان الجميع يرتدون الملابس الاسكتلندية وينفخون في القرب ويقومون باستعراض طالما رأيناه في الاحتفالات البريطانية ، فقد خرج الإنجليز من الهند والباكستان وخلفوا وراءهم عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وثقافتهم ، وأذناها تتحرك إذا أوحى إليها الرأس بالحركة . وترددت موسيقى القرب في الميدان ولكن لم تجد طريقاً إلى روحي ، فقد أغلقت نفسي دونها منذ كنت طفلاً في القسم المخصوص بالمدرسة الابتدائية ،

وكنت أرغم على أن أرقص رقصا اسكتلنديا حول سيفين من الخشب متقاطعين على الأرض أمام مدرجات عليا القوم في الحفلات السنوية .

وأقبل من بعيد فارسان يرتديان ثياب بلياتشو ، ولما أخذنا يعدوان أمام المدرج وقفا على ظهري جواديهما ، ثم جلسا مربعين ، وسرعان ما امتطيا جواديهما وقد أوليا وجهيهما للجمهور ، وأعطيا ظهريهما الجوادين ، وطفقا يقومان بألعاب خطيرة غاية الخطورة ولكنها تبعث على الضحك ، والتفتت ياسمين إلّى وهى غارقة فى الضحك فإذا بى أضحك فى مرح الأطفال .

وأقبل حرس رئيس الجمهورية على ظهور الجياد يعزفون موسيقى إنجليزية ، فوجد ذهنى مجالا للتأمل وكانت ياسمين محور تأملى ، راحت فكرة تولد فى مكان سحيق من فكرى ، ثم أخذت تطفو رويدا رويدا حتى عامت على سطحه ، ثم أخذت تنداح حتى استولت على رأسى .

ليس هذا أول لقاء بينى وبين ياسمين فى حفل عام ، قابلتها فى مثل هذا الحفل قبل الآن ، إن ذاكرتى تكاد تقسم بأغلظ الأيمان أن هذا حدث ، ولكن أين ؟ وفى أى عصر كان ؟ وماذا كانت تفعل ياسمين وماذا كنت أفعل ؟ وأين كانت وأين كنت ؟ وماذا كان اسمها وماذا كان اسمى ؟ لست أدرى .

وزادنى ذلك الغموض تعلقا بها .

وراحت الاستعراضات تجرى أمامى وأنا مشغول عنها بالخواطر المترددة فى رأسى ، وكنتم كلما أفقت من تفكيرى أجد خيولا وفرسانا ، وتشكيلات متباعدة .. طواير من الفرسان ، ثم صفوف متقابلة ، وسرعان ما تندمج تلك الصفوف فى صفين ، ثم أغيب عن المشهد جميعا ، وأشغل بالحوادث الرائعة التى يخلقها خيالى وأندمج فيها ولا ينزعنى منها إلا دوى تصفيق النظارة ،

أو نظرة خاطفة من عيني ياسمين .

وصاح المذيع يعلن بدء قفز الحواجز ، وتقدم شاب على صهوة جواده ثم أرخى لجواده العنان وراح يقفز الحواجز حاجزا إثر حاجز في رشاقة وخفة ، ولكن حافر الجواد ارتطم بالحاجز الأخير وأسقطه فارتفعت صيحات الإشفاق من الجميع ، حتى ياسمين التفتت إلّى وهى تشير بيديها في ضيق . وصاح المذيع معلنا اسم البطل القادم على اجتياز الحواجز ، ودوى صوته في المكان :

— أحمد خان .

وراح أحمد خان يخطر على صهوة جواده ويسير في خيلاء الجبارين . كان مظهره يوحى بأنه فارس لا يشق له غبار ، ففتحت عيني وجلست على حافة مقعدى وجعلت أرقبه وقد طارت الأفكار من رأسى . وتبهنس الفرس ودار أحمد خان دورة حتى واجه الحواجز ، وجذب عنان الجواد ثم أرخاه وانطلق كالقذيفة .

وارتطمت حوافر الجواد بالحاجز الأول وبالحاجز الثانى وبالحاجز الثالث وارتفعت الضحكات ، وضحكت ياسمين حتى إنها كانت تقوم وتقعّد ، وضحكت حتى امتلأت عيناى بالدموع ، أثبت أنه أحمد خان حقا فقد خان جميع الحواجز وطرحها أرضا !

وراحت تطوف بالملاعب قطعان الثيران والخراف والحمير والبغال ، كان المعرض للخيول والماشية ، ووجدت فسحة من الوقت لأعاود التفكير في ياسمين وأنقب عن الحقبة التى عشنا فيها معا . أقنعتنى روحى أنها التقت بروحها ، فراح ذهنى يقدر زناد ذاكرته ليمدنى بالبرهان الذى يثبت ادعاء

روحي ، ووقفت على الحياء أنتظر النتيجة .

لم يكن ذلك جديدا على ، فيا طالما انقسمت ذاتي إلى معسكرات متنافرة ومؤيدة ، فكنت أدعها تتصارع وتتجادل وأنا واقف بعيدا أرصد ما يجري وأرقب النتيجة ، وما أندر ما تتفق روحي ووجداني وعقلي على رأى .

وأجهد ذهني نفسه ، وراح يقلب ذكريات السنين ، وأخيرا عاد إلى يقول إنه من غير المعقول أن تكون أنت الذى تخطيت الأربعين وهذه الفتاة التى لم يكتمل نضجها بعد قد التقيتا من قبل ، إن فكرة التقاء روحك بروحها وهم من الأوهام ، أو خيال من الخيالات التى تدفعنى إلى خلقها ، ثم ترغمنى على أن أخدع نفسي وأقنعها أنها حقيقة ناصعة .

وسخرت روحي من ذهني وراحت تؤكد التقاءها بتلك الروح . إنها واثقة من ذلك اللقاء ، وهى لا تعرف قيود الزمن ولا سدود الأجسام ولا حدود العقل .

وارتفع صياح من النظارة فانتبهت ونظرت إلى الميدان ، فألفيت رجالا يمسكون بأعنة ثيران ضخمة ثم راح الرجال يحشون الثيران على العدو وقد وضعت في طريقها حواجز أشبه « بدكك » القهوة البلدية .

وراحت الثيران تتخطى الحواجز في عدوها والناس يتصايحون في انشراح ، والتفت إلى ياسمين وأنا أضحك فإذا بها تضحك وترنو إلى .

وجيء بديوك ودجاج ، ومرت أبقار لها أئداء كأنها القرب ملئت لبنا ، وغبت مرة أخرى عما حولى ، وعدت إلى نفسي أعيش فيها فإذا بروحي تسخر بالتقاليد التى تحول بينى وبين الفتاة التى تشتهى أن تصغى إلى وأشتهى أن أناجيها ، وراحت تحرصنى على أن أنهض وأنطلق إليها وأن أسعد باللحظات

القصار التي لن يجود الزمن بمثلها مرة أخرى .

وهب عقلي يزجرني ويطوقني بقيوده ، فأحسست كأنما أرسف في الحديد ، وكأن حملاً ألقى فوق فكاد ينقض ظهري وعاقني عن أن أنهض أو أنقل قدمي ، إن هذا العقل طاغية مستبد لا يسمح لخلعة من خلجاتي أن تنبض أو تتحرك إلا بمقدار ما يصرح به .

ودوت في المكان دقات طبول ، فنظرت فإذا بفرسان على ظهور الجياد ، وإذا بقارعي الطبول يدقون طبولهم في عنف فتقف الجياد على أقدامها الخلفية وترفع أقدامها الأمامية في الهواء وتأخذ في الرقص .

كان رقصاً مثيلاً ، وقد ذكرني بتقديم الجياد على أقدامها الخلفية وهز رعوسها بالنساء اللاتي « يفقرن » في الزار ، وبالرجال الذين تأخذهم الجلالة في حلقة ذكر .

ومرت عربة يجرها جوادان وحولها بعض رعاة البقر ، كان المشهد أمريكياً ، ولم أظن إلى حكمة عرضه في معرض الخيل والدواب الأهلى الباكستاني .. ربما كان تحية للمعونة الأمريكية .

ووضعت أربع حلقات على الأرض ، ووقف في أول الميدان عند طرف المدرجات أربعة فرسان يحمل كل منهم رمحاً ، وانطلقوا كالريح ، وحاول كل منهم أن يلتقط أثناء عدوه الحلقة بالرمح ، ونجح بعضهم وأخفق البعض الآخر . وحاول نفس المحاولة أربعة آخرون وتبعهم أربعة آخرون ، واشتد التنافس بين المتبارين ، ونجح أربعة فرسان في أن يلتقطوا الحلقات كلها فصفق الناس في حماسة .

وامتلاً الميدان بفرق الموسيقى مرة أخرى ، وبفرسان الحرس ، وبجميع

الفرسان الذين اشتركوا في العرض ، وبالأبقار والبغال والثيران والحمر ، ثم بدأت الحشود في الانسحاب ، وغاب الجميع في البوابة الضخمة المواجهة للمدرجات .

والتفت فإذا بالحسناء الإيرانية التي لا تتحدث الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية جالسة إلى جوارى ، والتقت عيوننا فابتسمت وحنّت لى رأسها فابتسمت لها ، وسرعان ما نسيتهما فقد شغلتنى ياسمين عن كل ما حولى . ونهض رئيس الجمهورية فنهض الناس جميعا ، وانطلق إلى سيارته . وانطلقت إلى حيث كانت ياسمين ، كنت كالتائب الذى يلتمح حبيبة الفؤاد مع أهلها خارجين من السينما فيشق الجموع ليدنو منها ويسير خلفها يسعد بقربها .

وتلفتت ياسمين تبحث عنى بعينيها فوجدتنى قريبا منها ، فتوجت شفيتها بسمه خلاصة والتمعت عيناها ببريق خفق له قلبى وحنّت رأسها فى رشاقة ، ثم انصرفت وأنا أتبعها بعينى وروحى أنتظر الغد فى لهفة وشوق .

٢٧

وجاء الغد ، وأمضينا الصباح في زيارة دارسك النقود والمطبعة السرية . كنت أسير مع الرفاق أينما ساروا ، وأقف وقتما يقفون ، وأنظاھر بأنى أصبح السمع إلى ما يقوم به مرشدنا من شرح ، وأنا شارد بذهنى أفكر فى ياسمین . وراح الوقت يمر وثیدا وثیدا ، وبدأ الملل يتسرب إلى روحى ، فجعلت أنظر إلى الساعة المثبتة فى معصمى أتعجل الزمن وأتلھف على مروره . أطبقت شفتى ولم أعبت ولم أداعب أحدا من رفاقى ، وقد سنحت أكثر من فرصة كنت أستطيع أن أنتھزها لمشاغبة مصطفى ولكننى لم أفعل . وفطن عقيل إلى صمتى فدنا منى وقال وهو يقلدنى :

— وقار .

وضحك وابتسمت مجاملة له ، ثم عدت إلى العالم القائم فى رأسى ، وجاء إلى ممدوح وقال :

— عندكم دار سلك مثل هذه ؟

فقلت فى اقتضاب :

— نعم .

ولم أتحمس ولم أسهب فى وصف دار السلك عندنا ، اعتادوا إذا سألونى عما إذا كان عندنا مصنع أو دار كالتى نزورها أن يسمعوا منى وصفا مسهباً للمصانع المصرية المماثلة ، وقدرتها ومدى استعدادها ، ولكننى أقتصر اليوم

في الردود على كلمة أو إيماءة من رأسى ، وكان سامى إلى جوارنا فقال لى :

— ما بك اليوم ؟ مريض ؟

— متلهف على انقضاء هذه الزيارة .

— ضايقتك أن يفترش العمال الأرض وهم يعدون النقود ؟

ولم أنبس بكلمة ، وقال :

— لقد ضايقتنى ذلك أيضا .

وأخيرا انتهت الزيارة وعدنا إلى دار الضيافة وتناولنا غداءنا ، وأسرعنا إلى غرفتى وتمددت فى فراشى لعل النوم يطوف لى ويريحنى من الساعات الباقية على موعد لقائنا ، ولكن خاصم الوسن جفنى ، وأرهف حواسى ، وراحت دمائى تتدفق حارة فى عروقى ، وأخذ قلبى يرقص بين جنبى فى ابتهاج ، فقد عاد إليه شبابه .

لم يبق على لقائنا إلا ساعتان ، فنهضت ارتدى جلبابى الصوف الرمادى الذى طلبت فى الليل أن يغسل ويكوى ، ووقفت أمام المرأة أشذب شاربى ولحيتى ، وانتقيت غطرة مزركشة من الصوف وضعتها على رأسى ، ثم ثبتها بالشطاف الأسود بعد أن عوجته قليلا زيادة فى التأنيق ، كما كنت أفعل فى مستهل شبابى أيام كنت أضع على رأسى الطربوش .

ووضعت المشلح المصنوع من وبر الجمل والمزين بالقصب على أكتافى ، وتطييت بالطيب الذى أغتصبتة فى الليل من مصطفى ، ثم تطلعت إلى صورنى فى المرأة فألفيت نفسى فخما ، كنت أبدو كالشيخ فى الروايات السينائية . وجعلت أغدو وأروح فى الغرفة ، وأنا أتطلع إلى الساعة وأرقب فى ضيق عقرب الثوانى الذى يدور ببطء شديد ، وأمضيت الوقت صاعدا هابطا فى

الغرفة ، متطلعا إلى صورتي في المرآة ، مادا يدي إلى طرف المشلح أو إلى حلقة من حلقتي الشطاف أو إلى الفطرة لأصلح هندامى .

وأشرفت الساعة على الرابعة والنصف فغادرت الغرفة خافق القلب ، وسرت في الممر الخالى فقد كان الرفاق جميعا يغطون في النوم استعدادا لليل ، وسرت في الحديقة واتجهت إلى الباب الأيمن ، ولم ألبث أن تذكرت أن السير في الباكستان على اليسار فاتجهت إلى الباب الأيسر لأخرج منه ، كأنما كنت سيارة يتحتم على أن أحترم لوائح المرور .

ووقفت في الطريق فإذا بالمارين والمارات يمدون أبصارهم إلى ، كان منظري غريبا في الشارع الهادىء الذى تظله الأشجار ، والذى تخترقه عربات تجرها الجياد ودراجات « البيتشا » التى ثبتت صناديق الركاب إلى جانبها ، وكلما كانت تجرى فيه سيارة .

وحام حولى بعض فقراء الباكستان وقد خفضوا رؤوسهم في احترام شديد ، ولولا الحياء لتمسحوا بى وقبلوا طرف ثوبى .

وأقبلت سيارة ، وقبل أن تصل إلى خففت من سرعتها فخفق قلبى خفقانا لذيذا ، ووقفت السيارة أمامى ومددت بصرى إلى داخلها فرأيت ياسمين فاضطربت برهة ، ومالبثت أن جمعت شتات نفسى وفتحت الباب ودخلت ، وقبل أن ألقى عليها التحية قالت :

— مساء الخير .

فقلت بالعربية :

— مساء النور ، يا بدر البدور .

— ماذا قلت ؟

فترجمت لها تحتى بالإنجليزية فابتسمت . وانسابت السيارة وأنا إلى جوارها وقد خيم السكون علينا برهة ، كان كل منا يسعد بالمشاعر اللذيذة التى تمر فى أعماقه ، ولحت شابا راكبا دراجة وقد ركبت أمامه شابة باكستانية فتطلعت إليه . وسبقته السيارة فرحت أرقبها من الزجاج الخلفى ، والتفتت يائمين ورأتهما ، ورأت البسمة التى ارتسمت على شفتى ، فقالت :

— هذا شئ مألوف عندنا .

فقلت والبسمة فى عيني أوضح منها على شفتى :

— خطر فى ذهنى خاطر أضحكنى .

— ما هو ؟

— تخيلت نفسى راكبا دراجة وأنا بهذه الثياب وأنت أمامى بالسارى المزين بالقصب .

فضحكت فى طلاقة ثم قال :

— هذا السارى ليس مزينا بالقصب ، إنه منسوج بخيوط من فضة صنع كشمير .

— هل حدائق شاليمار بعيدة ؟

— على بعد خمسة أميال . هل تضايقت ؟

فقلت فى حرارة :

— ليتها كانت على بعد خمسة أجيال .. ليت هذه الرحلة لا تنتهى أبدا

فقالت وهى ترخى أجفانها :

— شكرا .

— ٢٠٦ —

وساد صمت لذيذ . ثم التفت إليها وقلت :

— لماذا أطلق عليها اسم شاليمار ؟

فاعتدلت وقالت :

— شاليمار كلمة سانسكربتية معناها « جنة الحب » .

فقلت في ابتهاج :

— إننى سعيد ، سعيد جدا .

فقالت مشرقة الوجه :

— وما سر هذه السعادة ؟

— سأدخل الجنة .

فضحكت وقالت في براءة الأطفال :

— سندخلها معا .

— كل ما أرجوه ألا نطرد منها .

وحزرت ما أرمى إليه ، ففاضت بسمتها وأطرقت وخيم علينا السكون .

ترى فيم تفكر ، ليتنى أستطيع أن أقترح هذا الرأس الصغير ، وأرى

ما يجرى فيه .

ووقفت السيارة أمام باب ضخيم بنى بأحجار كبيرة ، وهبطت ياسمين

ووقفت تصلح ساريا وتطمئن إلى أنه يغطي صدرها ، وهبطت خلفها

وأصلحت مشلحى ، وسرنا ندلف إلى « جنة الحب » . كان منظرنا عجيبا

فصوبت العيون إلينا ، وقد ارتبكت أول الأمر ولكن سرعان ما أنستنى ياسمين

والروعة التى أعيش فيها كل ما حولى .

ونظرت إلى الحقائق فاستولى على ذهول ، كانت أروع ما يمكن أن

يتصوره أى خيال منسرح ، الماء يجرى فى أحواض كأنما صنعت من قوارير ، وعلى جانبها خضرة من سندس وإستبرق ، وتفجرت النافورات من أواسط الأحواض فكانت أشبه بمظال من أفواف الفضة ، وارتسمت على سطح الماء حول كل نافورة دائرة من الزبد الأبيض ، وانعكست عليه صور المظال الفضية ، والأشجار الباسقة الياقة ، والجواسق المبنية بالحجر الأبيض والقائمة على أعمدة مستديرة رشيقة ، والعقود التى تنطق بروعة الفن المغولى ، والسماء الموشاة بسحب كأنها الجليد . كانت جنتين : جنة تملأ العين روعة وتأخذ بالألباب ، وجنة فى الماء تعكس الفتنة والإغراء .

وعبق الجو بأريج عطر ، وزقرقت العصفير على الأفنان ، وراح النسيم يداعب الأغصان ، فكان لحفيف أوراق الشجر وزفيف الهواء وقع الموسيقى السماوية التى ترقق النفس وتنعش الروح .

وانتشر فى الحدائق سحر عجيب ، سحر الماضى وروعة التاريخ ، سحر غامض يهز النفوس .

وصمتت ياسمين كأنما تركتني لنفسى أستوعب الروعة ، وجعلت أقلب البصر فى الحديقة وأنا مأخوذ ، وأسير فى الطريق المبعد بين الماء والخضرة وياسمين إلى جوارى ، فأستشعر كأنما أهيى فى عالم من الأحلام .
ملئت غبطة ، وأحسست خفة قمر فى أرجائى ، فالتفت إلى ياسمين وقلت لها :

— لو كان صوتى جميلا ملأت الدنيا غناء .

فابتسمت وقالت :

— وهل كان الغناء وفقا على أصحاب الأصوات الجميلة ؟ كل الناء

يغنون .

— وأنت ؟

— بالطبع . وأنت ؟

— لا أغنى إلا وأنا فى الحمام .

فضحكت وقالت :

— وهل يعجبك صوتك وأنت فى الحمام ؟

— إننى لا أحفظ أغنية واحدة وكثيرا ما أغنى كلاما ليس له معنى ،

وبعد أن أنتهى من الغناء ألوم نفسى خشية أن يكون أحد الجيران قد سمعنى
فيتهمنى بالجنون .

وكنا قد وصلنا إلى سور حسبته من بعيد سور الحديقة ولكن ما إن
دنونا منه حتى لاحت تحته حديقة أخرى أروع من الأولى يهبط إليها فى
بضع درجات ، ويتدفق الماء من مجراه الأول إلى المجرى المنخفض فى هيئة
شلال .

والتفت إلى ياسمين وقلت :

— رائع . أبحث عن كلمة أخرى أعبر بها عن حقيقة مشاعرى فلا

أجد . إن مشاعر الإنسان أضخم من أن يعبر عنها بالفاظ .

ووقفت أنظر صامتا ، ولححت فى وسط الماء جوسقا جميلا ، وقد قامت

عند تقاطع الممرات أربعة جواسق أخرى ، فقلت :

— فهمت أن الجوسق الذى فى الماء للإمبراطور ، ولمن هذه الجواسق

الأخرى ؟

فقالت ياسمين :

— لفرق الموسيقى .. هل عرفت الإمبراطور الذى عاش هنا ؟

— لا .

— إنه الإمبراطور شاه جاهان ، وقد بنى هذه الحديقة سنة ١٦٤٢ ليستريح فيها إذا ما جاء لزيارة لاهور .

وهبطنا في الدرج ، وسرنا حتى إذا بلغنا جوسق الإمبراطور قلت لياسمين :
— لو طاوعت نفسي لشبكت يدي في يدك وجعلت أنا وأنت ندور هنا في مرج إلى الأبد .

فقلت في بساطة :

— بلا موسيقى ؟

— الكون كله يعزف : صفير الرياح .. حفيف الشجر .. زقزقة العصفير .. خرير الماء .. هنا الخلود .

ثم صمت قليلا وغمغمت :

— هنا الله .

فقلت ياسمين :

— ماذا تقول ؟

— إني أرى الله هنا في كل زهرة ، وفي كل ثمرة ، وفي كل شجرة ، وفي كل نسمة .. في الخضرة .. في الزرقة .. في الماء .. في السحاب .. إنه الحياة .. الحياة المتدفقة إلى الأبد .

وسرنا هائمين وهاتف في أغوار نفسي يردد : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك » ، وذابت روحى في الكون العريض ، وملأت خياشيمي روائح زكية ، وداعبت أذنى موسيقى عذبة سماوية .

وبلغنا سورا ثانيا فإذا بحديقة ثالثة أروع من الحديقتين السابقتين ، فأسرعنا

نهبط إليها في الدرج وهيام يملأ أقطار نفسى ، وينابيع الحب تنفجر في أغوارى ،
فتفيض . روحى بمشاعر رقيقة نقية صافية .

والتفتت إلى ياسمين وقالت :

— أنسيت ما وعدتني به ؟

وهبطت من السموات التى كنت أحلق فيها ، وبدأت أفيق من الغيوبة
اللذيذة ، وشعرت بقيود جسمى ، وتنبه ذهنى وصحا بعد أن طغت عليه
روحانيتى ، وقلت :

— أى وعد ؟

— أن تقص على قصة بدر البدور .

ونظرت فألفيت مقعدا على الطريق فقلت لها :

— تعالى نجلس هناك وأقص عليك القصة .

وسعت خطاها ، وسارت أمامى وهى تتلفت فى خفة كأنما تستحثنى على
أن أسرع ، وبلغنا المقعد وجلسنا وقلت :

— أراد أحد الملوك أن يزوج ابنه من ابنة ملك البلاد المجاورة ، ليضمن
بذلك الزواج أن ترتبط الأواصر بين الأسرتين ، فيسيطر على المنطقة السلام ،
ولكن ولى العهد رفض أن يطيع أباه ، وقال إنه لا يتزوج من فتاة لم يرها ولم
يخفق بحبها قلبه ، فثار أبوه عليه وأمر بحبسه فى برج القصر .

وفى نفس الوقت حدث فى بلاد الصين البعيدة ، أن أراد الإمبراطور أن
يزوج ابنته بدر البدور من وزيره الشيخ ، فثار بدر البدور وأبت ذلك
الزواج ، فغضب عليها أبوها وجبسها فى غرفة من غرف القصر .

وجاء الليل ونام ابن الملك فى البرج ، وفيما هو نائم جاءت جنية وجعلت

ترمق جماله في إعجاب ، وسرعان ما جاء جنى آخر فقالت له :

— سبحان الله . انظر إلى هذا الجمال .

فقال الجنى :

— أين هذا الجمال من الجمال الذي شاهدته الآن ! رأيت فتاة كأنها

البدر .

— لا أحسب أن جمالها يبلغ هذا الجمال .

فقال لها :

— سأحضرها إلى ها هنا لترىها .

كانت تفصل بين ابن الملك وبدر البدور بلاد وبحار ، ولكن الجنى أتى ببدر

البدور في لحظة عين وأرقدها إلى جوار ابن الملك .

ونظرت الجنية إليهما وقالت :

— رائعان ، ما خلق هذا الجمال إلا لذلك الجمال . سأوقظ الفتاة لترى

جمال الشاب .

وتحولت الجنية إلى ذبابة ، وراحت تقف على وجه بدر البدور وتطن في

أذنها حتى استيقظت ، فلما رأت ابن الملك النائم إلى جوارها خفق قلبها وأشرق

وجهها ومالت عليه تقبله ، ولكن الجنية جلبت النعاس إلى عينيها ، فرقدت

وراحت في سبات .

ووقفت الذبابة الجنية على وجه الشاب وطنت في أذنه حتى استيقظ ، فلما

رأى الفتنة النائمة إلى جواره ، شغف بها حبا ، وخلع خاتمه ووضع في أصبعها

وأخذ خاتمها ووضع في أصبعه ، وقبل أن يهم بإيقاظ بدر البدور كان النعاس

يمشي إليه ، فراح في سبات .

ووقف الجنى والجنية يتشاوران ، كان من رأى الجنية أن يترك الجنى بدر
البدور للفتى ، ولكنه رفض .
فقالت ياسمين :

— ولماذا يرفض ما دام قد وجد الفتى الصالح للفتاة ؟
— لأنه على الرغم من كونه جنيا كان أعلم بطبيعة البشر . فالعوائق التى
تعترض طريق المحبين تزيد الصبابة وتشعل نار الغرام ، فإذا ما حان التلاقى بعد
الصعاب كان ثمرته شهية ، فالثمرة التى تصعد النخلة لتجنّبها ألد من الثمرة
التي تلتقطها من الأرض .
فقالت ياسمين فى لهفة الأطفال :

— وهل التقى ابن الملك ببدر البدور بعد ذلك ؟
— انتظرى حتى أكمل لك القصة .. حمل الجنى بدر البدور إلى غرفتها ،
وجاء الصباح فاستيقظ ابن الملك يتلفت فلم يجد بدر البدور ، ففرك عينيه ،
إنه لم يكن يحلم ، كانت هنا إلى جواره . ونظر إلى أصبعه فوجد خاتمها ، فهب
قائما وطلب من الحارس أن يطلب له أباه الملك .
وجاء الملك فالتمس منه أن يزوجه الفتاة التى كانت معه فى الليل ، وسئل
الحارس عن تلك الفتاة فأنكر دخول أحد إلى البرج أو خروجه منه ، ولكن ابن
الملك أصر على أن فتاة كفلقة القمر أمضت الليل معه ، وأنه لن يتزوج غيرها ،
وعرض على أبيه خاتمها .

واستيقظت بدر البدور من نومها وطلبت من أبيها أن يزوجه الفتى الذى
أمضى الليل راقدا إلى جوارها ، وأنكر أبوها قولها واتهمها بالجنون ، ولكنها
أبرزت له خاتم الشاب الذى تركه فى أصبعها .

ومرض ابن الملك ، ومرضت بدر البدور واشتد مرضها ، فأعلن أبوها الإمبراطور أنه يزورها من ينجح في علاج مرضها .
ودخل الأطباء عليها ، ولكنهم باءوا جميعا بالإخفاق .
وبعث بدر البدور إحدى وصيفاتها تجوب الأرض بحثا عن صاحب الخاتم ، فطفقت تنتقل من مملكة إلى مملكة حتى وصلت إلى مملكة الحبيب .
وسمعت هناك أن ابن الملك مريض ، وأن الملك قد وعد بجائزة ضخمة لكل من ينجح في علاجه .

أحسّت الوصيفة بعد أن سمعت أوصاف ابن الملك أنه بغيتها ، فتقدمت إلى القصر وسمح لها بزيارة ابن الملك . فلما دخلت عليه قدمت له خاتمه ، فما إن رآه حتى قام معافى يسأل في لهفة عن صاحبتة ، فقالت له الوصيفة ، إنها في خدمته حتى تضع يده في يدها .

واستأذن الفتى من أبيه في السفر ، فأذن له ، فانطلق على جناح الغرام إلى بلد حبيبة الفؤاد . ودخل الفتى على الفتاة فلما رآته قامت من فراش المرض تقبله وتعانقه . وانتهت القصة بزواج ابن الملك من بدر البدور ابنة إمبراطور الصين .

فقالت ياسمين مشرقة الوجه :

— قصة غريبة !

لم أكن أدرى أقصة بدر البدور هذه ، أم هي قصة نسج أطرافها من خيالي ، ورحت أقول :

— إنها أمنيات الأجيال الماضية .. ولكنها ليست غريبة الآن . فهي تتحقق

كل يوم .

— كيف ؟

— كل يوم يحمل الجنى مئات الرجال والنساء من قارة إلى قارة أخرى ،
ويعقد أواصر الصداقات بين أناس ما كان لهم أن يلتقوا أبدا . فأنا مثلاً حملنى
الجنى من بلاد بعيدة إلى هنا لتتاح لنا الفرصة أن نلتقى فى شاليمار .

فقلت وهى تضحك :

— ولكن لم يحملك جنى ، حملتك الطيارة .

— سمها ما شئت من الأسماء .

وصمت قليلاً ثم قلت :

— ألا يوجد عندكم مكان يتمنى المرء عنده فيتحقق له ما يتمنى ؟

— ماذا تريد أن تتمنى ؟

— أن تنتهى قصتنا كما انتهت قصة ابن الملك وبدر البدر ، أن يحملنا الجنى
إلى البيت السعيد .

ولم تجفل ياسمين ولم ترتبك .. حسبتنى أمزح ، وما دار بخلدنا أننى كنت
صادقاً فى كل ما أعرض ، قالت وهى تضحك :

— تريد أن تحمل معك تذكاراً حياً من لاهور ؟

وهممت أن أبثها لواعج نفسى .. أن أعترف لها أن قلبى خفق لها منذ وقعت
عليها عيناي .. ولكننى كبحت جماح رغبتى المتأججة فى صدرى ، فقد كنت
مقبلاً على قرار خطير يقوض كل ماضى ، وبينى صرحاً جديداً للمستقبل ،
فقلت ملمحاً :

— أريد أن أعود بقلبى .

فتلفتت حولها ثم نهضت وهى تقول :

— سرقنا الوقت وهجم الظلام ، هيا نعود .

وسرنا صامتين ، وإن انقلب جوفى إلى بركان ثائر فائر بالمشاعر المتصارعة
 المتلاطمة المتشابكة المتضاربة . وهب عقلى متحفزا يقبض بيد من حديد على
 عواطفى المتمردة .. إنه صارم جبار لا يرحم . حتى لسانى ثقل تحت ضغطه ،
 وعجز عن أن يدور .

وركبنا السيارة وانطلقت بنا ، وراح هامس فى أغوارى يحرصنى على
 مكاشفتها بحبى فقد يكون هذا آخر لقاء بيننا ، وكدت أستجيب له أكثر من
 مرة ، لولا ذلك الجبار القائم فى رأسى يزجرنى وينهاى .
 والتفتت ياسمين إلى وقالت :

— دعوتنى اليوم وقد استجبت لدعوتك ، وأظن أنه أصبح من حقى أن
 أدعوك ، هل أنت مرتبط بموعد غدا ؟
 فقلت فى لطفه :

— أبدا .

— سأمر عليك غدا فى الخامسة مساء لأحملك إلى البيت .

فقلت وأنا أبتمسم :

— البيت السعيد ؟

فقلت متلهلة الوجه :

— إلى بيتنا ، ولا أدرى أهو سعيد أم لا . لقد حدثت أُمى عنك .

— وماذا قلت لها ؟

فقلت وهى ترنو لى فى مرح :

— أشياء قد لا تسرك .

— ٢١٦ —

— أى شىء تقولينه يسرنى .

وخمد البركان الثائر فى أغوارى ، وأرخى عقله عضلاته ، فأمامنا فسحة من الوقت نفكر فيها وندبر . وأشرق روحى فقد أضاء منار أملى ، وراح يبدد بنوره الظلمات التى أخذت تتراكم فى نفسى .

٢٨

ووقفت السيارة أمام دار الضيافة فهبطت منها وأنا أودع ياسمين وأذكرها بموعده الغد ، وانسبت فى الحديقة مرحة وصعدت فى الدرج قفزاً حتى أوشك مشلحى أن يطير فى الهواء .

ودلفت إلى غرفة الاستقبال فألفيت مصطفى وسامى ومجدى وعقيل ، فدنوت من مصطفى وسألته همساً :

— أين الدواء العجيب ؟

فقال مصطفى وهى يتسم :

— أخذ الصديق الإعلان وذهب ، فلا عاد ولا أرسل الإعلان .

فقلت له فى لهجة جادة :

— لقد تيقنت الآن أن مفعول الدواء أكيد .

فقال فى لهفة :

— كيف ؟

— جربه صديقك فأفاد معه ، فلم يجد عنده وقتاً يأتى إليك فيه .

فابتسم مصطفى وقال :

— ٢١٧ —

— كنت أعول كثيرا على هذا الدواء .

— قد تجده عند عودتنا إلى كراتشي .

— بالله لا تجعلني آمل فيما لا أمل فيه .

— الحياة أمل .

فقال وهو يقهقه :

— الحياة كفاح .

فقلت :

— كفاح إلى الموت .

فقال وهو يعبس :

— بالله لا تذكرنا بالموت فما تزال زوجتي صغيرة .

— كم سنها ؟

فقال بالإنجليزية التي ينطقها نطقا فرنسيا :

— سبعة عشر ربيعا .

— وهل أنجبت منها ؟

— لا .

— وهل لا تزال عذراء ؟

فقهقه وقال وهو يدفعني في صدري :

— يا خبيث .

وقال مجدى :

— بالله تأتى معنا الليلة .

فقلت :

— إلى أين ؟

فقال سامى :

— إلى حيث تعلم . جلسة غير بريئة .. إنك تقول إنك تسبح الله حتى فى
ماخور ، فتعال تعبد .

— يا ليت : إني كلما اقتربت من المعاصى ازددت قربا إلى الله ، ولكننى
أريد الليلة أن أنفرد بنفسى .

فقال عقيل :

— ما أكثر ما تنفرد بنفسك ، ألا تضيق بهذه الوحدة ؟

فقلت وأنا أبتسم :

— أبدا ، يسرنى أن أنفرد برجل عاقل .

فقال عقيل وهو يقلدنى :

— وقار .

فنهضت وأصلحت هندامى ثم قلت :

— وقار .

وسرت أغادر الغرفة ، فقال مجدى :

— إلى أين ؟

— إلى النوم .

— ألا تتعشى ؟

— شكرا .

وغبت فى غرفتى ، واستلقيت على السرير وأطلقت لخيالى العنان ،
وتأهبت للمعركة الفاصلة التى بدأت طلائعها تزحف إلى جوفى .

اضطرب نفسي ، وخفق قلبي ، واحتلت صورة ياسمين ذهني ، وراحت
عواطفى تتحدث فى حماسة ، وتقول إننى عشت السنين الطويلة وأنا محروم .
أفنيث زهرة شبلى فى سبيل زوجتى وأولادى ، ضحيت بكل شئ
لإسعادهم ، أنفقت عليهم فى سخاء وبخلت على روحى ، تعبت ليرتاحوا ،
تأملت لأحمل عنهم الألم ، سهرت ليناموا ، تغربت ليستقروا ، أشعلت النيران
فى كياني لأنير لهم ظلام الطريق ، سالت عبراتى فى جوف الليل وأنا أبتهل إلى
الله أن تكون دموعى كفارة عن دموعهم .

أحببتهم من كل قلبى ، وما يزالون مهجتي وقرّة عيني ، ولكن أما أن لى أن
أسعد ، أن أنعم بما بقى من حياتى ، أن أعيش إلى جوار من هفا إليها قلبى . إننى
ظمان والرى قريب ، أسير فى الليل السرمذ ومفتاح النور فى يدي ، تنطفئ
روحى وزيت الحياة معى ، أموت مقرورا ولا يحجب الشمس عنى إلا ستار
رقيق . حرام على أن أحكم على روحى بالعدم ، حرام على أن يضيع ما بقى من
عمرى هباء ، حرام على أن أبقى على ظهر الأرض وأنا ميت ، يجب أن أعيش
ما دمت حيا ، وأن أعيش كما ينبغى أن أعيش .

خفق قلبى كجنّاح حمامة بعد أن عكف يدق دقاته الرتيبة كأنه ساعة
تخصى على شهيقى وزفيرى سنين وسنين ، وعرفت روحى البهجة بعد أن
كانت القهقهات الجوفاء تبعث منى كقعقة الصفيح ، وتدفق ماء الشباب فى
عروقى بعد أن كادت تيسسها رواسب الزمن .

كنت أشعر أننى وحيد وزوجى وأولادى حولى ، فإذا بها تملأ الدنيا على
وتشعرنى خاننا دافقا وعالما متجددا وأملا متفتحا وخلودا ماله حدود . لقد
ولدت من جديد .

أحببت ، وإنه شيء جميل أن نحب ، وأجمل ما في الوجود أن نقطف ثمار ذلك الحب وأن نرشف رحيقه المعسول . سأنتقل في الطريق الحبيب ولن أند هناعتي ، ولن أكم أنفاس سعادتي بيدي .

أريد ياسمين ، أريدها حللا نقية خالصة لي ، فالحرام ليس لي فيه . لن أرتكب إثما ، ولن آتي أمرا إذا ، ولن أكون أول من اتخذ له زوجة ثانية ، ولن أجدش الناموس .

ضحيت وضحي كثيرا ، وإنها لأنانية أن يطلب مني أن أضحي وحدي دون أن يضحوا ولو قليلا في سبيل سعادتي .

تأملت وتأملت كثيرا ، فلماذا لا يتحملون قليلا من الألم قربانا لهناعتي ؟ بكيت وبكيت كثيرا ، فلماذا تجزعني مجرد فكرة أن تطفر من مآقيهم الدموع ؟

أمامهم آمال عريضة ، وهذا أمل الأخير .

أأضرب في صحاري الحياة حتى نهايتي وسبيلي مفروش بالورود ؟! أأستقر في سفير الحرمان وجنة الحب وارفة الظلال ؟! أأئن أنين المجرع وإن هي إلا خطوة واحدة بيني وبين بلسم الروح ؟!

سأزوج ياسمين ، وإنني لقادر على أن أفتح بيتين وأغذي فرعين ، ولن يخسر أبنائي شيئا فسأمدهم بمال وفير ييسر لهم أن يسيروا في قافلة الزمان آمين .

أعلم أنه ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان .. إنهم في حاجة إلى العطف والحنان .. إلى غذاء الروح ، إنهم يعيشون الآن بعيدا عنا بلا عطف ولا حب ، فإذا ما تزوجت ياسمين وعادت إليهم أمهم فستغمرهم بالحنان وتغذيهم

بالحب . وما أسرع أن يشبوا عن الطوق ويتلفتوا منقبين عمن يغمرونه بالحب
المذخور في الصدور . إنهم كدلاء الساقية يستنزفون حبنا ليرروا به قلوبا غير
قلوبنا .

ما بال أمر فروعى يقلقنى ؟ ما بال أشباح أبنائى تزلزل كيانى وتهدد الهناء
المأمول ؟ لماذا أصيخ سمعى لضعفى وأكاد أستجيب لأوهامى ؟ لا . إن نبع
حنائى ليس وقفا على أبنائى وزوجتى . إنه نبع زاخر لن ينضب لو اغترفت منه
ياسمين ، بل سيربو ويزداد غنى وقوة بالينابيع الفتية التى سيفجرها الحب
الجديد .

من حقى أن أسعد ، أن أهنأ ، أن أحصل على كل لذة تفتق أكمام كيانى
وتوسع أمامى آفاق الوجود . آه لو كنت مثل ممدوح أسينغ الحرام إساعة
الحلال ، لما ترددت فى أن أروى ظمئى وأستريح .

لا ، ما كان هذا الوصال ليشفى غلتى حتى ولو كنت كممدوح ، فما
يمثل ذلك الوصال يطفأ ظمأ الروح .

سأصم أذنى عن همسات الحنان الخوار ، ولن أضحى بهناءقى على مذهب
الأوهام ، ولن أحرق حياتى قربانا لمعبود ليس له وجود . سأتزوج ياسمين ...
سأتزوج ياسمين .

وزوجتى التى هجرت فراش مرضها واغتربت معى لتمسح بحنائها آلام
صدرى ، وتحمل على أكتافها الواهنة نصيبها من عبثنا المشترك . وتساهم معى
فى بناء عشنا وتهيته لتمضى فيه شيخوخة هائلة ، أأطعنها بيدي ؟! أهون عليها
أن يحمل إليها نعيى من أن يقال لها تزوج .

أهجرت فراش مرضها لتقوم بنصيبها فى الكفاح حقاً؟ أوضعت أبنائها فى

كفة ووضعتني في كفة فرجحت كفتي ؟ هيات أن يكون هذا .. إنها تغار على من النسيم ، خشيت أن أفلت منها فجاءت معي لتقبض على يدي من حديد .

سيجرح نبأ زواجي كبرياءها ، ولكن ما أسرع ما يندمل جرحها ، ولن ينكأه رؤيتها لياسمين فلن تراها أبدا ، ستعيش في بلد وسأعيش مع ياسمين في بلد آخر يفصل بينهما بحر زخار .

ما أكثر الرجال الذين يسقطون صرعى في منتصف الطريق ويتركون أسرهم بلا عائل ولا نصير فلتحتسبني زوجتي ولتعدني في زمرة الأموات ، وإن كنت ميتا يرتجى خيره فلن أبخل عليها ولا على أبنائها بالمال الوفير . ليتهم يعرفون فيعذرون .

وياسمين ، أتقبل أن تتزوج من رجل مثلي تجاوز الأربعين لم تمض على معرفتها له أكثر من ثلاثة أيام ؟ رجل له زوجة وأولاد ؟! وإذا قبلت ذلك أتقبل أن تهجر وطنها لتذهب معه إلى بلد ليس بوطنه وكل صلته به صلة عمل ستفصم يوما ما ؟

قلبي يحدثني أنها ستقبل ، ولكن أهلها ماذا يقولون ؟ سأسألها غدا هل تقبلني زوجها ؟ فإن وافقت فاتحت أمها في الموضوع . آه لو تزوجت ياسمين لكنت أسعد رجل في الوجود .

وهدأت نفسي وصفت روحي وغمرتني سعادة ، وراح قلبي يخفق في حب ، وفجأة سرى في أرجائي صوت حنون يردد :

— من أكل البان ، وتزوج من بنات الكردستان ، نسي الأهل والأوطان .

ووافى موعد اللقاء وأنا واقف بشيبي العربية في الطريق أمام قصر الضيافة ،
وعيون الغادين والرائحين ترمقني في إجلال . وأقبلت سيارتها من بعيد
فأحسست ديب التمل يسرى في بدني ، وخفقانا لذيذا يتردد في جوفى ،
وينابيع من النشوة تنبثق في أعماق ، ودم الشباب الفوار يتدفق في عروقي ،
وغبطة تسرى في من الرأس إلى القدم .

ووقفت السيارة أمامي ، وفتحت بابها ونظرت فألفيت ياسمين في
« سارى » في زرقة السماء وقد تزينت وأبرزت فتنها وأسرفت في تجميل
نفسها ، كانت تتألق كأنثى ، وملاً عبيرها أنفى فدار رأسى .
ارتاح فؤادى وامتلاّت ثقة بنفسى ، تيقنت أنني كنت في فكرها طوال
الساعات الطويلة التي جلستها أمام المرأة .

وقلت وأنا أصعد إلى السيارة وعيناي ترنوان إلى عينيها :

— مساء الخير يا ياسمين .

فقلت وهى تبسم :

— مساء الخير يا ابن الملك ، لماذا لم تحينى التحية العربية ؟ إنها لطيفة .

فقلت بالعربية :

— مساء النور يا بدر البدور .

فأشرق وجهها وقالت :

— فكرت بالأمس طويلا في قصة بدر الدور فلم أجد لبدر الدور أما تعطف عليها . ولم أجد لابن الملك أما تواسيه وتفهم حقيقة مشاعره وتقف إلى جواره في وجه قسوة أبيه .

— أظن أنه ليس من كرامة الملك في ذلك العصر أن تقف الأم في وجه الملك وتعارضه في شيء أبرمه حتى لو كان ما أبرمه يتعلق بفائدة كبدها .
فقلت في امتعاض :

— هذه قسوة أن يفرض الأب أو الأم سلطانه على قلب ابنه أو ابنته ، إنها مصادرة لأقدس حرية ، حرية الحب .
— قسوة يملها الحنان .

— أي حنان هذا الذي يجبر إنسانا على أن يعيش مدى حياته مع من لم يخفق بحبه قلبه !

— يحسب الأب أو الأم أنه أدرى بمصلحة ابنه أو ابنته من الابن أو البنت ، فيحاول أن يفرض قسرا ما يعتقد أن فيه مصلحة محققة .
— لماذا لا يترك الشاب أو الشابة إلى نفسه ما دام قد رشد ؟ .

— يزعمون أن الشباب طيش واندفاع .
— وما رأيك أنت ؟

— رأيي أن الطيش والاندفاع في الشيوخ وفي الشباب على السواء .
فقلت وهي تشمخ بأنفها الدقيق :

— لا أحسب أنني أعالي إذا قلت : إنني قادرة على أن أعرف أين مصلحتي .

فقلت لها وقد ازداد قلبي خفقانا وتهديج صوتي بعض الشيء :

— لو تقدم إليك شيخ متزوج وله أولاد وطلب يدك ، أتقبلينه ؟

وتعلقت عيناي بشفتيها .. قالت في صوت خافت :

— لو تيقنت من أنه يجبنى لا أرفضه .

فقلت لأزداد توثقا :

— أترضين أن تكوني زهرة ثانية ؟

ف قالت وهي تبسم :

— أغلب الزهرات التى رأيتن فى حفلاتنا زوجات لشيخ سبق لهم أن

تزوجوا .. ومع ذلك فهن سعيدات فى زواجهن .

— وإذا طلب منك أن تسافرى معه إلى بلاد بعيدة عن بلادك ، أتقبلين ؟

ف قالت دون تردد :

— الزوجة تتبع زوجها أينما ذهب .

وازداد وجيب قلبى .. الثمرة دانية .. كلمة واحدة تفتتح أمامى بعدها

أبواب السعادة . وكاد لسانى يتحرك بها ولكن عقلى الجبار المستبد هب يكبح

جماحى ويسيطر على ، واستقر رأيه على أن يدور حول الموضوع ، أن يعرف

كل شئ دون أن يرتبط بشئ ، فقلت :

— لو تقدم إليك رجل مثلى له زوجة وأولاد يحبهم ، وعرض عليك أن

تذهبى معه إلى بلد لا تقيم فيه زوجته ولا أولاده ، أتقبلينه زوجا لك ، ولو

كانت معرفتك به لا تزيد على معرفتك بى ؟.

وقالت دون تردد أو تفكير وقد توجت شفتيها بسمه هزتنى هذا :

— لو كان مثلك لرحبت به .

كان حديثها غذاء لروحى فأحسست وأنا إلى جوارها أنى أتبدل ، أن

(وكان مساء)

شبابى يعود إلّى .. وساوس الطيش تنبت فى رأسى .. ذراعى تكاد تتحرك
لتلف خصرها ، وقلت :

— ألا يحول بينك وبينه حبه لأولاده ؟

وشردت أفكر ، وكأنا أحست بغريزتها خطورة ما بدأت أفكر فيه فقالت
لتنثّلنى من خضم الأفكار التى شرعت أسلحتها فى وجه آمالنا :

— متى ستحملك الجنية من هنا ؟

— بعد يومين .

فقالت وهى تتنهد :

— ما أضيق الزمن !

فقلت وأنا أبتسم :

— ما أكثر الأشياء التى يمكن أن تقضى فى يومين . الأحداث التى تغير

وجه التاريخ لا تستغرق لحظات .. كلمة تقال .. رصاصة تطلق .. قبلة ذرية

تلقى على الغافلين .. قدر ينقض .

فقالت وقد اتسعت عيناها وضمت الهواء إلى صدرها :

— أليس هناك مكان لسعادة البشر ؟ رصاص .. قنابل .. قدر منقض ؟

فابتسمت وقلت :

— ثروة تهبط من السماء .. قلب يتفتح للحب .

فعادت الإشرافة إلى وجهها وقالت :

— أجمل ما فى الحياة تفتح القلب .

ودلفت السيارة من باب واسع ، وسارت فى ممر بين الحشائش الخضراء ،

ثم وقفت أمام دار بيضاء أنيقة مكونة من طبقتين ، فى الطبقة العليا شرفة فاخرة

كبيرة تطل على الحديقة المنمقة الغناء .

وأسرع خادماً يرتدى سروالاً أبيض فوقه قميص أبيض طويل ، وقد ارتدى فوق القميص صداراً من صوف أخضر ، وعلى رأسه عمامة مكورة كبيرة ، وطالت لحيته وشاربه ، ومد يده وفتح باب السيارة ، وهبطت ياسمين وأنا خلفها ، وأصلحت سارنيا وأصلحت مشلحى ، ثم دلفنا معا من باب الدار : وصعدنا فى الدرج الأنيق جنباً إلى جنب ، وبلغنا الطبقة الثانية ، وقادتني ياسمين إلى غرفة استقبال فخمة انتشرت فيها أرائك مذهبة وفرشت أرضها بسجادة عجمية كبيرة رائعة ، وتدلت من السقف ثريا كلها من بلور ، وانبعث النور من مصابيح ثبتت فى أركان الغرفة وغطيت بأغطية زجاجية ملونة ، فانتشر الضوء خافتاً شاعرياً يعاون على الشرود الحالم اللذيذ .

ووضعت على نضد بعيد بعض صور و « أبا جور » مصنوع من جلد الجمل ، وزين الحائط المقابل لى ببعض سيوف وأسلحة نارية قديمة ، وصورة رجل فى ثياب عسكرية هندية .

ولتحتنى ياسمين وأنا أديم النظر فى الصورة ، فقالت فى زهو :

— بابا .

وجلست على مقربة منى ، وطفقت تتلفت ناحية باب يصل غرفة الاستقبال بالداخل ، فحزرت أن أحداً قادم ، فأخذت أجمع شتات نفسى وأتأهب لذلك اللقاء .

ومس أذننى نقر خفيف على الباب ، فالتفت فإذا بسيدة ترتدى ساريا من فضة فى لون الذهب تتقدم منى ، فانتصبت واقفاً لاستقبالها ، ولما دنت منى قفز قلبى فى صدرى حتى كاد يفر من فمى ، وتدفقت الدماء حارة فى عروقى ،

وذهبت نفسى شعاعا . كانت مفاجأة لم تخطر لى على بال ، فما وقع فى خلدى أبدا أنتى سأجد نفسى يوما ما أمام فاطمة وجهها لوجه ، وأين ؟ هنا فى لاهور .. ومتى ؟ بعد عشرين سنة من النراق .

إن حياى سلسلة من المصادفات ، ولكننى ما كنت أحسب أن المصادفات قد تنجح فى تدبير مثل هذا اللقاء . إنها قمة المصادفات فى حياى ، أراد القدر أن ينظم باقى قصيدة حياى البتراء ، أن يكمل اللحن الناقص ، وأراد أن يدل على عبقريته فلم تكن القصيدة من بحر واحد ، ولم تكن نغمة اللحن متسقة ، فقد جاء الزمن يتم عمله الفنى الناقص بعد أن شاخ !

من يصدق أن الصدفة حملتنى للسعودية ، وأن الصدفة اختارتنى عضوا فى البعثة الاقتصادية ، وأن الصدفة قادتنى إلى لاهور . وأن الصدفة وطدت الصداقة بينى وبين ياسمين لتدعونى إلى دارها ، لألقى فاطمة هنا ؟

قابلت زهرات أنضر من ياسمين وأشد أسرا ، ولكن روحى لم تهف إلا إليها . لماذا ؟ لأنها ستقودنى إلى فاطمة ، لا . إن مصادفات حياتنا ليست عبثا ، إنها مصادفات عاقلة مدبرة .

نقبت عن فاطمة فى كل مكان دون جدوى ... بحثت عنها هنا وهناك حتى تقطعت أنفاسى ، سألت عنها هذا وذاك ، ولكن لم يشف أحد غلتى . اختفت فجأة كأنما انشقت الأرض وابتلعته ، لقد آن الأوان لترفع الأسجاف عن السر الوحيد الغامض فى حياى .

ومدت يدها إلى مصافحة ، ومددت إليها يدى وأنا أرتجف ، حبس صوتى ودار رأسى وأحسست كأنى فى دوامة ، وقالت ياسمين تعرف أحدنا بالآخر :
— ماما .. ابن الملك .

— ٢٢٩ —

وابتسمت ياسمين وابتسمت الأم ، ووجدت لسانى فقلت :

— بل الملك نفسه .

قالت الأم :

— حدثنى ياسمين عنك كثيرا .

— ترى ماذا قالت ؟

وقالت الأم ونحن نتأهب للجلوس :

— قالت إنك تجيد الكلام وإن حديثك ينفذ إلى قلوب العذارى .

فالتفت إلى ياسمين فوجدتها لأول مرة تطرق حياء ، وقلت :

— شكرا لهذا الإطراء وإن كنت لا أدرى ماذا يكون رأيها لو كثر ترديد

كلامى على مسامعها . لكل جديد لذة ، ومن حسن حظ الشباب أن كل

شئ بالنسبة إليه جديد ، كل ما يسمعونه جديد ، كل ما يفتتح أمام أعينهم

جديد ، كل من يحسونه جديد .

فقالت الأم وهى تبتسم :

— وما رأيك فيمن يجد جدة فى كل ما يسمع وما يرى وما يمارس ؟

فقلت وأنا موزع النفس أفكر فيما أفعله ، وأسأير الأم فى حديثها :

— هذا صاحب شباب متجدد .

وأقبل الخادم يحمل صينية عليها أكواب بها عصير الليمون ، فوجدت

فسحة من الوقت لألتقط أنفاسى وأسيطر على أعصابى ، وشربت العصير

ومددت يدى إلى جيب جلبابى الصوفى وأخرجت قلما وورقة ، والتفت إلى

الأم وكتبت فى الورقة اسمها بحروف لاتينية ودفعت إليها الورقة وأنا أقول :

— أهذا اسمك ؟

وأسرعت ياسمين إلى الورقة وراحت تقرأ بصوت عال :
— فاطمة .

وقالت الأم وقد رفعت حاجبها الأيمن :
— لا بد أن ياسمين ذكرت اسمي أمامك .
فقالت ياسمين وقد اتسعت عيناها :
— أبدا لم يحدث شيء من ذلك .

وبدأت أسيطر على الموقف فقلت في هدوء :
— ورثت العرافة عن أهلي ، كان جدودي من العرافين القدامى الذين
عاشوا في الجاهلية وصدر الإسلام . إنني أستطيع أن أقرأ ماضيك كأنما أقرأه
من كتاب .
فقالت في إنكار المصدق :

— محال .

كنت واثقا من أن فاطمة لن تستطيع أن تكشف أمرى ، فما وقع في
خلدها أن تراني بعد عشرين سنة في ثياب عربية وقد أطلقت لحيتي وتسلسل إليها
الشيب . إن زوجتي نفسها أنكرتني لما رأتني في هذه الثياب ، فقلت :
— هاتي كفك وأنا أروى لك كل شيء عن حياتك .

ومدت إلى كفها وأمسكتها بيدي . ولم يخفق قلبي ولم تسر قشعريرة في
بدني ، وكان مجرد مداعبة شعرها لوجهي يرهف حواسي ، وكان طيفها الزائر
يزلزل كياني ، وتفرست في كفها ثم نظرت إليها وقلت :
— لست من هذه البلاد ، أصلك من بلاد قرية من هنا .
وعدت أتفرس في كفها مرة أخرى وقلت :

— من إيران على التحديد ، ولكنك ولدت بعيدا .. فى قارة ثانية يجرى فيها
نهر كبير ... إن مسقط رأسك مصر ، بل القاهرة بالذات .

ورفعت رأسى وقلت :

— ما رأيك ؟

فقلت ياسمين فى حماسة :

— مدهش .. غريب .

وقالت فاطمة وقد بدأ القلق يساورها ، خشيت أن يفضح كفها أشياء
لا تحب أن تعرفها ابنتها :

— لعل ذلك مصادفة . لا أصدق أن الكف تروى كل هذه التفاصيل .

فقلت فى خبث :

— إننى أرى فى كفك أدق أسرار حياتك ، ولن أروى إلا الخطوط
العريضة ، ولن أتعرض للتفاصيل إلا إذا طلبت منى أن أسهب .

وأفرخ روعها وقلت فى هدوء :

— هويت الغناء منذ نعومة أظفارك ، كنت تلعبين على العود ، لك أذن
موسيقية مدهشة ، يكفى أن تسمعى لحنا مرة واحدة لتلعبيه على العود ، وقد
أفادتك موهبة الغناء فى مدرستك وفى الحى الذى كنت تعيشين فيه ، كانت
الفتيات فى المدرسة يتحلقن حولك يصغين إلى عذب صوتك ، وكان أولاد
الحى يتنافسون فى الفوز بك .

ورنوت إليها دون أن أرفع رأسى وقلت :

— ما رأيك ؟

— هذا صحيح .

— أأحدثك عن أسرتك أم أحدثك عن شبابك ؟

فقلت ياسمين في فرح الأطفال :

— عن شبابها .

وقالت فاطمة في شوق :

— ابدأ بأسرتي .

فعدت أظواهر بالتطلع إلى الكف التي ما تزال في يدي ، وأفحص عن

بعض خطوطها باهتمام ، ثم قلت :

— كان أبوك تاجرا ، وكان موسرا ، ولكن أمواله ذابت فترك بلاده وهاجر

إلى مصر . وكانت أمك سيدة فاضلة ، كان لها أطيّب الأثر في جيرانها ، وأخذ

عنها سيدات الحى كثيرا من عاداتها الطيبة ، كانت هى التى سنت لهن تحديد

يوم معين فى الأسبوع لكل سيدة تنتظر فيه زيارة جاراتها ، وأثمر ذلك التزاور

محبة وسلاما .

وكان لك أخوان لهما ميول فنية ، فكنتم أسرة تهوى الفن ، كان أخوك

الأكبر يهوى المبالغات وقص مغامرات قام بها من وحى الخيال ، فلما اشتد

عوده راح يكتب القصص ، وكان أخوك الأصغر يهوى الرسم ، وكنت آخر

العنقود وكنت بارعة فى الغناء .

وكتب عليكم الفراق ، سافرت أولا ثم سافر أخوك الأكبر إلى أوروبا ،

ورحل الأصغر إلى شمال أفريقية .

فقلت مدهوشة :

— هذا شئ محير ، لا أكاد أصدق أن الكف تروى كل هذا .

— أستطيع أن أنبئك باسمى أخويك .

— هات .

وفحصت عن الكف في إمعان وقلت :

— الأكبر زين والآخر بهاء .

ورمقتنى في حيرة وقالت :

— لكأنما كنت تحيا معنا .

واضطربت ، ولكن لماذا اضطرب ؟ إنها لن تستطيع أن تكشفني ،
وما لبثت أن استرجعت رباطة جأشي ، فشتان بين ذلك الشاب الأمرد الذي
عرفته والشيخ الجالس أمامها في ثياب تنكرية ولحية وشارب يعجز عن
صنعها أعظم ما كبير .

وقالت ياسمين في مرح :

— أنت ساحر .

فقلت وأنا أبتسم لها :

— لننتقل إلى مرحلة الشباب .

فقلت ياسمين في بهجة :

— حديثا مفصلا :

فقلت مداعبا :

— من عجائب الصدف أن شباب الأم لا يكاد يختلف عن شباب الابنة .
وصمت قليلا . خشيت أن أتدقق فيكشف أمرى ، آه لو قلت إن الحبيب
واحد ، إذن ، لهُتكت كل الأسرار الغامضة الساحرة التي أستغلها للإثارة
والإذهال .

وبدأت أتحدث عن شباب فاطمة فتهدج صوقي ، وتدفق الدم حارا إلى

(وكان مساء)

رأسي ، وأحسست كأنما صفت عيناى ، فشباب فاطمة شبابى ، قلت :
— تفتحت وأنت فى المدرسة الثانوية وصرت حلم شباب الحى ، ولكنك
كنت غارقة فى نشاطك المدرسى ، كنت عضوا فى أكثر من جمعية ، جمعية
الموسيقى .. المرشدات .. فلاحه البساتين .

وصمت قليلا ثم قلت بالعربية :

— وكنت غارقة فى حب ابن الجيران .. لم يكن زوجك أول رجل فى
حياتك .. فى حياتك شاب كان رفيق صباك .

وانفعلت على الرغم منى ، وأذهلنى ذلك الانفعال وأحسست جفافا فى
حلقي واضطرابا فى أنفاسى ، واكتشفت أننى لو استرسلت لرفعت الغطاء عن
نفسى ، وكنت أؤثر أن أتريث وأن أنتظر حتى أخلو بروحى وأدبر أمرى .
وأقبلت ياسمين على وقالت :

— ماذا قلت لها بالعربية ؟

— قلت لها إن قراءة كفها اليوم أجهدتنى ، واستأذنت منها أن تعفينى
لفرصة أخرى .

فقالت ياسمين فى طفولة :

— ليس هناك فرصة أخرى ، ستغادرنا بعد غد .

فقلت وأنا أبتسم :

— آتى غدا فى مثل موعد اليوم ، إن سمحت يا سيدتى .

فقالت فاطمة فى راحة :

— على الرحب والسعة ، يسرنا أن تشرفنا .

— شكرا .

ودنت ياسمين منى وقالت وهى تبسط كفها :

— وكفى متى تقرأها ؟

— الآن .

ومدت لى كفها فى سرور ، فأخذتها فى يدى ، ونظرت فيها ملياً ثم قلت :

— كف نقية كقلبك .

فقلت فى لهفة :

— ماذا ترى فيها ؟

— طهرا وعفة .

واقتربت منى وملاً عبيرها أنفى ، وقالت وهى تنظر إلى عيني فى توسل :

— قل . تكلم .

— لم يعرف قلبك الحب بعد ، إن ما تحسین به أحياناً هو نزوة من نزوات

الشباب ، أما الحب العميق الجارف فهو فى الطريق ، لن تكونى زوجة ثانية

لرجل غريب ، ولن تحملك الجنیة إلى بلاد بعيدة ، ستزوجين هنا من شاب

يملاً حياتك دفناً وأملاً .

وأسبلت جفניה ، وعلت وجهها غيرة . وصمت ، وساد السكون وكفها

فى كفى ، وقد كنت فى تلك اللحظة أستشعر أنى قابض على كف إحدى

بناتى .

وكأنما أحست أنى لمحت كدرها ، فقلت فى صوت متهدج :

— حدثنى عن مستقبل .. عن كل ما ينتظرنى .

— المستقبل بيد الله .

— قل كل ما تراه ، أريد أن أعرف كل شىء ، حتى أحزانى .

— أعدك أن أقرأ كففك .

— متى ؟ غدا ؟

فقلت وأنا أبتسم :

— بعد عشرين سنة ، بعد أن تكتمل خطوط حياتك .

فقلت في أسي :

— وما جدوى أن تسرد لي ما كان ، أريد أن أعرف ماذا يخبئ لي غدى .

فقلت لها في إشفاق :

— اسمعي نصيحتي ، لا تحاولي أن تهتكي حجب الغيب ، فجمال الغد في

غموضه ، لو عرفنا ماذا ينتظرنا غدا لعافت نفوسنا الحياة .

ونفضت مستأذنا ، وصافحت فاطمة ومددت يدي أصافح ياسمين ، كانت تضطرب وقد كست مسحة من الحزن وجهها ، فلم أضطرب ولم يخفق قلبي .. خبت جميع عواطفى نحوها . تكشفت الحقيقة أمام عيني وانهارت قصور أوهامى كما تذوب قصور الشمع إذا ما سقطت عليها شمس الصباح .

وتحركت فاطمة وياسمين خلفي فالتفت إليهما وقلت :

— كفى أرجوكم ، إننى أعرف الطريق .

وهبطت في الدرج مسرعا وفاطمة تقول :

— غدا في الخامسة مساء ستمر عليك السيارة .

— شكرا .

ووجدت السيارة أمام الباب فاندسست فيها ، وانطلقت بي إلى دار الضيافة وأنا أرجو أن ينتهى الطريق ، كنت متلهفا على أن أنفرد بنفسى لأفكر في

— ٢٣٧ —

مصادفة الليلة التي لا تخطر على بال .

وكان مساء لن أنساه !

٣٠

سرت في حديقة دار الضيافة على أطراف أصابعي ، وانسلت في الردهة الطويلة أسترق الخطأ ، ولم أسمع ركزا في غرفة الاستقبال .. كان الهدوء يسيطر على المكان . ودلفت إلى غرفتي ، وألقيت مشلحي على مقعد طويل ووضعت الغطرة والشطاف على نضد بالقرب من المدفأة ، وأطفأت النور واستلقيت في سريري بجلباني الصوفى .

وزحفت الأفكار إلى رأسي ، وطففت الذكريات على سطح ذهني ، ومرت صور الماضي أمام عيني كشريط سينمائي .. رأيت طفولة فاطمة ، ورأيت نفسي وأنا أنطلق بالسيارة أدور بها في الحى .

وراحت الصور تترى ، وتمهل أمام ذكريات ذلك اليوم الذى دعتنى فيه لحفلة المرشدات ، ورن الحوار الذى دار بيننا فى ذلك اليوم فى أغوارى :

— ما تزال رجل الغابة ، تفكر بعقلية جذك .

— بالعقلية التى تحبها المرأة ، وإن تظاهرت بإنكارها .

— ليست كل النساء سواء .

— كلهن حواء .

— وكل الرجال آدم الساذج الذى أغرته المرأة حتى أخرجته من الجنة .

— الرجال جميعا يعيشون على أمل العودة إلى الجنة .

— جنة الحب !

ويل لى ، كيف لم أفطن ساعة أن كانت ياسمين تتحدث إلّى عن شاليمار وجنة الحب أن التى تتحدث فاطمة !؟ كانت روحى على صواب لما أصرت على أنها قابلت روح ياسمين ، لم يخدعها الجسم ولا الملامح المتغيرة ، ولم يشككها فيما أحست فارق الزمن . لقد التقت روحى بروحها حقا ، وهامت بها حبا ، فروح ياسمين قبس من روح فاطمة التى هفت إليها روحى وخفق لها قلبى خفقة الحب الأولى ، وإنها لأقوى خفقة يخفقها الفؤاد .

وجاء يوم ذهبانى إلى النادى الأهلى فتأملت وانطلقت إلى هناك فى سيارة الأسرة ، وجلست فى المدرج أتلقت ، وبدأ الحفل وتقدمت فاطمة تلقى نشيد المرشدات ، خيل إلى أنها تغنى لى وحدى ، وانتهت من إلقاء النشيد فدوى المكان بالتصفيق فاستشعرت زهوا .

وترادفت مشاهد الحفلة وأنا أتبع فاطمة بعينى أينما سارت ، وأرصد حركاتها الرشيقة وهى ترقص كالطيف رقصا توقيعا بديعا . كانت كملاك . كانت أوهامى تؤكد لى يوم كنت أشاهد استعراض الخيل وياسمين على بعد خطوات منى ، أننى التقيت وياسمين فى ميدان من ميادين الرياضة ، وراح خيالى يطوف العصور الفرعونية والرومانية والعربية ، وطفقت أفكر فى تناسخ الأرواح وأسطح بعيدا ، وما وقع فى خلدى أننى ألتقيت بياسمين يوم التقيت بفاطمة فى النادى الأهلى .. حقا من ينبج لا يموت !

وانتهت حفلة المرشدات ، وهرعت إلى فاطمة فألقيتها تكاد تطير من الفرح ، فقد حازت جوائز كثيرة ، وسمعت إطراء لصوتها من الجميع . ترى هل فطنت روحى إلى أن ياسمين هى فاطمة لما راحت تؤكد لى أنها تهوى

الموسيقى وتجيد الغناء ؟

وسرنا نشق الجموع ونحن في طريقنا إلى السيارة ، والأنظار تلاحقنا ، وأصوات بعض الشبان تمزق طبلة أذنى وتثير أعصابى ، كانت عبارات الإطراء المتدفقة من أفواههم تجرح كبريائى وتجعل الدم الحار يتدفق إلى رأسى .

وجلست خلف عجلة القيادة وفاطمة إلى جوارى ، وانساب بنا السيارة فوق جسر قصر النيل ، وظللنا صامتين وقد أسدل الليل أستاره وسيطر علينا السكون . كانت فاطمة مفعمة بالغبطة تجتر ذكريات اليوم السعيدة ، وكنت أفكر فى فاطمة .

وقبل أن أصل إلى دارها وقفت على ناصية الطريق ، والتفت إليها وقلت :
— لم يبق على تخرجى فى الجامعة إلا بضعة أشهر وبعدها تنزوج .

ولم تنبس بكلمة وملأت مآقيها الدموع ، فضممتها إلى صدرى وقبلتها قبلتنا الأولى التى ظللت أحس طعهما زمنا طويلا .

وتخرجت فى الجامعة ، وتعاهدت أنا وفاطمة على الوفاء وعلى ألا نسمح لأى قوة مهما كانت أن تفرق بيننا ، حتى الموت سيقهره حبنا .
ولكنها اختفت فجأة بعد أن انهارت جميع الحواجز التى كانت تعترض سبيلنا ، وعرفت أنها تزوجت .

وعشت حزينا أطوى نفسى على حطام قلبى وتنزروحى الصاب ، وغفت الآمال ، وسرت أضرب فى بيداء الحياة بلا هدف .

والتأم جرح نفسى على الأيام وبلى حزنى وبدأت أتفتح للحياة ، وعاد قلبى يخفق مرة أخرى فى قوة ويلتمس الغذاء ، فكان أن تزوجت ، وسارت حياتى ناعمة سعيدة لا إرهاصات ولا انفعالات تهز كيانى ، وإن كان يعكرها أحيانا

فكرة أن فاطمة خانتني وهزأت بي .

تري لماذا هجرتني ؟ لماذا حطمت قلبي ، أرغموها على الزواج من رجل لا تحبه ؟ وإذا كانوا أرغموها على الزواج فلماذا لم تفزع إلى ؟ لماذا لم تهرع إلى تبكي على صدرى ؟ وهذا الرجل الباكستاني أين قابلها ؟ ومتى أحبها ؟ وكيف قبل أهلها أن يزوجوها منه ؟ لست أدري . سأذهب إليها غدا لأعرف منها ما غمض على .

ماذا سيعود على لو عرفت كيف تزوجت ولماذا زوجوها منه ؟ لقد تزوجت وتزوجت ، وسعدت في زواجي وأنجبت أبناء ، ولا أدري إذا كانت سعدت في زواجها ولكنني على يقين أن ياسمين عندها أغلى من الحياة . كانت إلى جوارى لا يفصل بيني وبينها فاصل ، وكفها في كفى ، وعلى الرغم من ذلك لم يحقق قلبي ولم تضطرب نفسي ولم أهف إليها ، بل أحسست إحساسا غامضا يحرصني على الانصراف .

أحقا أحببتها يوما وحسبت بعد فقدانها أن لا حياة لي بدونها ؟

— إنها لا تزال جميلة ، بل قد تكون أجمل من زوجتي ، ولكنها ليست الطراز الذى يستهوينى اليوم ؛ فزوجتي أقرب إلى قلبي منها ، ولو ترك لي أن أختار بينهما ما ترددت لحظة في اختيار زوجتي ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخترت ما وقع ، وما رضيت بغيره بديلا .

فرقت بيني وبينها مصادفة وجمعت بيني وبين زوجتي مصادفة أخرى ، أصبحت أو من أن ليس هناك حوادث وليدة الصدفة ، بل هناك حوادث نتيجة تدبير محكم عاقل ، يمد خيوطه الواهية لينسج منها أقدار البشر ، يوجه كل فرد لما هو ميسر له .

أأذهب غدا؟ ولماذا لا أذهب؟! لماذا أنكص على أعقابى وأفر.. لا خوف على من الذهاب ، سأصغى إلى تكملة اللحن الناقص ، وأستمع إلى تنمة قصيدة حياتى البتراء .

وفكرت فى ياسمين بعد أن ارتفعت الأسخاف التى كانت مسدلة بينى وبينها ، أحبتها حقاً ؟ أبدا . لم يخفق قلبى بحبها ولكنه خفق للأيام الخوالى . أردت أن أتشبث بشبابى الذى يتسرب من يدى ، وأن أغمض عيني عن الشعرات البيض التى نبتت فى شعرى ولحيتى معلنة راية التسليم البيضاء لشيخوختى الزاحفة .

كيف غاب عن ذهنى فى غمرة النشوة الوليدة أن الشباب لا يعود ، وأن أو ان دقائق القلب الطائشة قد ولى ، وأن الحب المذخور فى جوفى لم يعد بقادر على إرواء حب جديد شره ، وإنما كان كالندى تتفتح له الأزهار التى سبق أن ارتوت قبل أن تستوى على عودها .

وعلى الجبار المستبد ماذا دهاه فى هذه المعركة ؟ هل خدع أو أرخى لى العنان وتركنى أجرى وراء الأوهام ، حتى إذا ما لهثت وتقطعت منى الأنفاس كان أمر سيطرته على هينا ، فيا طالما تركنى أهيم فى مناهات الخيال وأبنى قصو الأمانى ، ثم يهب فجأة ينقض غزلى ويقوض كل ما بنيت ويفرض ما سبق أقرره فى غفلة من عواطفى .

ألا ما أتفه الحقيقة عندما تجرد من تهاويل الخيال !.

واستمرت الأفكار تنثال على رأسى ، وامتزجت ياسمين وفاطمة فى خيالى حتى بت أرى ياسمين عندما أفكر فى شباب فاطمة ، وأرى فاطمة إذا ما قفز خيالى إلى مستقبل ياسمين .

— ٢٤٢ —

وراح النعاس يداعب أجفاني ، فنهضت وخلعت جلبابى الصوف ولبست
بيجامتى ، ولففت نفسى فى « البطانية » الصوف ورقدت ألتمس الدف ، فقد
أحسست قشعريرة برد لاهور تسرى فى جسمى .
ورحت فى سبات ، وترادفت الرؤى والأحلام ، كانت كلها تدور حول
زوجتى وأولادى . وقمت من نومى فى الصباح وقد نسيت رؤى الليل كلها
ولكننى ألفت عيني مبلة بالدموع .

وقفت أمام المرأة أربط كرافتي وألبس بدلتى ، وأفرق شعرى ثم أرسله إلى الخلف كما كنت أفعل أيام شبابى .

كان شعرى أسود فاحما ناعما غزيرا ، وكانت فاطمة تحسدنى عليه ، ولكنه الآن زحف إلى الخلف ولم يبق منه إلا بعض شعرات سود مشى فيها البياض . وتأنقت وغادرت غرفتى إلى غرفة الاستقبال ، لقد كانت أول مرة أرتدى فيها ملابسى الإفرنجية فى لاهور . وقابلنى الشاب الباكستانى المرافق لنا ومرى دون أن يعرفنى ، ولكن لما ألقى عليه التحية وقف ينظر إلى مدهوشا ويقول : — أهو أنت ؟ والله لم أعرفك ، من يرك الآن يحسبك فنانا إيطاليا .

وضحك وقال وهو ينقل بصره من رأسى إلى أخمص قدمى :
— شتان بينك الآن وبينك وأنت بالثياب العربية .

وذهبت إلى غرفة الاستقبال أنتظر موافاة الميعاد ، وأنا أتطلع إلى الساعة بين لحظة وأخرى . وأشرققت الساعة على الخامسة فغادرت دار الضيافة ووقفت فى الطريق .

ومرت بى سيارات وعربات أشبه « بالكارتة » ودراجات ومشاة ، ولم يجذب منظرى عينا واحدة . وأقبلت سيارة ياسمين ووقفت بالقرب منى وأخذ السائق يتلفت منقبا عنى ، وتقدمت من السيارة وفتحت بابها والرجل يرمقنى فى صدر ، ثم اتسعت عيناه دهشة وقال :

— آسف يا سيدى . لم أعرفك فى هذه الثياب .

وركبت وانسابت السيارة بى وأنا أضع ساقا على أخرى وأكاد أضطجع فى المقعد الخلفى وحدى . وفكرت فى ياسمين ورحت أتساءل : ترى كيف ستقابلنى اليوم بعد أن قلت لها وأنا أقرأ كفها : إنها لم تعرف الحب بعد ، وأن الجنية لن تحملها إلى بلد بعيد ؟ غضبت ولا شك وأحنقها التبدل الذى اعترانى . لن يدهشنى إذا ازورت بوجهها عنى وتحامت أن تلتقى عيناي بعينها .

وبلغت الدار فإذا بياسمين تخف إلى وتستقبلنى عند الباب ، وهبطت من السيارة وإذا بآهة إنكار تند من بين شفيتها ، ورمقتنى فى دهش ثم قالت :

— أهو أنت ؟

— نعم أنا .

وسرنا نصعد فى الدرج وقد زال الدهش من وجهها ولاحت على محياها خيبة أمل . فقدت سحرى وهتكت بيدي غلاثل الغموض المثير التى كانت تلفنى ، كنت شيئا مميزا يشتهى فصرت إنسانا عاديا فى لاهور آلاف مثله ، بل فى لاهور آلاف أكثر منه شبابا وأجمل مظهرا .

وبلغنا غرفة الاستقبال وقالت ياسمين :

— لم يخطر هذا على بالى أبدا . لم أكن أتصور أنك ترتدى هذه الثياب .

— لماذا ؟

فقالت وهى تبتسم فى مراة :

— لم يقع فى خلدى أن فارسا يلقي سلاحه مختارا .

فقلت وأنا أضحك :

— قص شمشون شعره بيده .

ومس أذنى حفيف ثوب فالتفت فرأيت فاطمة مقبلة ، فنهضت أستقبلها ،
ومددت لها يدي ومدت يدها إلى وهي تبسم ، ولكن لما وقعت عيناها على
وتفرست في اضطربت وغازت بسمتها وتمتمت في صوت خافت فيه دهشة
وإنكار :

— جمال !

— نعم جمال .

وقالت بالعربية :

— ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

— قدرى .

فقالت ياسمين فى لهفة :

— ماذا حدث ؟ ماذا تقولان ؟ إن شيئا غير متوقع قد وقع ، ما هو ؟ قولى

يا ماما .

فقالت أمها بالإنجليزية فى اضطراب :

— لا شيء .. لا شيء .

ولوت ياسمين شفتها فى ضيق ، وزاد فى ضيقها أننا أخذنا نتحدث

بالعربية ، فدارت على عقبها غاضبة وغادرت الغرفة ..

قالت فاطمة فى صوت متهدج :

— أنت ها هنا فى لاهور ؟ شيء عجيب .. شيء لا يصدق .

فقلت فى هدوء :

— شيء عادى أن أكون هنا فى لاهور ، فأنا فى زيارة للباكستان أمر ببلادها

ثم أعود إلى بلادى، أما أن تكونى أنت هنا ومن أهل هذه البلاد فهذا هو الخير .

ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

فقلت وهى تبسم :

— قدرى .

— وما الذى يسر للقدر أن يوجهك هذه الوجهة ؟

— أنت وهتلر .

— كيف ؟

— ذهبت يوما إلى شارع النزهة لأزور إحدى صديقاتى ولأراك ، وقبل أن أصل إلى مدخل الشارع وقعت عينى عليك وإلى جوارك فتاة بيضاء البشرة شقراء كانت ترتدى بالطو أزرق ، وكنت مقبلا عليها لحادثتها مغتبطا ، ولما كنت أعرف كل قريباتك ، ولما لم تكن واحدة منهن ، فقد تحركت عقارب غيرتى وأحسست كأن خنجرا طعن فؤادى ، وأظلمت الدنيا فى عينى وعدت أدراجى وقد قر فى ذهنى أنك تعبت بى .

كانت الحرب مشتعلة فى تلك الأيام ، وكانت القاهرة غاصة بالفرق الهندية ، وكان ابن خالى ضابطا فى إحدى هذه الفرق ، فجاء لزيارتنا ، ولما رآنى تودد إلّى .

كان قلبى مجروحا وكبريائى تدمى ، فأسلمت له أمرى ليمسح جرح نفسى ، وتقدم إلى أبى يطلب يدى ، وترددت أمى ولكنى أوحيت إليها أننى راضية بهذا الزواج ، فقبلت وهى تبكى ، وبعد شهرين حملنى زوجى إلى هنا . فقلت دون أى انفعال كأنما كنت أقص قصة رجل آخر :

— لو التقينا يوم الخميس كما كنا نلتقى لما كان ما كان ، لقلت لك إنها

صديقة أختي طلبت منى أن أوصلها حتى دارها ، ولأقسمت لك أنه ليس بيني وبينها ما يثير غيرتك أو يغير على قلبك .

انتظرتك طويلا ، وبحث عنك في كل مكان ، في شارع الملك ، في محطة الدمرداش ، في النادي الأهلى ، في شوارع الجزيرة كلها ، وقفت أمام داركم الساعات في الليل والنهار ، ولم أكف عن بحثي إلا بعد أن عرفت أنك تزوجت .

— عرفت ممن ؟

— من زين يوم موت أبيك .

— وعرفت أننى جئت إلى هنا ؟

— كل ما عرفته أنك تزوجت ، ثم دارت بى الدنيا .

— وماذا فعلت ؟

— مضغت أحزاني ، ثم كان ما لا بد أن يكون .. تزوجت .

— ممن ؟

— من نفس الفتاة التى رأيتها معى ، من صديقة أختي ، ظلت أختي تزين

لى الزواج من صديقتها حتى قبلت .

: فشردت فاطمة قليلا ثم قالت :

— هناك قوة عليا أقوى من كل رغباتنا ، تسيرنا إلى حيث نشاء .

— كل خطوة نخطوها لحكمة تخفى علينا ، تكشفها الأيام .

فقالت فاطمة وهى تهز رأسها :

— لولا أن رأيتك مصادفة مع تلك الفتاة ما أنجبت ياسمين .

فقلت وأنا ابتسم :

— ٢٤٨ —

— ولولا تلك المصادفة ما تزوجت من صديقة أختى .

فقالت فاطمة وهى تشرد ببصرها :

— إننا لا ندرى إلى أين نسير .

ووقعت عيناى على صورة زوجها المعلقة على الحائط ، فقلت :

— يبدو لطيفا .

— إنه رجل فاضل رقيق ، أنسانى أهلى .

— وأين هو الآن ؟

— فى رحلة تفتيشية .

— كان يسرنى أن ألقاه .

فقالت وهى تضحك :

— فى المرة القادمة .

— عندما تأتون إلى القاهرة ، لقد جئت إليكم وعليكم أن تسعوا إلينا .

وضحكت فاطمة ثم قالت :

— أسعيد فى زواجك ؟

فأشرق وجهى وقلت :

— أكثر من سعيد ، لم يخطر ببالى قبل أن أتزوج أننى سأسعد فى زواجى

كما سعدت .

— وهل أنجبت ؟

فقلت وأنا أضحك راضيا :

— أنجبت قبيلة .

فضحكت وقالت :

— ٢٤٩ —

— لم تشذ عن الأسرة .

— وكيف أشد وقد بارك الله لنا في الذرية .

— حدثني عن أولادك .

وتحركت عواطفى ، وانبثقت ينباع الحنان فى أغوارى ، وسرت فى جوفى
مشاعر هادئة رقيقة ، وتدفق الحديث وقد حمل صوتى شحنة الحنان المتدفق ،
فحديث أبنائى أحب حديث إلى قلبى ، وقلت :

— كانت باكورة إنتاجى بنتا ، إنها فى مثل سن ياسمين .

— جميلة ؟ *

— الجمال شىء نسبى ، ولكنها تمتاز بخفة المصريين .

فهزت رأسها وقالت :

— أنت أصبح لك بنت فى سن الزواج ؟!

فقلت وأنا أضحك كأنى ألقى نكتة :

— وقد خطبت .

فقلت فى دهش مشوب برهبة :

— ستصبح جدا عن قريب ؟!

— وماذا فى ذلك ؟ هذه سنة الحياة .

— ععلى لا يستطيع أن يتصور أن الشاب الأمرد المنفوش كالديك ، والذى

يغار من ظله ، والذى إذا تذكرت الشباب تمثلته ، يصبح جدا !

— ومن كان يتصور أن الفتاة المرشدة التى دوت لها جنبات النادى الأهل

بالتصفيق تصبح أما لزهرة يافعة تنتظر صاحبها .

فقلت وهى تهز يديها كأنما ترتجف :

— جنيت علىّ بحضورك .. جعلتنى أستشعر دنو الشيخوخة .

فقلت وأنا أبتسم :

— إننا لا نشيخ أبدا ، نتجدد فى أبنائنا ، فما ياسمين إلا شباب فاطمة ، إلى
أرى نفسى فى أولادى ، أرى عنادى وأرى طيشى وأرى رعونتى وتسرعى ،
وأرى اندفاعى وشقاوتى ، فأبتسم وأمتلىء رضا ، وإن كنت أزرع أبنائى
وأنهاهم عن هذه الرعونة والشقاوة والطيش .

إنى سعيد بهذا اللقاء ، أزاح الغشاوة عن عيني وزادنى علما .

وقالت فاطمة :

— أنجبت بنين بالطبع ؟

— كنت عادلا فى إنتاجى ، نصف قبيلتى بنين ونصفها الآخر بنات .

— وكم سن أكبر البنين ؟

— خمسة عشر عاما ، إنه نفس الشاب الأمرد المنفوخ كالديك ، الذى يغار
من النسيم ، والذى يحسب أن العالم ما خلق إلا له ، إلا أن غرورى يوسوس
إلى أحيانا أنه أشد منى غباوة .

وابتسمت فاطمة وقالت :

— عينا أننا نحكم على أولادنا بعقولنا التى نضجت وحنكتها التجارب ،
ونتغافل عما كنا نرتكبه من حماقات لما كنا فى مثل سنهم .

— والله إنى أغمض عيني عن حماقاتهم ، وكثيرا ما يقلقنى ذلك الغمض
حتى أتهم نفسى بالإسراف فى تدليلهم .

— وماذا تمنى لهم ؟

— تعلمت ألا أسرف في التمني ، فما أصعب تحقيق الأمانى ، ولكننى أتقى الله وأسأله اللطف فى قضائه .

— يا إلهى ! تدين الفتى الماجن !

— لما رأى برهان ربه . ما اخترت لنفسى شيئاً واختار الله لى غيره إلا كان ما اختاره الله لى خيراً مما اخترته لنفسى .

وأطرقت فاطمة ، خدش كبرياءها قولى ، ولكننى كنت مؤمناً بما أقول فلم أحاول أن ألطف عبارتى أو أنتقى الألفاظ التى لا تسيء إليها ، وسرعان ما انقشعت السحابة التى لبدت صفحة وجهها وعادت إليها اشراقتها ، واندفعنا فى الحديث عن فلذات قلوبنا .

وكان لا بد من الانصراف فنهضت مستأذناً ، وقالت فاطمة :
— بدرى .

— سنسافر غدا ولم أرتب حقائبى .

— ومتى تتحرك الطائرة ؟

— فى الثامنة صباحاً .

وتلفت وأنا أقول :

— أين ياسمين ؟ ضايقناها الليلة .

فقالت فاطمة وهى تضحك :

— لا بأس . ستستمتع بسماع قصة رائعة .

فقلت وأنا أتأهب للانصراف :

— قصة الشاطر حسن ؟

— ٢٥٢ —

فقالته وهى تضحك :

— لا ، قصة ابن الملك المزيف .

ومدته ىدى وصافحت فاطمة مودعا ، ودرت على عقبى وانطلقت
لا ألوى على شىء .

يا للزمن ! أكنت أصدق أننى سأقابل فاطمة بعد عشرين عاما ثم أودعها
دون أن يخفق قلبى أو يحف حلقى أو تضطرب أنفاسى ؟!

بعثنا بجوائجنا إلى المطار ثم رحنا نتجمع في غرفة الاستقبال ، حتى إذا ما اكتمل عقدنا انطلقنا إلى السيارات المنتظرة عند باب دار الضيافة ، وانساب الركب في الطرقات الهادئة المفعمة بعبير الأزهار . كانت أوبتنا تختلف عن إقبالنا ، كنا نتلفت نستطلع كل ما تقع عليه عيوننا عندما وطئت أقدامنا لاهور أول مرة ، أما الساعة فقد استرخى كل منا ينبش ذكريات المدينة المتأنقة بالجمال .

وزادت أوزاننا ، وانتفخت حقائبنا بالهدايا واشترينا حقائب أخرى ، وزدنا حكمة وعلمنا ، وزادت خطايا بعضنا ، وخلفت لاهور ورأى وقد ازدادت قربا من الله .

وبلغنا المطار في البكرة فألفيت أناسا كثيرين قد خفوا التوديعنا ، وسرنا إلى غرفة الانتظار الداخلية ، وقبل أن ندلف إليها رأيت المضييفة الباكستانية ذات العينين الخضراوين والقامة المشوكة تلوح لنا بيدها ثم تهرع إلينا ، ومرت بي دون أن تلتفت إلى أو تلقى على تحية ثم راحت تصافح زملائي في السوق . واتجهت إلى مصطفى وراحت تحادثه في حنان وتحذب إليه في عطف فتطلق وجهه وتألق وتدق وخف ظله ، ونظر إلى سامى وعقيل وفهد ، وارسمت بسمات عريضة في وجوههم ، بينما كان ممدوح غارقا في التسبيح . ولحت المضييفة آلة التصوير في يد عقيل فطلبت منه أن يلتقط لها صورة مع

— ٢٥٤ —

مصطفى تذكرا لهذه المناسبة السعيدة . ووقف مصطفى إلى جوارها يرنو إليها في وله وأنا صامت ، حتى إذا ما التقطت الصورة صحت :
— وقع الفأر في المصيدة ، لقد اشترت هذه الصورة .

وأخرجت من جيبي عشرة روبيات ودفعت بها إلى عقيل ، وتظاهر عقيل بقبضها ، وقال مصطفى :

— وماذا ستفعل بهذه الصورة ؟

— سأبعث بها إلى زوجتك .

فقال في فزع :

— يا خير أسود .

ودنوت منه وقلت :

— تستطيع أن تشتريها مني وأن تدرأ الفضيحة .

فقال بنبرات جادة :

— بكم ؟

— هذا يحدده مقدار غناك ، لن أحدد السعر قبل أن أعرف كل

أملاكك .

— لا . هذا كثير .. هذا .. هذا ..

— هذه تجارة ، أحدث أنواعها ، ولا تختلف كثيرا عن أساليب التجارة في

عصرنا هذا .. الغاية الآن الغنى من أى طريق وقد وجدت السبيل .

فقال عقيل وهو يضحك :

— وقعت بين برائن خبير .

وخف مصطفى إلى الوزير وقال :

— أنا فى عرضك .

فقال الوزير وهو يتسم :

— ماذا جرى ؟

— أستجير بك من جمال وعقيل . سيخرب جمال بيتى ، تأمر مع عقيل على

أن يلتقط لى صورة مع المضيفة وسيبعث بها إلى زوجتى .

فقال الوزير وهو يضحك :

— لماذا تغارون منه ، ألأنه أخفكم جميعا ؟!

فقلت فى هدوء :

— دخول الجمل سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت الله . إننى

سأؤدى له خدمة جليلة بتخليصه من أضرار المال حتى يتخفف منه ويصبح

أمر دخوله الجنة سهلا .

فقال لى من بعيد :

— يا خبيث .

ووقعت عينى وأنا أتلفت على فاطمة وياسمين ، كانتا مقبلتين نحوى

فارتبكت قليلا وأصلحت مشلحى ، ولاحظ عقيل ما ارتسم على وجهى

فصاح وهو يضحك :

— وقار .

وتقدمت إليهما وصافحت فاطمة وأنا أقول بالعربية :

— أهلا وسهلا . خطوة عزيزة .

ومددت يدى إلى ياسمين وأنا أقول :

— صباح الخير يا بدر البدور .

فقلت بالإنجليزية وهى تبسم :

— صباح الخير يابن الملك المزيف .

فقلت وأنا أسير إلى جوارها :

— إن كان هناك تزيف فهو من صنع خيالك .

— لقد اشتر كنا فى صنعه معا .

— هل أنت نادمة على ذلك ؟

— أبدا . إن أسعد لحظات حياتنا هى التى ينجح فى تزيفها الخيال .

— إنها اللحظات التى نعيش لها وعليها .

ونظرت إلى ساعتى وقلت :

— لا يزال أماننا وقت طويل .

فقلت فاطمة :

— تعالوا نجلس فى البوفيه .

وصعدنا فى الدرج وجلسنا إلى نضد بالقرب من نافذة تطل على حديقة

صغيرة ومسجد بنى حديثا ، ودار الحديث بيننا ، قالت ياسمين :

— قصت على أمى كل شىء أمس ، إنها لا تخفى عنى شيئا ، ولا أخفى عنها

شيئا ، هزتنى حتى بكيت ، مصادفة سيئة حطمت قلبين وفرقت أليفين .

ولم أنفعل ولم تطفر الدموع من عينى ، بل قلت فى هدوء :

— هذه ليست مصادفة ، إنها أقدارنا ، فلولا ذلك التدبير ما جئت أنت إلى

الوجود ، أو لكنت اهتتى .

وتلفتت فاطمة فى ارتباك ونادت الجرسون وطلبت منه أن يحضر لنا شايًا .

ورأيت المضيفة الباكستانية على نضد بالقرب منى ومعها رفيقاها فى الطائرة ،

كانت تسترق النظر إلى في دهش ، فما كانت تتصور أن فقيرا مثلي يجد زهرتين من أزهار لاهور تهتان بأمره .

وقالت فاطمة :

— متى تعود إلى مصر ؟

— بعد بضعة أشهر .

— هل تتكرم أن تمر على زين وبهاء وتطلب منهما أن يكتبوا إليّ ؟ إنني في شوق إليهما وإلى أخبارهما ، تقضت سنوات ولم أتلق منهما كلمة واحدة .

— سأفعل .

وقالت ياسمين :

— أكتب لنا ؟

— يهيجني أن أكتب لأصدقائي أينما كانوا .

وحان موعد الرحيل ، فناديت الجرسون وهممت بأن أدفع له الحساب ، ولكن فاطمة قالت بالعربية :

— لا تحرمني هذا الشرف ، هذه أول مرة منذ التقينا أدفع ثمن مشروب شربناه معا — أنت هنا ضيفنا .

وتركت حافظة نقودي في جيب جلبابي ودفعت فاطمة الحساب ، وقالت ياسمين في مرج :

— فهمت حديثكما وإن كنت لا أعرف كلمة عربية ، كنتما تتحدثان عن الشيكولاتة التي كنت تشتريها لها من محل ألف صنف .
وضحكنا وانطلقنا إلى المطار .

ووقفت أصافح فاطمة مودعا ، وصافحت ياسمين ، وألقيت الهواء يعبث
بشعرها فمددت يدي في بساطة أصلح لها وضع الخصلات المتطايرة .
وانسبت إلى الطائرة وأنا أضم مثلحى حولي ، وصوت ياسمين يرن في
أذني :

— مع السلامة يا عمى جمال .

ورأيت بعين خيالي فاطمة الصغيرة وهي تناديني « عمى جمال » .
وصعدت في الدرج ، وقبل أن أغيب في جوف الطائرة التفت خلفي
ولوحت بيدي مودعا ... وسرت فإذا بالمضيقة ذات العينين الخضراوين
ترقبني في اهتمام .

وجلست أنظر من الشباك القريب مني إلى حيث وقفت فاطمة وياسمين :
فاطمة شاردة وإن رفت على شفيتها بسمة ، وياسمين تلوح بمنديلها في مرح
الأطفال .

وعلا في سهوم ، وبدأ فكري يعمل ويتعجل الزمن ويعودني إلى جدة ، إلى
حيث تركت زوجتي وأولادي الصغار .

رأيت نفسي أضغط جرس باب شقتي .. الباب يفتح .. زوجتي تأتلق
وجهها ويضيء هجعة لعودتي .. أولادي يخفون إلى يتصايحون فرحين .. البنات
الكبيرة تلف ذراعيها حول وسطى .. ابني الصغير يتعلق بساق ... ابنتي
الصغيرة ترفع يديها في الهواء لأحملها وهي تصيح في فرح : « بابا .. بابا » .
إنني أميل عليها وأحملها على ذراعي ، وأميل على ابني وأحمله على ذراعي
الأخرى ، وأسير بهما وابنتي الكبيرة تتعلق بوسطى ، وزوجتي خلفنا في
صدرها سعادة عارمة .

— ٢٥٩ —

وانبثق الحنان في جوفى ، وملأت صورة زوجتى وأولادى الصغار صفحة
ذهنى ، ودوى في أذنى صوت الصغيرة حتى غطى على أزيز المحركات ،
والطائرة تدرج على أرض المطار لتحلق بنا فى الجو ، وتردد فى جنبائى يهتف :
— بابا .. بابا ..

وأحسست جفافا فى حلقي ، وحنينا يتدفق فى جوفى حتى يغرق مشاعرى
جميعا فلا يجد له متنفسا إلا عيني يطفر منهما ويسيل على خدى ، فهتفت فى
لهفة :

— إني قادم .. إني قادم .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفاري
- بلال مؤذن الرسول
- في الوظيفة
- سعد بن أبي وقاص
- همزات الشياطين
- أبناء أبي بكر الصديق
- في قافلة الزمان
- أميرة قرطبة
- النقب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبي
- محمد رسول الله
- تأليف: مولاي محمد علي
- ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمي
- قصص من الكتب المقدسة
- صدى السنين
- حياة الحسين
- ترجم إلى الاندونيسية (مجموعة أقاصيص)
- ترجم إلى الاندونيسية (مجموعة أقاصيص)
- ترجمت إلى الاندونيسية (رواية)
- ترجمت إلى الاندونيسية (قصة)
- ترجمت إلى الاندونيسية (قصة)

- (رواية) — الشارع الجديد
- (قصة) — وكان مساء
- (قصة) — أذرع وسيقان
- (قصة) — المستنقع
- (مجموعة أقاصيص) — ليلة عاصفة
- (رواية) — الحصاد
- (قصة) — جسر الشيطان
- (قصة) — النصف الآخر
- (رواية) — السهول البيض
- (قصة) — أم العروسة
- (قصة) — قلعة الأبطال
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسرائء والمعراج
- القصة من خلال تجارى الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- التمر

— ٢٦٢ —

- الله اكبر
- ثلاثة رجال في حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب في أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

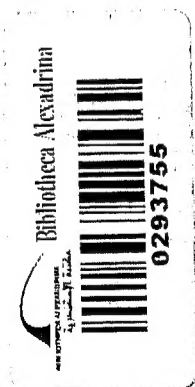
السيرة النبوية في ٢٠ جزءاً

- | | |
|-------------------|---------------------------|
| ١١ — الهجرة | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| ١٢ — غزوة بدر | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| ١٣ — غزوة أحد | ٣ — بنو إسماعيل |
| ١٤ — غزوة الخندق | ٤ — العدنانيون |
| ١٥ — صلح الحديبية | ٥ — قریش |
| ١٦ — فتح مكة | ٦ — مولد الرسول |
| ١٧ — غزوة تبوك | ٧ — اليتيم |
| ١٨ — عام الوفود | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| ١٩ — حجة الوداع | ٩ — دعوة إبراهيم |
| ٢٠ — وفاة الرسول | ١٠ — عام الحزن |

تاريخ: ٢٠١٨/١١/١١
رقم: ١٥٤٠
الترقيم الدولي: ٩٧٧

رقم الإيداع: ١٥٤٠
الترقيم الدولي: ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحالة



الثلث ٥٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه